الدكتور يوسف القرضاوي
الخصائص العامة للإسلام
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة ت: ٣٩١٧٤٧٠

الدكتور يوسف القرضاوي

الخصائص العامة للإسلام

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة - ت ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة السادسة

١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م

مطبعة المدني المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة - ت: ٤٨٢٧٨٥١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

أحمدك ربي حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه ، كما ينبغي لجلال وجهك وسابغ نعمك . وأصلي وأسلم على محمد عبدك ورسولك ، ورحمتك المهداة للعالمين ، وعلى من دعا بدعوته واهتدى بهداه إلى يوم الدين .

أما بعد .. فمنذ بضعة عشر عاماً كنت شرعت أكتب عن «حتمية الحل الإسلامي» في مواجهة الأصوات التى تعالت في مصر وفي العالم العربي حينذاك، تنادي بما سموه «حتمية الحل الاشتراكى».

وكان من الأبواب التي قررت كتابتها: باب بعنوان «خصائص الحل الإسلامي» أخذ يطول ويمتد، حتى أصبح - بمساحته التى انتهى إليها- جديراً أن ينفرد به جزء من أجزاء سلسلة «حتمية الحل الإسلامى».

ولكنى عند التأمل والتحقق ، وجدت أن هذه الخصائص، ليست إلا خصائص الإسلام ذاته . ولعل الأولى بها أن تُفرد فى كتاب مستقل عن تلك السلسلة التي لها طابع الرد أو المواجهة ، ليبقى للكتاب طابعه الثابت الدائم .

ثم إني منذ حوالي خمس سنوات كنت قد دُعيت إلى «ندوة التشريع الإسلامي التي عقدت بمدينة البيضاء فى ليبيا الشقيقة، بدعوة من الجامعة الليبية، وبإشراف كلية الدراسات الإسلامية واللغة العربية بالبيضاء، وذلك لإلقاء بحث تحت عنوان: «الشريعة الإسلامية صالحة للتطبيق فى كل زمان ومكان»[١] .

وكان من الموضوعات التي فرضت نفسها عليّ، لتأييد صلاحية الشريعة وخلودها : موضوع «خصائص الشريعة الإسلامية» الذي تبين لى عند التوغل فى كتابته أنه جدير -أيضاً- أن يستقل به كتاب.

---

(١) نشره المكتب الإسلامي في بيروت بعنوان: شريعة الإسلام: خلودها وصلاحها للتطبيق في كل زمان ومكان . وذلك بعد توسيع وتعديل في البحث الأصلي،كما نشرته دار الصحوة بالقاهرة بعنوان : شريعة الإسلام صالحة للتطبيق في كل زمان ومكان .

ثم رجحت فيما بعد أن أدمج خصائص الشريعة -أو التشريع- في الخصائص العامة للإسلام كله ، بوصفه عقيدة وعبادة وخُلُقاً وتشريعاً.

وعلى هذا استقر رأيي ، وإن كان هناك من المتصلين بي ، من لا يزال يرى إفراد خصائص الشريعة بالنشر مستقلة ، لأن كثيراً من المثقفين المشتغلين بالفقه والقانون ، يهمهم الاطلاع على هذا الجانب خاصة .

وقد يعوقهم عن الاستفادة به ، على الوجه الأكمل ، اندماجه في الخصائص العامة التي قد لا يلتفت بعضهم إليها كثيراً، وقد أفكر في ذلك فيما بعد، إذا يسر الله تعالى .

ولما أُنشئت كليتا التربية للمعلمين والمعلمات في قطر ، ونيط بي تأسيس قسم الدراسات الإسلامية ، وتدريس مادة «الثقافة الإسلامية» لجميع أقسام الكليتين، وكان ضمن منهج هذه المادة «خصائص الإسلام العامة» كانت فرصة لي لإنضاج ما كتبته من قبل وإعداده للنشر.

هذا، وكان الشهيد سيد قطب: قد أخرج - وهو في سجنه - كتابه القيم «خصائص التصور الإسلامي» . وهو - كما يبدو من عنوانه - يعنى بجانب واحد من جوانب الإسلام الرحب ، وهو جانب التصور والاعتقاد .

أي ما يوضح خصائص الفكرة الكلية للإسلام عن الله والكون والحياة والإنسان.

أما خصائص المنهج أو المذهب أو «النظام» الإسلامي كله - بما في ذلك العقائد والعبادات والأخلاق والشرائع- فلم يكن ذلك هدفه في الكتاب، وإن عرض لشيء منه في بعض الأحيان تبعاً لا قصداً.

لهذا كان هذا الكتاب تتمة لكتاب الشهيد رحمه الله . ولا عجب أن اقتبست بعض العناوين الرئيسية منه مثل: الربانية ، والشمول ، والواقعية، والتوازن . وإن لم ألتزم تفسيره لها تماماً . فقد أُوسِّع أو أُضيِّق، وقد أزيد أو أنقص .

مثال ذلك أنه تحدث عن خصيصة «الربانية» بمعنى ربانية المصدر والأساس، وأفاض في ذلك إفاضة بليغة . ولكنه -رحمه الله- لم يلتفت إلى المعنى الآخر للربانية ، وهو ما سميناه «ربانية الغاية والوجهة» وهو معنى أساسي وخطير ،

وربما كان هو المتبادر إلى ذهن المسلم عندما تذكر كلمة «الربانية» أو «الرباني».

كما أنه - رحمه الله - ركّزَ على معنى «الثبات» في الإسلام، وأكده تأكيداً قوياً . وهذا مقبول في جانب التصور والاعتقاد ، كما أنه كان لازماً لمواجهة دعاة «التطور» المطلق في عالمنا ، ولكن إذا تحدثنا عن الإسلام عقيدة وشريعة ونظام حياة، أجد أن خصيصة الإسلام هي الجمع بين الثبات والمرونة معاً ، وهذا ما أثبته هنا.

وقد تناولت بالشرح والتحليل هنا سبع خصائص، هي:

١- الربانية.

٢- الإنسانية.

٣- الشمول، ونعني به شمول الزمان والمكان والإنسان ، وهو في الواقع يضم خصائص ثلاثاً هي: الخلود ، والعالمية ، والاستيعاب.

٤- الوسطية ، أو التوازن .

٥- الواقعية .

٦- الوضوح .

٧- الجمع بين الثبات والمرونة .

ولا أزعم أن هذه هي كل خصائص الإسلام العامة ، فمن الممكن أن يزاد عليها ، وربما فعلت ذلك في طبعة لاحقة إن شاء الله .

كما لا أزعم أني وفيت كل خصيصة منها حقها، ولكني اجتهدت وحاولت ولكل مجتهد نصيب ﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إلاَّ باللَّهِ ، عَلَيْهِ تَوَكَّلتُ وَإليهِ أُنيبُ ﴾ .

القاهرة في ٢٣ صفر سنة ١٣٩٧ هـ

١١فبراير سنة ١٩٧٧ م

يوسف القرضاوي

* * *

الفصل الأول

الرَّبَّانِيَّة

إن الخصيصة الأولى من الخصائص العامة للإسلام هي: الربانية .

والربانية -كما يقول علماء العربية- مصدر صناعي منسوب إلى «الرب» زيدت فيه الألف والنون، على غير قياس ، ومعناه: الانتساب إلى الرب أي الله ، سبحانه وتعالى، ويُطلق على الإنسان أنه «رباني» إذا كان وثيق الصلة بالله ، عالماً بدينه وكتابه، معلماً له . وفي القرآن الكريم: ﴿ وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُم تُعَلِّمُونَ الكِتابَ وَبِمَا كُنتُم تَدرُسُونَ ﴾[1] .

والمراد من الربانية هنا أمران:

١- ربانية الغاية والوجهة .　　　　٢- ربانية المصدر والمنهج.

١- ربانية الغاية والوجهة

فأما ربانية الغاية والوجهة ، فنعني بها: أن الإسلام يجعل غايته الأخيرة وهدفه البعيد، هو حسن الصلة بالله تبارك وتعالى ، والحصول على مرضاته ، فهذه هي غاية الإسلام ، وبالتالي هي غاية الإنسان ، ووجهة الإنسان ، ومنتهى أمله وسعيه وكدحه في الحياة: ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدحاً فَمُلاَقِيهِ ﴾[2] ، ﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ المُنتَهَى ﴾[3] .

ولا جدال في أن للإسلام غايات وأهدافاً أخرى إنسانية واجتماعية ، ولكن عند التأمل ، نجد هذه الأهداف في الحقيقة خادمة للهدف الأكبر ، وهو مرضاة الله تعالى ، وحسن مثوبته . فهذا هو هدف الأهداف ، أو غاية الغايات .

في الإسلام تشريع ومعاملات ، ولكن المقصود منها هو تنظيم حياة الناس حتى يستريحوا ويبرأوا من الصراع على المتاع الأدنى ، ويفرغوا لمعرفة الله تعالى وعبادته والسعي في مراضيه.

---

(١) آل عمران : ٧٩　　(٢) الانشقاق : ٦　　(٣) النجم : ٤٢

وفي الإسلام جهاد وقتال للأعداء ، ولكن الغاية هي: ﴿ حَتَّى لا تَكُونَ فِتنةٌ وَيكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّهِ ﴾[1] .

وفي الإسلام حث على المشي في مناكب الأرض والأكل من طيباتها ، ولكن الغاية هي القيام بشكر نعمة الله وأداء حقه ﴿ كُلوا مِن رِزقِ رَبكُم واشكروا لَهُ ، بَلدةٌ طَيِّبةٌ وَرَبٌّ غفورٌ ﴾[2] .

وكل ما في الإسلام من تشريع وتوجيه وإرشاد ، إنما يقصد إلى إعداد الإنسان ليكون عبداً خالصاً لله ، لا لأحد سواه . ولهذا كان روح الإسلام وجوهره هو التوحيد.

ومعنى التوحيد: أن يعلم الإنسان أنه لا إله إلا الله ، وأن يفرده تعالى بالعبادة والاستعانة ، فلا يشرك به أحداً ، ولا يشرك معه شيئاً . وهذا معنى ﴿إِيَّاكَ نَعبُدُ وإيَّاكَ نَستَعين ﴾[3] التي يرددها المسلم في صلواته كل يوم ما لا يقل عن سبع عشرة مرة ، كلما قرأ فاتحة الكتاب في ركعة من ركعات الصلاة .

ولقد خاطب الله تعالى رسوله محمداً ﷺ بهذه الحقيقة، وأمره أن يعلنها ويبلغها للناس، فقال: ﴿ قُلْ إنَّنيَ هَدَاني رَبِّي إلِيَ صِراطٍ مُستَقيم دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إبراهيمَ حَنيفاً، وما كَانَ مِنَ المشْرِكِينَ * قُل إنَّ صَلاتي وَنُسُكي وَمَحْيايَ وَمَماتي للّه رَبِّ العالمينَ * لا شَريكَ لَهُ، وبِذلكَ أمِرْتُ وأنا أوّلُ المُسْلِمينَ * قُل أغيرَ اللّهِ أبغي رَباً وَهوَ ربُّ كُلِ شَيْءٍ ﴾[4] .

إن الإنسان لم يخلق لمجرد أن يأكل ويشرب ، ويلهو ويلعب ، ثم بعد ذلك يموت أو ينفق كما تنفق الدابة ، كالذين حكى القرآن عنهم أنهم: ﴿ يَتَمتعُونَ وَيأكلُونَ كما تَأكُلُ الأنْعَامُ ﴾[5] إنما خُلِقَ الإنسان لغاية أسمى .

يقولون: إن الأحمق يعيش ليأكل ، والعاقل يأكل ليعيش،ولكن يبقى هنا سؤال يتحتم الإجابة عنه ، هو: ولماذا يعيش العاقل ؟ إن العيش ليس غاية في نفسه ، تقصد لذاتها، بل لابد من هدف يعيش له الإنسان، فما هو ؟.

---

(١) الأنفال : ٣٩ — (٢) سبأ : ١٥ — (٣) الفاتحة : ٥
(٤) الأنعام : ١٦١-١٦٤ — (٥) محمد : ١٢

أما الماديون ، فلا يجدون لهذا السؤال في فلسفتهم جواباً يشفي . وأما المؤمنون فيقولون: إن الإنسان يعيش ليعرف خالقه سبحانه وتعالى ويعبده ويقوم بخلافته في الأرض.

فإذا كان الأحمق يعيش ليأكل ، والعاقل يأكل ليعيش ، فإن المؤمن يعيش ليعبد الله وحده .

يقرر القرآن هذه الحقيقة بوضوح وجلاء حين يذكر الغاية من خلق الجن والإنس فيقول تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾[١] .

بل يبين القرآن أن خلق العالم كله علويه وسفليه ، سمواته وأرضه، لم تكن الغاية منه إلا أن يعرف الناس ربهم القادر على كل شيء ، العليم بكل شيء . وهذه المعرفة هي باب كل هدى، ومفتاح كل خير ، يقول سبحانه: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾[٢] .

الإنسان إذن لم يخلق لنفسه ، فكل شيء في هذا الكون قد خُلق ليؤدي خدمة لغيره . وهو كذلك لم يُخلق لخدمة شيء آخر من مخلوقات هذا الكون، فكل ما في الكون سُخِّرَ لخدمته، كما قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَوا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾[٣] .

كل ما في الكون قد خلق للإنسان . أما الإنسان نفسه فقد خُلِقَ لله جل جلاله . لمعرفته وعبادته، وأداء أمانته في الأرض . وكفى بهذا شرفا وفخراً، فهو سيد في الكون، عبد لخالقه وحده.

* * *

● من ثمرات هذه الربانية في النفس والحياة:

ومما لا ريب فيه أن لهذه الربانية -ربانية الغاية والوجهة- فوائد وآثارا جمة في النفس والحياة يجني الإنسان ثمارها في هذه الدنيا، فضلاً عن ثمراتها في الآخرة . وهي ثمار في غاية الأهمية .

---

(١) الذاريات : ٥٦-٥٨ (٢) الطلاق : ١٢ (٣) لقمان : ٢٠

فمن آثار هذه الربانية وثمراتها:

أولاً -معرفة غاية الوجود الإنساني:

أن يعرف الإنسان لوجوده غاية ، ويعرف لمسيرته وجهة ، ويعرف لحياته رسالة، وبهذا يحس أن لحياته قيمة ومعنى، ولعيشه طعماً ومذاقاً ، وأنه ليس ذرة تافهة تائهة في الفضاء ، ولا مخلوقاً سائباً يخبط خبط عشواء في ليلة ظلماء ، كالذين جحدوا الله أو شكُّوا فيه ، فلم يعرفوا: لماذا وجدوا؟ ولماذا يعيشون؟ ولماذا يموتون؟

كلا، إنه لا يعيش في عماية، ولا يمشي إلى غير غاية ، بل يسير على هدى من ربه، وبينة من أمره، واستبانة لمصيره ، بعد أن عرف الله وأقر له بالوحدانية .

إنه لا يقول ما قاله الشاعر الحائر المرتاب:

لبست ثوب العيش لم أُستشر — وحرت فيه بين شتى الفكر!
وسوف أنضو الثوب عني، ولم — أدر: لماذا جئت؟ أين المفر؟!

أو ما قاله الآخر:

جئت لا أعلم من أين — ولكنــي أتيــت؟

كلا .. فقد اتضحت وجهته الربانية، وعرف من أين جاء، ولِمَ جاء ، وإلى من فراره ، وأين قراره . إن حسبه أن يقرأ من كتاب ربه ما رد به إبراهيم خليل الرحمن على عبدة الأوثان فقال: ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ * الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾(١) .

ثانياً- الاهتداء إلى الفطرة :

ومن ثمرات هذه الربانية وفوائدها: أن يهتدي الإنسان إلى فطرته التي فطره الله عليها، والتي تطلب الإيمان بالله تعالى، ولا يعوضها شيء غيره . يقول تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ للدِّينِ حَنِيفاً ، فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ، لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ﴾(٢) .

---

(١) الشعراء : ٧٧-٨٢

(٢) الروم : ٣٠.

واهتداء الإنسان إلى فطرته ليس كسباً رخيصاً . بل هو كسب كبير . وغنى عظيم، فيه يعيش المرء في سلام ووئام مع نفسه، ومع فطرة الوجود الكبير من حوله، فالكون كله رباني الوجهة ، يُسَبِّح بحمد الله: ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾[1] .

والحقيقة أن في فطرة الإنسان فراغاً لا يملؤه علم ، ولا ثقافة ولا فلسفة، إنما يملؤه الإيمان بالله جل وعلا .

وستظل الفطرة الإنسانية تحس بالتوتر والجوع والظمأ ، حتى تجد الله، وتؤمن به، وتتوجه إليه.

هناك تستريح من تعب وترتوي من ظمأ، وتأمن من خوف، هناك تحس بالهداية بعد الحيرة،والاستقرار بعد التخبط، والاطمئنان بعد القلق، ووجدان المنزل والأهل بعد طول الغربة، والضرب في أرض التيه.

فألقت عصاها واستقر بها النوى كما قَرَّ عيناً بالإياب المسافر

فإذا لم يجد الإنسان ربه - وهو أقرب إليه من حبل الوريد- فما أشقى حياته وما أتعس حظه ، وما أخيب سعيه !

إنه لن يجد السعادة، ولن يجد السكينة، ولن يجد الحقيقة .. لن يجد نفسه ذاتها: ﴿ كالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ﴾[2] .

فتصور إنساناً يعيش دون أن يجد نفسه، وهو في رأي نفسه، وفي نظر الناس بشر عاقل، سميع بصير، بل لعله جامعي مثقف، ولعله -فوق ذلك- «دكتور» كبير في العلوم أو الآداب !

وكيف يجد نفسه من لم يعرفها؟ وكيف يعرفها من حُجِبَ عنها بالغرور والكِبْر؟ أو شُغِلَ عنها باتباع الشهوات ، والإخلاد إلى الأرض، والغرق في لذائذ الحس، ومطالب الجسد والطين ؟

إن الإنسان خلق عجيب، جمع بين قبضة من طين الأرض، ونفخة من روح الله، فمن عرف جانب الطين، ونسي نفخة الروح، لم يعرف حقيقة الإنسان.

---

(١) الإسراء : ٤٤ (٢) الحشر : ١٩

ومن أعطى الجزء الطيني فيه غذاءه وريه مما أنبتت الأرض، ولم يعط الجانب الروحي غذاءه من الإيمان ومعرفة الله ، فقد بخس الفطرة الإنسانية حقها، وجهل قدرها ، وحرمها ما به حياتها وقوامها.

قال ابن القيم[1] - رحمه الله :

«في القلب شعث لا يلمه إلا الإقبال على الله.

وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس بالله.

وفيه حزن لا يُذهبه إلا السرور بمعرفته، وصدق معاملته.

وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه، والفرار إليه.

وفيه نيران حسرات لا يطفئها إلا الرضا بأمره ونهيه وقضائه، ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه.

وفيه فاقة لا يسدها إلا محبته والإنابة إليه، ودوام ذكره، وصدق الإخلاص له، ولو أعطي الدنيا وما فيها لم تسد تلك الفاقة أبداً».

وهذا ليس كلام عالم فحسب، بل كلام ذائق مجرب، يقول ما خبره وأحس به في نفسه، وما رآه ولاحظه في الناس من حوله.

إنها الفطرة البشرية الأصيلة التي لا تجد سكينتها إلا في الاهتداء إلى الله والإيمان به، والالتجاء إليه.

إنها الفطرة التي لم يملك مشركو العرب في جاهليتهم أن ينكروها مكابرة وعناداً .

﴿ ولَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾[2] .

وقد يتراكم على هذه الفطرة صدأ الشبهات أو غبار الشهوات . وقد تنحرف وتتدنس باتباع الظن أو اتباع الهوى، أو التقليد الجاهل للأجداد والآباء،

---

(١) في كتابه «مدارج السالكين».

(٢) سورة العنكبوت: ٦١ وقد تكرر هذا المعنى في عدة سور.

أو الطاعة العمياء للسادة والكبراء . وقد يُصاب الإنسان بداء الغرور والعجب فيظن نفسه شيئاً يقوم وحده، ويستغني عن الله !!

بَيد أن هذه الفطرة الأصيلة تذبل ولا تموت، وتكمن ولا تزول، فإذا أصاب الإنسان من شدائد الحياة وكوارثها ما لا قبل له به ، ولا يد له ولا للناس في دفعه ، ولا رفعه ، فسرعان ما تزول القشرة السطحية المضللة ، وتبرز الفطرة العميقة الكامنة، وينطلق الصوت المخنوق المحبوس، داعياً ربه، منيباً إليه . كما قال تعالي: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾[1] .

هذه الفطرة حقيقة أجمع عليها الباحثون في تاريخ الأمم والأديان والحضارات فقد وجدوا الإنسان منذ أقدم العصور يتدين ويتعبد ويؤمن بالله، حتى قال أحد كبار المؤرخين:

«لقد وُجِدَتْ في التاريخ مدن بلا قصور ولا مصانع ولا حصون، ولكن لم توجد أبداً مدن بلا معابد».

ولهذا كانت مهمة رسل الله كافة في جميع الأعصار، هي تحويل الناس من عبادة المخلوقات إلى عبادة الخالق، وكان نداؤهم الأول إلى قومهم: ﴿ أنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾[2] ، ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾[3] .

أما وجود الله تعالى فكان أمراً مسلماً به، مفروغاً منه، لدى كافة الأمم في كل الأزمنة والعصور، ولم يجادل فيه إلا قلة مسحوقة لا يقام لها وزن . ولهذا لم يشغل رسل الله أنفسهم بإثبات وجود الله، وإقامة الأدلة عليه ، بل بإثبات وحدانيته في ربوبيته وألوهيته، واستحقاقه أن يُفرد بالعبادة دون غيره[4] ، وفي هذا يقول القرآن:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ إلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّه لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾[5] .

---

(١) الإسراء: ٦٧ (٢) النحل: ٣٦.

(٣) ذكر القرآن هذا القول على لسان نوح وهود وصالح وشعيب في سورة الأعراف: الآيات: ٥٩ . ٦٥ . ٧٣ . ٨٥، وقد تكرر معناه في عدة سور.

(٤) من كتاب «الإيمان والحياة» للمؤلف ص٩٤ - ٩٧ (٥) الأنبياء: ٢٥

ثالثاً - سلامة النفس من التمزق والصراع :

ومن ثمرات هذه الربانية -ربانية الغاية والوجهة- سلامة النفس البشرية من التمزق والصراع الداخلي، والتوزع والانقسام بين مختلف الغايات، وشتى الاتجاهات.

لقد اختصر الإسلام غايات الإنسان في غاية واحدة هي إرضاء الله تعالى، وركَّز هُمومه في هم واحد هو العمل على ما يُرضيه سبحانه.

ولا يريح النفس الإنسانية شيء كما يريحها وحدة غايتها ووجهتها في الحياة، فتعرف من أين تبدأ، وإلى أين تسير، ومع من تسير.

ولا يُشقي الإنسان شيء مثل تناقض غاياته، وتباين اتجاهاته، وتضارب نزعاته، فهو حيناً يُشرِّق، وحيناً يُغرِّب، وتارة يتجه إلى اليمين، وطوراً يتجه إلى اليسار، ومرة يُرضي زيداً فيغضب عمرو، وأخرى يُرضي عمراً فيَغضب زيد، وهو في كلا الحالين حائر بين رضا هذا وغضب ذاك.

ومن في الناس يُرضي كل نفس ... وبين هوى النفوس مدى بعيد؟!

إن عقيدة التوحيد قد منحت المسلم يقيناً بأن لا رب إلا الله يُخاف ويُرجى، ولا إله إلا الله، يُجتنب سخطه، ويُلتمس رضاه، وبهذا أخرج المسلم كل الأرباب الزائفة من حياته، وحطم كل الأصنام المادية والمعنوية من قلبه، ورضي بالله وحده رباً، عليه يتوكل، وإليه ينيب، وفي فضله يطمع، ومن قوته يستمد، وله يتودد، وإليه يحتكم، وبه يعتصم: ﴿ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾[1].

فأين هذا من المشرك بالله، الذي تعددت أربابه، وتضاربت وجهاته، وقد مثَّله القرآن الكريم بعبد له أكثر من سيد، وهم شركاء متشاكسون غير متوافقين، كل يأمره بضد ما يأمره به الآخر، ويريد منه غير ما يريده. فهمه متفرق، وقلبه مشتت، يقول تعالى: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ[2] هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ﴾[3]؟

---

(١) آل عمران: ١٠١

(٢) أي: خالص الملكية لرجل واحد، لا شركة فيه ولا مشاكسة، فهو يعرف سيده، ويعرف ما يطلبه وما يرضيه، وكيف يرضيه. وهذا مثل المؤمن الموحد.

(٣) الزمر: ٢٩

وقال يوسف عليه السلام لرفيقه في سجن عزيز مصر، وقد كانا كقومهم ممن يعبدون مع الله آلهة أخرى: ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ، إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ ، أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾[1] .

رابعاً - التحرر من العبودية للأنانية والشهوات:

ومن ثمرات هذه الربانية: أنها - حين تستقر في أعماق النفس - تُحرر الإنسان من العبودية لأنانيته وشهوات نفسه، ولذات حسه، ومن الخضوع والاستسلام لمطالبه المادية، ورغباته الشخصية.

وذلك أن الإنسان «الرباني» يقفه إيمانه بالله وباليوم الآخر موقف الموازنة بين رغبات نفسه، ومتطلبات دينه . بين ما تدفعه إليه شهوته، وما يأمر به ربه، بين ما يمليه عليه الهوى، وما يمليه عليه الواجب . بين متعة اليوم، وحساب الغد، أو بين لذة عاجلة في دنياه ، وحساب عسير ينتظره في أخراه.

وهذه الموازنة والمساءلة جديرة أن تخلع عنه نِير العبودية للهوى والشهوات، وأن ترتفع به إلى أفق أعلى من الأنانية والبهيمية . . أفق الإنسانية المتحررة التي تتصرف بوعيها وإرادتها، لا بوحي بطنها وفرجها وغريزتها الحيوانية.

فإذا لم يرتق إلى هذا الأفق الوضيء، فإنه يظل رانياً إليه، حريصاً عليه، متشبثاً به . وإذا انحدر عنه يوماً، فسرعان ما يعود إليه تائباً من ذنبه مستغفراً لربه.

فليس الإنسان الرباني هو الإنسان الملاك، الذي لا يقع في خطيئة ولا خطأ، فهذا لا وجود له إلا في عالم الخيال أو المثال . إنما الإنسان الرباني، هو الإنسان «الأوَّاب» الذي يشعر بالتقصير كلما زَلّ، ويرجع إلى الله كلما أذنب: ﴿ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً ﴾[2] .

---

(١) يوسف : ٣٩ـ ٤٠ (٢) الإسراء : ٢٥

ولهذا عدَّد الله أوصاف المتقين الذين أعدَّ لهم جنة عرضها السموات والأرض وكان منها: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ، وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[1].

ليس عجيباً إذن أن يتورط الإنسان في معصية الله وتغلبه شهوته وهواه، فقديماً عصى آدم أبو البشرية ربه، وغره الشيطان حتى ارتكب ما نهاه الله عنه من الأكل من الشجرة، ولكنه ما أسرع ما تاب وأناب، وقرع باب ربه بالاعتراف والاستغفار: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[2]، ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾[3].

ولقد عصى آدم، وعصى إبليس، فغفر لآدم، ولم يغفر لإبليس، لأن معصية آدم كان سببها الضعف والنسيان: ﴿ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾[4] ثم أعقبتها توبة نصوح تمحو أثر الذنب كما تمحو إشراقة الصبح ظلمة الليل. ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾[5] أما معصية إبليس فكان سببها الكبر والتمرد على أمر الله: ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ، خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾[6] ولم يعقبها إلا الإصرار على الضلال والإضلال: ﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُم صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ، وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾[7].

إن الإنسان الرباني قد تُتاح له الشهوة الحرام، تُعرض عليه بلا رقيب ولا حسيب من البشر، فيدعها حياء من الله، وحرصاً على أن يظله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، فيقول ما قال يوسف الصديق حين راودته امرأة العزيز عن نفسه: معاذ الله.

وإن الإنسان الرباني قد يُتاح له المال الحرام، عن طريق الرشوة السافرة او المقنَّعة، أو استغلال المنصب والنفوذ، أو غير ذلك من أكل أموال الناس بالباطل،

---

(١) آل عمران: ١٣٥ (٢) الأعراف: ٢٣ (٣) البقرة: ٣٧ (٤) طه: ١١٥
(٥) طـه: ١٢٢ (٦) سورة ص: ٧٦ (٧) الأعراف: ١٦ ـ ١٧

فيرفضه، راضياً بالقليل، قانعاً بالحلال، موقناً أن كل لحم نبت من حرام فإن النار أولى به، وهو لا يحب أن يشتري جهنم بشيء ولو كان ملك المشرق والمغرب.

حسبه أن يتلو قول الله تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[1].

وإن الإنسان الرباني قد يُتاح له الجاه والمنصب الحرام عن طريق موالاة المعتدين، أو معاونة الظالمين، أو السير في ركاب الطاغين، فيأبى عليه دينه، وينهاه إيمانه، متذكراً قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ ﴾[2].

وإن الإنسان الرباني قد يُتاح له أن يتمكن من خصمه، ويستطيع أن يشفي منه نفسه، وأن يرد له الصاع صاعين، فينقع غلته بالانتقام منه، ويستمتع بقهره وإذلاله، ولكن ربانيته السمحة تأبى عليه إلا أن يقف موقف العفو والصفح والسماح، فيقول ما قال يوسف لإخوته: ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ، يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾[3].

* * *

- تفاوت الغايات والأهداف لدى الأفراد:

والناس تتفاوت غاياتهم وأهدافهم -أفراداً وجماعات- تفاوتاً بعيداً، ويختلفون فيها اختلافاً شاسعاً، يرتفع فيه بعضهم إلى أفق الملائكة، وينزل به بعضهم إلى حضيض الشياطين.

وهذا في الواقع هو الاختلاف الأكبر والأعمق بين الناس: أعني الاختلاف على الأهداف.

أما الاختلاف على الوسائل والطرائق، فهو أخف وأهون، بعد الاتفاق على الغاية والوجهة.

---

(١) يونس : ٥٨
(٢) هود : ١١٣
(٣) يوسف : ٩٢

وقد قال أحد الشعراء:

كل من في الوجود يطلب صيداً غير أن الشباك مختلفات !

وكان أولى به أن يقول: غير أن الصيود - جمع صيد - مختلفات، لأن الخلاف الأكبر بين البشر، ليس على نوعية الشباك التي بها يحصلون على صيدهم، بل على الصيد ذاته: ماذا يكون؟ وأين يكون؟ وكم يكون؟ وكيف يكون؟!!

وإذا نظرنا إلى الأفراد وغاياتهم وجدناهم أصنافاً عديدة متنوعة:

(أ) فمنهم من يعيش حياته، غارقاً في لذات حسه، دائراً حول مطامح نفسه . فأقصى غايته، وجل اهتمامه، ومحور تفكيره، يدور حول عبادة «ذاته» يطوف بها كالوثني بصنمه، لا يخترق حجاب الحس إلى ما وراء المادة ، ولا يرنو ببصره إلى شيء وراء دنياه العاجلة، وشهواته البهيمية، ومطالبه المادية الأنانية الآنية.

وفي سبيل هذه الغاية، لا يُبالي أن يُضَحِّي بكل ما يعوقه ويقف في سبيله من القيم والمثل والمعتقدات، وبكل من يعوقه ويقف في طريق شهواته من البشر.

يفعل ذلك جهرة إن ملك القدرة عليه، وكان ذا جاه وسلطان، وقد يرتكبه سراً وخفية، فراراً من طائلة العقاب والقانون.

في سبيل شهواته وأهوائه، ومطامعه ومصالحه، لا يهمه أن يبذل العرض، أو يهدر الشرف، أو يضيع الأهل والولد، أو يبيع الصديق، أو يخون الوطن، أو يتمرد على العقيدة.

لا يحجزه عن ذلك ضمير، فقد مات ضميره وأهيل عليه التراب، ولا إيمان، فلا إيمان لمن كان إلهه هواه، وشهوته معبوده، ولا عقل، فإن شهواته عطلت عقله، وأهواءه أغلقت منافذ تفكيره : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ ﴾[1] .

وقد عرفنا هذا الصنف «الأناني» وجربناه، وعانينا منه الأمرين، ولاقت الأمم قديماً وحديثاً على يديه الويلات بعد الويلات.

---

(١) القصص : ٥٠

وعليه نبَّه القرآن الكريم في كثير من آياته، مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا، أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ، أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾[1].

وفي سورة أخرى يقول: ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً* أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ، إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ، بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾[2].

هذا الصنف البهيمي الأناني -عابد هواه- قد خرَّب أجهزة المعرفة التي منحه الله إياها من الأسماع والأبصار والقلوب، وعاش حياة أدنى مرتبة من حياة الأنعام وأضل سبيلاً.

وإنما كانت كذلك لأمرين:

أولهما: أن الأنعام تؤدي مهمتها المنوطة بها في الوجود، فلم تر بقرة تمردت على أن تُحلب، ولا جملاً تمرد على أن يُركب، وإنما تؤدي رسالتها في خدمة الإنسان . . تحرث الأرض، وتسقي الحرث، وتحمل الأثقال، وتدر اللبن، وتعطي من أشعارها وأصوافها وأوبارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين.

والثاني: أن هذه الأنعام لم تؤت ما أوتي الإنسان من المواهب الفكرية والروحية، ولم يُسخَّر لها ما في السموات وما في الأرض، ولم يبعث لها رسول، ولم يُنَزَّل عليها كتاب.

وإنما الذي أوتي هذا كله هو الإنسان، فإذا أهمل هذه النعم ولم يقم بشكرها، ونسي رسالته، وعاش لبطنه وفرجه وشهوته، كما تعيش الدواب، كان -بلا ريب- أضل منها سبيلاً.

(ب) ومن الناس من لا هدف له في الحياة إلا إذلال الناس ، والإضرار بهم ، والكيد لهم ، كأن رسالته التي خلق لها هي الإفساد في أرض الله ، والعدوان على خلق الله .

---

(١) الأعراف : ١٧٩

(٢) الفرقان : ٤٣-٤٤

استحالت نِعَم الله في يديه إلى سياط للإيذاء ، وأسلحة للفتك ، وآلات للتدمير.

هذا الصنف كالذي قبله ، يعيش لدنياه العاجلة ، ولأنانيته البشعة . ولكن يفترقان في المزاج فقط.

فإذا كان اتجاه الصنف الأول أنانياً شهوانياً ، فهذا ترى اتجاهه أنانياً عدوانياً.

الصنف الأول فقد خصيصة الإنسان واستحال إلى حيوان ، وهذا الصنف فقد كذلك خصيصة الإنسان ، ولكنه استحال إلى شيطان.

فالشيطان لا هَمَّ له إلا الإفساد والكيد والتضليل والإغواء ، وهذا الصنف هو الذي لعنه الله وذمه في كتابه بقوله: ﴿ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾[1].

هذا الصنف إذا تمكن من رقاب البشر يوماً ما بولاية أو رياسة أو نفوذ ، وجدته نمروذاً كنمروذ إبراهيم يقول: أنا أحيي وأميت ، كما يحيي الله ويميت! أو فرعوناً كفرعون موسى ، يُذبِّح الأبناء ، ويستذل النساء ! أو طاغية كنيرون روما أو غيره من جبابرة التاريخ.

فإذا لم يكن له سلطان نمروذ ولا فرعون ، كان طاغية صغيراً ، أو ذيلا لطاغية كبير.

والقرآن قد حكم بالإثم والهلاك على فرعون ووزيره وجنوده جميعاً ، لأن الذي يخلق فرعون الكبير إنما هم أعوانه من الفراعنة الصغار . قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴾[2] ، وقال سبحانه: ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عاقِبَةُ الظَّالِمِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنْصَرُونَ * وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾[3].

---

(١) الرعد : ٢٥ (٢) القصص : ٨ (٣) القصص : ٤٠-٤٢

قد يغطي هذا الصنف الذي خبث باطنه بظاهر مزخرف ، ولسان يخدع الناس بمعسول القول ، وحلو الكلام.

فإذا سبرت غوره ، لم تجد وراء هذا الظاهر إلا باطناً خراباً ، وضميراً ميتاً ، ونفساً متطاولة على الخلق ، مستكبرة عن الحق ، مقبلة على الشر ، معرضة عن الخير . كذلك الذي وصفه القرآن فقال: ﴿ ومِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ، وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ ، فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ ، وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾(١) .

(جـ) وثمت صنف آخر غير هذا وذاك . .

صنف لا يعبد نفسه ، ولا يدور حول ذاته دوران الحمار في الرحا ، أو الثور في الساقية !

إنه يعبد الله وحده لا شريك له ، فهدفه مرضاته ، وغايته محبته ، والقرب منه وحسن الاتصال به . . لا يريد إلا وجهه ، ولا يبتغي إلا مثوبته ، لا يحب ولا يبغض إلا فيه ، ولا يعطي ولا يمنع إلا له.

أما الدنيا ، فهي عنده أداة لا هدف ، ووسيلة لا غاية ، فهو يملكها ولا تملكه ، ويُسخِّرها ولا تُسَخِّره ، ويجعلها في يده ، ولكن لا يملأ بها قلبه.

إنه يدعو ربه بما دعا به محمد عليه الصلاة والسلام: «اللّهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ، ولا مبلغ علمنا».

وهذا هو الصنف «الرباني» الذي عاش لله وبالله.

صلاته ونسكه لله ، ومحياه ومماته لله ، ونيته وعمله لله ، وجهده وجهاده لله.

إنه يفعل الخير للناس ، ويُسدي المعروف للضعفاء والمساكين ، ولكنه لا يطلب منهم ثمناً لمعروفه ، لأن غايته أن يحمده الله لا أن يحمدوه ، وأن يرضى عنه الله لا أن يرضواعنه﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وأَسِيراً * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً ﴾(٢) .

---

(١) البقرة : ٢٠٤-٢٠٦ (٢) الإنسان : ٨ - ٩

إنه يكف يده عن الشر ، ولسانه عن الأذى ، ولا يقابل السيئة بالسيئة ، بل يدفع بالتي هي أحسن ، لا خشية من أحد،بل خشية من الله جل جلاله.

ألم تر إلى ابن آدم المؤمن الخيِّر ، حين هدده أخوه بالقتل ، لم يرد عليه السوء بمثله ، بل قال في أدب وكرم: ﴿ لَئِنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ ، إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ العَالَمِينَ ﴾[1] .

إنه يدعو إلى الخير ، ويأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويصلح بين الناس ، ويميط الأذى عن الطريق.

إنه يعلم الجاهل ، ويهدي الحائر ، ويرشد الضال . . لا يطلب جزاءه إلا من الله . وشعاره في ذلك ما ذكره الله تعالى على ألسنة رسله حين قال كل رسول لقومه: ﴿ وَمَا أَسأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ، إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ العَالَمِينَ ﴾[2] .

إنه يضع رأسه على كفه ، ويُقَدِّم روحه فداء للحق ، ويبذل النفس والمال ذياداً عن القيم والحرمات . ولكنه لا يفعل هذا ليُذكر اسمه في قائمة الأبطال ، ولا ليرى مكانه وتتحدث عنه أجهزة الإعلام ، ولا ليحوز غنيمة دنيوية ، ولكن لتكون كلمة الله هي العليا ، وليوفى بالصفقة التي عقدها الله معه حين اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة.

والعجيب أن هذا الصنف الذي فنى عن حظ نفسه من أجل حق ربه ، والذي نسى ذاته وذكر الله وحده ، هذا الصنف هو الوحيد الذي يعمل في الحقيقة من أجل نفسه : من أجل نجاتها وسعادتها..

إنه -عند التأمل- أوعى الأصناف وأحرصها على سعادة نفسه ، ولكنه - بنور بصيرته ، وعمق تفكيره - لم يبع آجلاً بعاجل ، ولا باقياً بفان . وقد قال أحد حكماء الصالحين: لو كانت الدنيا ذهباً يفنى والآخرة خزفاً يبقى . لوجب على العاقل أن يختار الخزف الباقي على الذهب الفاني . فكيف إذا كانت الدنيا هي الخزف الفاني ، والآخرة هي الذهب الباقي؟!

والحقيقة التي لا ريب فيها ، أن النسبة بين هذه الحياة الدنيا وبين الآخرة ، أكبر

---

(١) المائدة : ٢٨ (٢) الشعراء : ١٠٩

وأبعد وأعمق مما بين الخزف والذهب بكثير وكثير . ولكن الأمثال تُضرب للتقريب والتوضيح.

ولا شك أن أخسر الناس ، وأظلمهم لنفسه ، من حرمها سعادة الأبد . ونعيم الأبد ، من أجل متعة عارضة ، وشهوة زائلة.

وأن أربح الناس بضاعة من باع لذة فانية ، أو شهوة عاجلة ، واشترى جنة عرضها السموات والأرض ، فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خَطَرَ علي قلب بشر: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[1] .

والواقع أن هذا الصنف لم يخسر دنياه حين آثر آخرته ، فوجه لها إرادته ، وسعى لها سعيها وهو مؤمن.

لقد كسب الحياتين ، وجمع الحسنتين: حسنة الدنيا ، وحسنة الآخرة اللتين يحرص عليهما المؤمنون ، ويسألونهما الله سبحانه: ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً ﴾[2] .

إن الربانية قد تحرم الإنسان من بعض اللذائذ العاجلة ، وبعض المنافع القريبة ، ولكنها تحميه بهذا الحرمان - من شرور ومخاطر كانت ستعود بالضرر المؤكد عليه ، أو على مجتمعه ، أو على الإنسانية . كما سنشير إلى ذلك بعد.

وهي مع هذا تمنحه -في مقابل هذا الحرمان الجزئي الموقوت- سكينة نفسية ، وطمأنينة روحية ، لا تُقَدَّر قيمتها بمال ، لأنها هي سر السعادة التي ينشدها كافة البشر ، فلا يجدها إلا القليل.

وهي السعادة التي قال فيها بعض المؤمنين الذين ذاقوا حلاوتها: «لو علم بها الملوك لجالدونا عليها بالسيوف»!

لقد كان الصنف الأول هو الإنسان الحيواني.

وكان الصنف الثاني هو الإنسان الشيطاني.

---

(١) السجدة: ١٧ (٢) البقرة: ٢٠١

أما هذا الصنف الثالث فهو الإنسان الرباني.

إن تسمية كل من الصنفين الأولين بالإنسان تسمية مجازية . أما الصنف الثالث فهو وحده الإنسان.

* * *

• وسائل الإسلام لغرس الربانية في النفس والحياة:

والإسلام يسعى إلى غرس هذه الربانية في نفس كل مسلم وفي حياته ، بوسائل شتى ، وأساليب متنوعة.

• طريق العبادات:

عن طريق العبادات المفروضة لزوماً ، والمندوبة استحباباً: من الصلاة تتكرر كل يوم وليلة خمس مرات ، هي للروح أشبه بالوجبات للجسم ، تجعل المؤمن دائما على موعد مع الله تعالى . كلما غرق الإنسان في لجج الحياة اليومية ومشاغلها ، قام المؤذن ينادي الله أكبر .. الله أكبر . حي على الصلاة . حي على الفلاح . فينتشل المسلم نفسه من دنياه -دنيا الصراع والمتاع- ليقف بين يدي ربه دقائق يفضي إليه فيها بذات نفسه ، داعياً بالخير لنفسه ولأمته ، مترقياً من المادية إلى الروحية ، ومن الأنانية إلى الغيرية ، سائلاً ربه بلسان الجماعة كلها: ﴿ إِهْدِنَا الصِرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾[1].

ومن صيام يتكرر شهراً في كل عام ، يحرم المسلم فيه نفسه من شهوات الطعام والشراب والجنس ، كل يوم من تبين الفجر إلى غروب الشمس ، تربية للإرادة ، وتدريباً على التقوى ، وعلى كمال العبودية لله سبحانه . وفي هذا يقول الحديث القدسي: «الصيام لي وأنا أجزي به ، يدع طعامه من أجلي ، ويدع شرابه من أجلي ، ويدع زوجته من أجلي ، ويدع لذته من أجلي».

ومن زكاة يغالب بإخراجها شح نفسه ، ويُزكّي بها ماله وروحه ، ويشكر بها نعمة ربه عليه ، وفي هذا يقول القرآن: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وتُزَكِّيهِمِ بِهَا ﴾[2] ولهذا سُميت «زكاة» لما تُوحي به هذه الكلمة من معاني

---

(١) الفاتحة : ٦

(٢) التوبة : ١٠٣

الطهارة والنماء والبركة ، على عكس كلمة «الضريبة» التي تُوحي بمعنى القهر والإجبار والغرامة . ولهذا يُطلب من المسلم أن يُؤديها طيبة بها نفسه ، داعياً ربه أن يتقبلها منه قائلاً: «اللّهم اجعلها مَغْنَماً ، ولا تجعلها مَغْرَماً».

ومن حج ، يفارق فيه المسلم وطنه ومسقط رأسه ، ويدع أهله وعشيرته ، مهاجراً إلى الله ، باذلاً من نفسه وماله ، ومحتملاً المكاره والمشقة في ذات الله ، حتى يصل إلى الأرض المقدسة ، حيث أول بيت وُضِعَ لعبادة الله في الأرض ، وحيث ذكريات إبراهيم وإسماعيل وهاجر عليهم السلام من قبل ، وذكريات محمد ﷺ ودعوته من بعد.

هنالك يتجرد المسلم من ثيابه المعتادة -بما تحمله من مظاهر التفاوت والطبقية والعنصرية والإقليمية- ليلبس ثياباً أشبه بأكفان الموتى ، مستعلياً على المادية ومظاهرها ، متجهاً إلى الله بقلبه ولسانه ، شعاره ونشيده: «لبيك اللّهم لبيك .. لبيك لا شريك لك لبيك .. إن الحمد والنعمة لك والملك .. لا شريك لك».

وفوق هذه الفرائض الأساسية الحتمية ، التي هي الحد الأدنى لتكييف علاقة المسلم بالله - يفتح الإسلام باب التطوع بالخيرات ، والتقرب إلى الله بالنوافل والمستحبات ، من صلوات بعد الخمس المكتوبة ، ومن صيام بعد رمضان المفروض ، ومن صدقات بعد الزكاة الواجبة ، ومن حج وعمرة بعد حجة الفريضة . وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ، ويتسابق المتقون.

وفي الحديث القدسي الذي رواه البخاري عن الله تعالى: «ما تَقرَّب إليَّ عبدي بمثل أداء ما افترضته عليه . ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها .. ولئن استعاذني لأعيذنه ، ولئن سألني لأعطينه».

ليس المقصود بهذه العبادات - فرضها ونفلها - أن تصل المسلم بخالقه لحظات أدائها فقط ثم ينفرط عقده بعد ذلك ، ويخلد إلى الأرض ، ويتبع هواه.

كلا ، فإن مهمة هذه العبادات أن تغرس في ضمير مؤديها روح التقوى لله جلّ شأنه . أن تمنحه شحنة روحية تُذكّره بالله كلما نسي ، وتُقَوِّي عزمه كلما ضعف ، وتُنير طريقه كلما انطفأت من حوله المصابيح.

لا يرضى الإسلام أن يكون المسلم «ربانياً» في المسجد يركع ويسجد ، ويتضرع ويبتهل ، فإذا خرج من المسجد انقلب من رباني إلى «حيواني» أو «شيطاني».

ولا يرضى من المسلم أن يكون «ربانياً» في «رمضان» ، فإذا طُويت أعلام رمضان طُويت معه العبادة والطاعة لله ، كأنما كان يعبد رمضان لا رب رمضان ، ولهذا كان السلف الصالح من المسلمين يقولون: كن ربانياً ولا تكن رمضانياً.

ولا يرضى من المسلم أن يكون «ربانياً» طالما كان بجوار البيت الحرام ، والمسجد الحرام ، والمسجد النبوي ، والمشاعر المقدسة ، فإذا أتم نسكه ، وقضى حجه وعُمرته وزيارته وشرع في رحلة العودة ، نسي «الجو الرباني» و«المعنى الرباني» وغرق في لجة الحياة المادية كما يغرق الغافلون.

أجل ، لا يرضى الإسلام ذلك للمسلم ، وإنما يريد له صلة دائمة بمولاه ، في المسجد والطريق والبيت والعمل . . في رمضان وشوال وسائر الشهور . . في جو المناسك الطهور في مكة وعرفات والمدينة وبعد العودة إلى الأوطان . . في كل مكان ، وكل زمان ، وكل حال.

ولهذا يُوصي النبي ﷺ فيقول: «اتق الله حيثما كنت»[1] .

ويقول القرآن: ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ، فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾[2] .

ويقول الرسول: «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل»[3] .

• طريق الآداب:

وهناك طريق آخر لغرس الربانية في ضمير المسلم وفي حياته . ذلك هو طريق الآداب اليومية التي تتخلل حياة المسلم : من الأكل والشرب ، واللبس والتزين ، والنوم واليقظة ، والركوب والسفر ، والجلوس والمشي . . إلى غير ذلك من الأحوال الفردية والاجتماعية.

---

(١) رواه الترمذي .　　(٢) البقرة : ١١٥　　(٣) رواه البخاري.

فالإسلام ينتهز فرصة هذه الأمور التي لا تخلو منها حياة الإنسان ، ليربط المسلم عن طريقها بالله تعالى.

فإذا جلس على مائدة طعامه وأراد أن يبدأ الأكل ، ذكر الله الذي هيأ له الأسباب حتى وصل إليه هذا الرزق الطيب ، فكانت بدايته: «بسم الله».

وإذا أحس بالشبع ، وفرغ من طعامه ، كان ختامه: «الحمد لله» ، وإذا شرب الماء قال: الحمد لله الذي جعله عذباً فُراتاً برحمته ، ولم يجعله مِلحاً أجاجاً بذنوبنا!.

وإذا لبس ثوباً جديداً قال: الحمد لله الذي كساني هذا من غير حَول مني ولا قوة . اللّهم إني أسألك من خيره وخير ما هو له ، وأعوذ بك من شره وشر ما هو له.

وكذلك يقول هذا الدعاء عند كل نعمة يستفيدها.

وإذا ركب دابة أو سيارة أو نحوها قال: سبحان الله الذي سَخَّرَ لنا هذا ، وما كنا له مقرنين ، وإنّا إلى ربنا لمنقلبون.

وإذا شرع في سفر قال: اللّهم أنت الصاحب في السفر ، والخليفة في الأهل ، اللّهم اصحبنا في سفرنا واخلفنا في أهلنا.

وإذا عاد من سفره قال: آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون.

وإذا وضع جنبه ليخلد إلى النوم قال: باسمك ربي وضعت جنبي ، وبك أرفعه.

وإذا استيقظ لينطلق في موكب الحياة قال: الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النُّشور.

حتى لحظة الاستمتاع بالشهوة الجنسية -وهي شهوة حيوانية عاتية- لا ينسى المسلم العنصر الرباني ، الذي يخفف من سعار الشهوة ، وينقل صاحبها إلى أفق أرفع ، حين يقول إذا أتى زوجته: باسم الله ، اللّهم جنبنا الشيطان ، وجنب الشيطان ما رزقتنا.

وهكذا كلما دارت ساقية الحياة بالمسلم ، لم يغفل عن ربه ، ولم ينس صلته به ، بل يظل شاعراً بقُربه منه ، وأنسه به ، ومَعِيَّته له ، فالمعاني «الربانية» تدور معه حيثما دار ، وتسير معه أينما سار.

• طريق التربية والتكوين.

وثمت طريق ثالثة لغرس الربانية وتثبيتها ، ولعلها أعظم الوسائل خطراً ، وأبعدها أثراً ، وهي التربية.

فلا بد أن تقوم التربية في البيت أولاً ، وفي المدرسة ثانياً - على غرس هذه الربانية في عقول الناشئة وضمائرهم ، باستخدام أحسن الوسائل ، وأفضل الأساليب.

وإذا كان الأب مسئولاً عن تغذية طفله مادياً ، فلا يهمله حتى يتعرض جسمه للهزال أو للمرض أو للموت ، فهو مسئول عن تغذيته روحياً ، فلا يجوز له أن يهمله حتى يتعرض لما هو أشد خطراً من هزال البدن أو مرضه ، أو حتى موته . وذلك حين يتعرض لموت «القلب» أو «الروح» وفي ذلك هلاكه للأبد !

ومن هنا كانت المسئولية خطيرة: «كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته»[1] ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً ﴾[2] .

ومن هنا أمر الآباء أن يُدَرِّبوا أبناءهم على طاعة الله وأداء فرائضه منذ بلوغهم سناً يقبلون فيها التعليم ، وهي السابعة ، والتشديد عليهم إذا بلغوا العاشرة كما جاء في الحديث: «مُرُوا أولادكم بالصلاة لسبع ، واضربوهم عليها لعشر» والأمر بالضرب هنا ليس مقصوداً به التعذيب أو التنكيل ، ولكن لإشعار الصبي والصبية بمدى جدية الأب في طلبه للعبادة ، وغضبه من عصيانه في ذلك ، كما يغضب من أي أمر يطلبه من ولده فيرفضه ، ولا يلقى له بالاً.

والأم شريك الأب في المسئولية ، فهي راعية في بيتها ، ومسئولة عن رعيتها ، كما أكد ذلك النبي ﷺ ، ولعل مخالطتها للصغار - وبخاصة البنات - وتأثيرها فيهم يكون أقوى من الأب في كثير من الأحيان.

والمدرسة مسئولة كذلك عن تربية أبنائها وبناتها على معاني الربانية.

---

(١) متفق عليه .

(٢) التحريم : ٦

ولا يكفي المدرسة أبداً أن تُزوِّد التلميذ بالخبرات والمهارات المادية والفنية ، أو بالحقائق والمعلومات عن البيئة والحياة من حوله . ثم تدعه ضالاً جاهلاً بقضايا الوجود الكبرى ، التي تُحيره ، وتُلقي عليه أسئلة لا يجد لها جواباً: من أين جاء؟ ومن جاء به؟ وإلى أين يذهب بعد رحلة الحياة؟ وهل له من رسالة بين مجيئه وذهابه - أو بين حياته وموته؟ وما هي؟ ومن يملك تحديدها؟ وما جزاؤها إن هو أدَّاها على وجهها ، أو فَرَّطَ في أدائها؟

إن الإيمان بالله هو الذي يُجيب عن هذه الأسئلة بما يقنع العقول ، ويُريح الضمائر ، ويشرح الصدور ، أعنى إيمان الإسلام خاصة ، لأنه هو الذي خلا من أغاليط البشر ، وأوهام البشر ، وشطحات البشر ، وتناقضات البشر.

والمدرسة التي لا تغرس الإيمان في النفس ، لا تُخَرِّج إلا أجيالاً حائرة متناقضة ، تركب سفينة الحياة ، وتخوض عباب محيطها المضطرب ، بلا ربان ولا مرشد ، ولا خريطة ولا «بوصلة» ولا منار ، لا تهتدي إلى شاطئ ولا أمل في أن تهتدي.

إن التربية والتعليم من مهمة النبوة ، وقد كان مما امتن الله به على العرب أن بعث فيهم رسولاً من أنفسهم: ﴿ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾[1] .

وتحدَّث النبي ﷺ عن نفسه فقال: «إن الله بعثني مُعَلِّماً مُيَسِّراً»[2] .

وأشاد بفضل المعلمين فقال: «إن الله وملائكته وأهل السموات وأهل الأرض ، حتى النملة في جحرها ، وحتى الحوت في البحر ، ليُصَلُّون على معلِّمي الناسَ الخير»[3] .

وأعظم خير يُعَلَّمُ للناس ، أن يعرفوا ربهم ، فيعرفوا بذلك مبدأهم ومصيرهم وسر وجودهم.

أي: يعرفوا أنفسهم على حقيقتها ، فمن عرف ربه فقد عرف نفسه . كما أن من عرف نفسه -كما هي- فقد عرف ربه.

---

(١) آل عمران : ١٦٤ (٢) رواه مسلم .
(٣) رواه الترمذي .

• طريق الإعلام والتوجيه والتثقيف الشعبي العام:

والتثقيف والتوجيه والإعلام -بكل مؤسساته وأجهزته ووسائله- يجب أن ترعى هذه الربانية وتؤكدها:

المساجد: بخطبها ودروسها ومواعظها وصلواتها ، وما لها من إشعاع روحي وفكري وأخلاقي.

الإذاعة المسموعة والمرئية: ببرامجها الثقافية والترفيهية والإخبارية ، وبكل ما تملكان من تأثير على الأفكار والعواطف والعزائم.

الصحافة: اليومية والأسبوعية والشهرية والفصلية والسنوية ، بصورها وكلماتها ، بأخبارها وتعليقاتها.

الكتب ، بكل أنواعها وألوانها وموضوعاتها: في العلوم والآداب والفنون ، الشعر والنثر ، والقصة والمسرحية ، الكتب الأكاديمية والكتب الشعبية ، دوائر المعارف والموسوعات . . والوسائل والكتيبات.

المسرح والسينما: بما لها من تأثير عن طريق الحدث والصورة ، والكلمة والحوار.

كل أدوات التأثير والتوجيه يجب أن تتعاون جميعاً في تحقيق «الربانية» وتأكيدها وتثبيتها في النفس والحياة ، هدفاً وغاية لسعي الإنسان ، وحركة الإنسان.

ولا يجوز في نظر الإسلام أن يُترك للمساجد وحدها مهمة تأكيد «الربانية» وتثبيت مبانيها ، وتوضيح معانيها ، في حين تعمل المؤسسات التوجيهية والإعلامية والتثقيفية الأخرى على إشاعة معان أخرى تناقض الربانية ، أو تشكك فيها ، أو تنتقصها من أطرافها.

وكيف يُؤدي المسجد رسالته إذا كانت الأجهزة الأخرى -وهي تصابح الناس وتماسيهم بإمكاناتها الرهيبة- تخفض ما يعليه ، وتهدم ما يبنيه؟

وهل يبلغ البنيان يوماً تمامه إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم؟!

على أن كل مؤسسة في مجتمع الإسلام لا تستمد حق بقائها فيه إلا بمقدار ما تُسهم به في الحفاظ على ربانيته ، التي هي أساس وجوده ، سواء أكان هذا الإسهام مباشرة أم غير مباشرة ، من قريب أم من بعيد.

بل يأمر الإسلام بهدم كل مؤسسة لا تقوم على تقوى من الله ورضوان ، ولو اتخذت صورة المسجد الذي تؤدي فيه الصلاة ظاهراً ، كما أمر الله رسوله ﷺ بهدم مسجد الضرار الذي اتخذه المنافقون ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين ، وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل.

• طريق التشريع:

ويأتي دور التشريع ، ليقوم بحياطة «الربانية» وتقويتها وحمايتها من كل أذى أو عدوان عليها ، أو انتقاص منها.

ولهذا يرفض المجتمع المسلم الإلحاد والإباحية ، ويُعاقب على الردّة والفسوق أعني على الجهر بهما.

فأما من استخفى بكفره أو بفسقه ، فحسابه على الله ، لأن المستخفي لا يضر إلا نفسه.

أما المجاهر المعالن فيضر المجتمع كله ، عن طريق العدوى ، أو تطاير الشرر ، ولهذا أجمع فقهاء الإسلام على عقوبة تارك الصلاة والمجاهر بالإفطار في رمضان وإن اختلفوا في تحديد العقوبة ، حتى وصل بها بعضهم إلى حد القتل لتارك الصلاة خاصة ، إذا أصر على تركها عمداً بلا عذر ، أما من تركها استخفافاً بحرمتها ، أو إنكاراً لفرضيتها فهو مارق يُعاقب عقوبة المرتدين بالإجماع.

وليس في هذا (أي عقوبة المرتد والإباحي وهدم مؤسسات الكفر والنفاق) مصادرة للحرية ، فإن حرية الفرد مقيدة بألا تمس نظام المجتمع وأسسه العقائدية والاجتماعية . كما أن حرية المرتد في المجاهرة بردته تصطدم بحرية المؤمنين في الحفاظ على إيمانهم . وهم جمهور المجتمع وسواده الأعظم ، فكانت رعاية حريتهم أولى.

* *

٢- ربانية المصدر والمنهج

ذكرنا ما يتعلق بالمعنى الأول للربانية ، وهو ربانية الغاية والوجهة ، وبقي المعنى الآخر ، وهو ربانية المصدر والمنهج ، ونعني به أن المنهج الذي رسمه الإسلام للوصول إلى غاياته وأهدافه ، منهج رباني خالص ، لأن مصدره وحي الله تعالى إلى خاتم رسله محمد ﷺ

لم يأت هذا المنهج نتيجة لإرادة فرد ، أو إرادة أسرة ، أو إرادة طبقة ، أو إرادة حزب ، أو إرادة شعب ، وإنما جاء نتيجة لإرادة الله ، الذي أراد به الهدى والنور ، والبيان والبشرى ، والشفاء والرحمة لعباده . كما قال تعالى يخاطبهم:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَد جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِن رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً ﴾[1] .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَد جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدَىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[2] .

وقال يخاطب رسوله: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾[3] .

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدَىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾[4] .

﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾[5] .

* * *

• موضع الرسول في هذا المنهج الإلهي:

الله تعالى هو صاحب هذا المنهج ، ولهذا يضاف إليه فيقال: منهج الله ، أو «صراط الله» على حد تعبير القرآن العزيز . وإضافته إلى الله تعني أن الله -جل شأنه- هو واضعه ومحدده ، كما أنه غايته ومنتهاه.

---

(١) النساء : ١٧٤ — (٢) يونس : ٥٧ — (٣) الأنبياء : ١٠٧
(٤) النحل : ٨٩ — (٥) إبراهيم : ١

أما الرسول ﷺ فهو الداعي إلى هذا المنهج أو هذا الصراط ، المبين للناس ما اشتبه عليهم من أمره . يقول تعالى مخاطباً رسوله: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ، أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ ﴾[١] .

ويقول تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ ، قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي ، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ ، إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ ، فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾!![٢] .

ويقول: ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾[٣] .

ومن تدبَّر القرآن وجد الرسول ﷺ فيه مجرد عبد مأمور تخاطبه سلطة أعلى منه ، محيطة به ، قادرة عليه ، تملك عتابه ولومه إذا اجتهد فأخطأ في بعض الأمور ، كما في قصة ابن أم مكتوم ، وأسرى بدر ، والمنافقين المتخلفين في غزوة تبوك ، وزينب بنت جحش ، وغيرها . فالحقيقة أن القرآن هو كلام الله وحده وتنزيل رب العالمين.

فليس لمحمد ﷺ من هذا القرآن إلا التلقي والحفظ: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى ﴾[٤] ثم التبليغ والدعوة: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾[٥] ثم التفسير والبيان: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[٦] .

والسنّة التي بينت القرآن ، هي نفسها وحي إلهي ، ولكنه وحي غير متلو ولا مُعجز كالقرآن الكريم.

---

(١) الشورى : ٥٢ . ٥٣ (٢) يونس : ١٥ . ١٦ (٣) النجم : ١ - ٤
(٤) الأعلى : ٦ (٥) المائدة : ٦٧ (٦) النحل : ٤٤

وما جاء في هذه السنّة عن طريق الاجتهاد ، فإن اللّه تعالى لا يقره على الخطأ فيه ، بل يَنزِّل الوحي مصحّحاً ومُصوِّباً ، أو مُثَبِّتاً ومؤكِّداً.

* * *

• ميزة الإسلام بين المناهج القائمة في العالم:

إن الإسلام هو المنهج أو المذهب أو النظام الوحيد في العالم ، الذي مصدره كلمات اللّه وحدها ، غير مُحَرَّفة ولا مُبَدَّلة ولا مخلوطة بأوهام البشر ، وأغلاط البشر ، وانحرافات البشر.

والمناهج أو الأنظمة التي نراها في العالم إلى اليوم ثلاثة - فيما عدا الإسلام طبعاً:

١- منهج أو مذهب أو نظام مدني بشري محض ، مصدره التفكير العقلي أو الفلسفي لبشر فرد ، أو مجموعة من الأفراد ، كالشيوعية والرأسمالية والوجودية ، وغيرها.

٢- منهج أو نظام ديني بشري كذلك . مثل الديانة البوذية القائمة في الصين واليابان والهند والتي لا يُعرف لها أصل إلهي ، أو كتاب سماوي ، فمصدرها إذن فكر بشري .

٣- منهج أو مذهب ديني محرف ، فهو - وإن كان إلهياً في أصله - عملت فيه يد التحريف والتبديل فأدخلت فيه ما ليس منه ، وحذفت منه ما هو فيه ، واختلط فيه كلام اللّه بكلام البشر ، فلم يبق ثمت ثقة بربانية مصدره ، وذلك كاليهودية والنصرانية ، بعد ثبوت التحريف في التوراة والإنجيل نفسيهما ، فضلاً عما أضيف إليهما من شروح وتأويلات ومعلومات بشرية ، بدلت المراد من كلام اللّه.

أما الإسلام فهو المنهج الفذ الذي سلم مصدره من تدخل البشر ، وتحريف البشر ، ذلك أن اللّه تعالى تولى حفظ كتابه ودستوره الأساسي بنفسه ، وهو القرآن المجيد ، وأعلن ذلك لنبيه ولأمته فقال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[1] .

---

(١) الحجر: ٩

وكان وعد ربي حقاً ، فقد صدَّقت القرون المتوالية -على رغم ما حَلَّ بالمسلمين فيها من كوارث مروعة ، ونوازل هائلة- هذه النبوءة القرآنية . وبقي القرآن ، كما أنزله الله ، وكما تلاه محمد ﷺ ، وكما نقله عنه أصحابه ، وتلقاه عنهم من تبعهم بإحسان . ولم تزل الأجيال تلو الأجيال تتوارثه وتتعبد بتلاوته وترتيله وحفظه وكتابته . ولا عجب أن ظل -كما كان- مكتوباً في المصاحف ، متلواً بالألسنة ، محفوظاً في الصدور منقولاً إلينا -بالتواتر اليقيني- نقلاً حرفياً ، بنفس طريقة كتابته ، منذ عهد الخليفة الثالث عثمان . رغم تطور طرائق الرسم والإملاء . وبنفس طريقة تلاوته منذ العهد النبوي ، حتى أصوات الغَنْ والمد والإظهار والإدغام ، والإقلاب والإخفاء.

* * *

• الإسلام منهج رباني خالص:

إن الإسلام منهج رباني ، مائة في المائة (١٠٠٪).

عقائده وعباداته ، وآدابه ، وأخلاقه ، وشرائعه ونظمه ، كلها ربانية إلهية . أعني في أسسها الكلية ومبادئها العامة ، لا في التفريعات والتفصيلات والكيفيات.

• عقيدة ربانية :

عقائد الإسلام عقائد ربانية ، مستفادة من كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، من القرآن الكريم الذي أرسى دعائمها ، ووضح معالمها ، ومن صحيح السنَّة المبينة للقرآن.

ليست هذه العقائد من وضع مجمع من المجامع ، ولا من إضافة هيئة من الهيئات ، ولا من إملاء «بابا» من البابوات.

ليس لأحد من تلاميذ محمد ﷺ ولا من أئمة الإسلام وفقهائه الكبار ، أن يُغَيِّر ويُبَدِّل في عقيدة الإسلام بالزيادة أو النقص أو التحوير ، كما فعل «سانت بولس» في العقيدة النصرانية ، حتى أن بعض الكتاب الغربيين المحدثين ليسمون المسيحية الحاضرة «مسيحية بولس» وليست مسيحية عيسى ابن مريم.

وليس لمؤتمر ولا لمجمع ولا لجماعة أياً كانت مكانتها أن تضيف شيئاً إلى

العقيدة الإسلامية ، أو تحذف منها شيئاً ، على غرار ما فعلت المجامع المسيحية ، ابتداء من «مجمع نيقية» الشهير سنة ٣٢٥م فما بعده من مجامع بعضها قرر ألوهية المسيح ، وبعضها قرر موقع الروح القدس من الشركة الثلاثية المعروفة: «الأب ، والابن ، والروح القدس» وبعضها أعطى البابا سلطة إصدار قرارات الحرمان وصكوك الغفران . . وبعضها . . وبعضها . .

أما العقيدة الإسلامية فلا تُتَلقّى إلا من الوحي الإلهي.

إن العقيدة إنما هي قضايا صادقة أو هي حقائق عن الوجود ورب الوجود . فليست العقيدة من قبيل ما نسميه في المنطق والبلاغة «إنشاء» ، إنما هي من قبيل «الخبر» لأنها خبر عن القضايا الكبرى في الوجود: عن الله وأسمائه وصفاته ، عن عوالم الغيب ، عن مستقبل الحياة الإنسانية ، عن الجزاء وأنواعه وصوره ، وغير ذلك مما وراء الطبيعة المشاهدة مما لا يدركه الحس ، ولا يهدي إلى تفصيله العقل.

ومن ثم لا يملك أن يخبر عن هذه القضايا إلا من يحيط بها علماً.

وليس ذلك إلا صاحب هذا الكون . وهو الله تعالى.

أما البشر المخلوقون ، فلا يدخل علم هذه الغيبيات في اختصاصهم ، وإذا قالوا في ذلك شيئاً ، كان قولاً بغير علم ، وبغير برهان . وفي هذا يقول القرآن منكراً على المشركين معتقداتهم في الملائكة وغيرها: ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ، أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ، سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾[١] ويقول سبحانه: ﴿ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ ﴾[٢] ويقول الله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾[٣] .

ولو أن بعض الناس حاول أن يُحدث فيها شيئاً من عند نفسه ، لكانت محاولته مردودة عليه بأمر صاحب الرسالة نفسه ﷺ الذي قال: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»[٤] أي: باطل مردود عليه . ويقول تعالى: ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾[٥] .

---

(١) الزخرف : ١٩ (٢) الكهف : ٥١ (٣) طه : ١١٠
(٤) متفق عليه (٥) الأعراف: ٣

● عبادات ربانية :

والعبادات الإسلامية -أعني الشعائر التي يُتَعبد بها لله تعالى- عبادات ربانية.

فالوحي الإلهي هو الذي رسم صورها ، وحدد أشكالها . وأركانها وشروطها . وعيَّن زمانها فيما يُشترط فيه الزمان . ومكانها فيما يُشترط فيه المكان.

ولم يقبل من احد من الناس -مهما كان مجتهداً في الدين ، ومهما علا كعبه في العلم والتقوى- أن يبتكر صوراً وهيئات من عنده للتقرب إلى الله تعالى ، فإن هذا افتئات على صاحب الحق الأوحد في ذلك ، وهو الله تعالى صاحب الخلق والأمر.

ومن فعل شيئاً من ذلك فقد شَرَّع في الدين ما لم يأذن به الله ، وعُدَّ عمله بدعة وضلالة ، ورُدَّ عليه عمله ، كما يرد الصيرفي النقاد العملة الزائفة.

فقد جاء الإسلام في مجال العبادة بأصلين كبيرين ، لا يتساهل في واحد منهما قيد شعرة.

الأول: ألا يُعبد إلا الله ، فلا عبادة لأحد سواه ، ولا لشيء سواه ، كائناً ما كان ، في الأرض أو في السماء . عاقلاً أو غير عاقل . وهذا ما تقتضيه ربانية الغاية والوجهة..

والثاني: ألا يُعبد الله إلا بما شرعه . وما شرعه إنما يُعرف بواسطة رسله المبلغين عنه ، وخاتمهم محمد ﷺ الذي نسخ شرعه كل شرع قبله ، والذي كتب الله له الخلود وتكفل بحفظه إلى أن يرث الله الأرث ومن عليها.

وما عدا ذلك فهو أهواء وبدع مرفوضة ، وإن دفع إليها حسن النية ، وشدة الرغبة في زيادة التقرب إلى الله جل شأنه ، ولكن النية الصالحة وحدها لا تعطي العمل صفة القبول ما لم تكن صورته مشروعة بالنص الثابت.

فالعمل المقبول له ركنان: أن يكون خالصاً لله ، وأن يكون على سنة رسول الله.

أما محدثات العصور ، ومبتدعات العقول ، فلا مكان لها في دين الله ، كما

جاء في الحديث: «إياكم ومحدثات الأمور . فإن كل بدعة ضلالة»[1] ويقول القرآن منكراً: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾[2].

وبهذا سد الإسلام باباً من أوسع أبواب الغلو والتحريف والتنطع ولم يعط للمبتدعات في العبادة حق البقاء ، وإن ظهرت يوماً بفعل الجهل والهوى أو استمرت زمناً بتأييد المستغلين للدين ، أو المتاجرين باسمه.

ولهذا لم يخل قطر من الأقطار ، ولا عصر من الأعصار ، من أناس يدعون إلى السنّة ، ويقاومون البدعة ، غير مبالين بما يصيبهم من الأذى في سبيل الله.

كما أن عبادات الإسلام الكبرى بقيت في جوهرها وأصولها سالمة من التحريف ، بعيدة عن يد المسخ والتبديل ، التي تعرَّضت له العبادات في أديان أخر.

● آداب ربانية :

والآداب والأخلاق الإسلامية آداب ربانية: بمعنى أن الوحي الإلهي هو الذي وضع أصولها ، وحدد أساسياتها ، التي لا بد منها لبيان معالم الشخصية الإسلامية . حتى تبدو متكاملة متماسكة متميزة في مخبرها ومظهرها عالمة بوجهتها وطريقها ، إذا التبست على غيرها المسالك ، واختلطت الدروب.

ولا غَرو أن وجدنا القرآن الكريم ذاته يعني برسم المعالم الرئيسية لأدب المسلم ، وخُلُق المسلم ، من الإحسان بالوالدين وخاصة إذا بلغا الكِبَرَ أو أحدهما ، والإحسان بذوي القربى ، ورعاية اليتيم ، وإكرام الجار ذي القربى والجار الجنب ، والصاحب بالجنب ، وابن السبيل ، والخدم ، والعناية بالفقراء والمساكين ، وتحرير الرقاب ، والصدق في القول ، والإخلاص في العمل ، وغض الأبصار ، وحفظ الفروج ، والتواصي بالحق ، والتواصي بالصبر ، والتواصي بالرحمة ، والدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وأداء الأمانات إلى أهلها ، والحكم بين الناس بالعدل ، والوفاء بالعهود ، وترك المنكرات ، واجتناب الموبقات من الشرك والسحر

---

(١) رواه أبو داوود والترمذي قال: حديث حسن صحيح.
(٢) الشورى: ٢١

والقتل والزنا والسكر والربا ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات المؤمنات ، والتولي يوم الزحف ، وغيرها من كبائر الإثم وفواحشه . إلى غير ذلك من الأخلاق الإيجابية والسلبية ، الفردية والاجتماعية.

حتى إننا نجد القرآن يُعَلِّم المسلمين أدب المشي إذا مشوا: ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ﴾[1] ، ﴿ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً ﴾[2] ، ﴿ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً ، إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً ﴾[3] .

وأدب التزاور إذا تزاوروا: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَداً فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ ، وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ، هُوَ أَزْكَى لَكُمْ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾[4] .

وأدب الجلوس إذا تجالسوا: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ، وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾[5] .

فضلاً عما زخرت به السنّة من آداب تتعلق بالأكل والشرب ، واللباس والتجمل ، والنوم واليقظة ، والدخول والخروج ، والسفر والعودة ، والتحية والاستئذان ، حتى العطاس والتثاؤب ، وقضاء الحاجة أو قضاء الشهوة.

ثم إن المصدر الأساسي للإلزام الخلقي في الإسلام ، ليس هو اللذة ولا المنفعة ، ولا العقل ولا الضمير ، ولا العرف ولا المجتمع ولا التطور ، ولا غير ذلك مما ذهبت إليه مدارس الفلسفة الخلقية ، مثالية وواقعية ، وإنما مصدر الإلزام ، ومقياس الحكم الخلقي - في الأساس - هو الوحي الإلهي.

فالخير ما أمر الله به ، والشر ما نهى الله عنه.

وبعبارة أخرى: الحسن ما حسنه الشرع ، والقبيح ما قبّحه الشرع.

وليس معنى هذا أن الشرع يأتي بتحسين ما يقبحه العقل ، أو تقبيح ما يحسنه،

---

(١) لقمان: ١٩ (٢) الفرقان: ٦٣ (٣) الإسراء: ٣٧
(٤) النور: ٢٧ ٢٨ (٥) المجادلة: ١١

فلم يُعرف ذلك في الأخلاق الإسلامية ، ولا في الشريعة الإسلامية كلها ، فهي شريعة ملائمة للفطرة السليمة ، موافقة للعقل الرشيد.

ولا غَرو أن أطلق القرآن على أصحاب الأخلاق الفاضلة وصف: ﴿ أُولِي الأَلْبَابِ ﴾ كما عقَّب على بعض أوامره ونواهيه بمثل قوله: ﴿ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[1] .

ولذلك نجد الأخلاق في الإسلام ، لا تعتمد على مجرد الأمر الصارم ، والتكليف التعبدي ، بل تعتمد على مخاطبة العقول ، واستثارة الضمائر ، فهي أخلاق مفهومة معللة بالحكم والمصالح المترتبة عليها في الدنيا والآخرة ، من مثل قوله تعالى في وصية لقمان لابنه: ﴿ يا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ واصْبِرْ عَلَى ما أَصَابَكَ ، إنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ * وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً ، إنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ واغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ ، إنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾[2] .

ومثل ذلك في سورة الإسراء: ﴿ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً ﴾[3] . ﴿ إنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً ﴾[4] . ﴿ إنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً ﴾[5] ..... الخ .

● تشريعات ربانية :

والتشريعات الإسلامية لضبط الحياة الفردية والأسرية ، والاجتماعية والدولية ، تشريعات ربانية: أعني في أسسها ومبادئها وأحكامها الأساسية ، التي أراد الله أن يُنَظِّم بها سير القافلة البشرية ، ويُقيم العلاقات بين أفرادها وجماعاتها على أمتن القواعد ، وأعدل المبادئ ، بعيداً عن قصور البشر ، وتطرفات البشر ، وأهواء البشر . وتناقضات البشر.

وكانت هذه هي المزية الأولى للتشريع الإسلامي على ما سواه من التشريعات قديمها وحديثها ، شرقيها وغربيها ، ليبراليها واشتراكيها . فهو التشريع الفذ في العالم الذي أساسه وحي الله وكلماته المعصومة من الخطأ ، المنزهة عن الظلم:

---

(١) الأنعام: ١٥١ (٢) لقمان: ١٧-١٩ (٣) الإسراء: ٢٩
(٤) الإسراء: ٣٢ (٥) الإسراء: ٣٧

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً ، لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِه ، وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيم ﴾[1] .
وبهذا تقرر في الأصول الإسلامية أن الـمُشَرِّع الوحيد هو الله.

فهو الذي يأمر وينهى ، ويحلل ويُحَرِّم ، ويُكلف ويُلزم ، بمقتضى ربوبيته وألوهيته وملكه لخلقه جميعاً ، فهو رب الناس ، ملك الناس ، إله الناس ، له الخلق والأمر ، وله المِلك والمُلك[2] ، وله الحمد في الأولى والآخرة ، وله الحكم ، وإليه يرجعون.

وليس لأحد غيره حق التشريع المطلق ، إلا ما أذن الله فيه مما ليس فيه نص مُلزم ، فهو في الحقيقة مُجتهد أو مُستنبط أو مُقنن ، وليس مُشرِّعاً أو حاكماً . حتى الرسول ﷺ نفسه ليس مُشَرِّعاً ، وإنما وجبت طاعته ، لأنه مُبَلِّغ عن الله . فأمره من أمر الله: ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ الله ﴾[3] .

فالحكم الشرعي - بما يتضمن من إيجاب أو استحباب ، أو تحريم أو كراهة ، أو إباحة - إنما هو لله تعالى . وليس لأحد غيره . ولهذا يُعَرِّف الأصوليون الحكم الشرعي بأنه: «خطاب الله المتعلق بأفعال المكلفين اقتضاء أو تخييراً» ويعنون بالاقتضاء الطلب . سواء أكان طلباً لفعل - وهو يشمل الوجوب والندب - أم طلبا لكف وترك ، وهو يشمل التحريم والكراهة . كما يَعنون بالتخيير الإباحه . وهو ما كان للمُكَلَّف خيرة في فعله وتركه .

فالمخاطِب والمكَلِّف والملْزِم ، والآمر والناهى ، ليس إلا الله عز وجل .

وقد دمغ القرآن بالشرك الذين أعطوا سلطة التشريع المطلق لبعض البشر من رجال الأديان الذين بَدَّلوا كلمات الله . وغَيَّروا شرع الله فأحلُّوا ما حرَّم الله . وَحَرَّمُوا ما أحلَّ الله ، افتراء على الله . وفي هذا يقول في شأن الكتاب: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ وَالمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً ، لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ، سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[4] .

اعتبر القرآن هؤلاء الأحبار والرهبان أرباباً أو آلهة معبودين من دون الله،

---

(١) الأنعام: ١١٥
(٢) الملك والمُلك: الأولى بكسر الميم والثانية بضمها.
(٣) النساء: ٨٠
(٤) التوبة: ٣١

وما كانت عبادتهم إلا طاعتهم في احلال ما حَرَّم الله ، وتحريم ما أحَلَّ الله . أي إعطائهم حق التشريع فيما لم يأذن به الله تعالى . كما فسَّرَ ذلك النبي ﷺ لعدي بن حاتم الطائي.

فقد كان «عدي» تنصر في الجاهلية . فلما دخل على النبي ﷺ وهو يقرأ هذه الآية من سورة التوبة: ﴿ اتَّخَذَوا أحبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أرْبَاباً من دُونِ اللهِ ﴾ قال: يا رسول الله . ما كنا نعبدهم ! (كأنه حصر مفهوم العبادة في الركوع والسجود والصلاة ونحوها) فقال النبي ﷺ : «ألم يكونوا يحلون لكم الحرام فتحِلُّوه . ويُحَرِّمُون عليكم الحلال فتحرموه؟! قال: بلى . قال: فتلك عبادتهم إياهم ».

ولهذا نجد القرآن الكريم يُعَقِّب على كثير من الأحكام والتشريعات بلفت الأنظار إلى ربانية مصدرها.لتطمئن الأنفس وتستريح الضمائر وتنشرح الصدور للاستجابه والتنفيذ ، ولا يتلكأ متلكىء أو يتوانى متوان في الطاعه لحكم الله .

من هذه التعقيبات قوله تعالى في ختام آية قسم الصدقات من سورة التوبة: ﴿ فَرِيضَةً مِنَ اللهِ ، واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[1] ونحوها في ختام آية قسمة المواريث الأولى في سورة النساء:﴿ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أيُّهُمْ أقْرَبُ لَكُم نَفْعاً ، فَرِيضَةً مِنَ اللهِ ، إنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ﴾[2] .

وفي ختام آية المواريث الثانية: ﴿ وَصِيَّةً مِنَ اللهِ ، وَاللهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ * تِلْكَ حُدُودُ اللهِ . . ﴾[3] .

وفي آخر آية في سورة النساء وهى متعلقة بالميراث أيضاً يختمها بقوله: ﴿ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُم أنْ تَضِلُّوا ، وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[4] .

وفي سورة الطلاق يُعقِّب على أحكام الآية الأولى بقوله: ﴿ وتِلْكَ حُدُودُ اللهِ ومَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدَ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾[5] . وبعد ثلاث آيات يذكر فيها بعض الأحكام ثم يقول: ﴿ ذلكَ أمْرُ اللهِ أنْزَلَهُ إلَيْكُم ﴾[6] .

وبعد أحكام النساء والمؤمنات المهاجرات في سورة الممتحنة يُعَقِّب فيقول: ﴿ ذَلِكُمْ حُكْمُ اللهِ ، يَحْكُمُ بينَكُم ، وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيم ﴾[7] .

---

(١) التوبة: ٦٠ (٢) النساء: ١١ (٣) النساء: ١٢ ــ ١٣ (٤) النساء: ١٧٦
(٥) الطلاق: ١ (٦) الطلاق: ٥ (٧) الممتحنة: ١٠

وهذه التعقيبات وأمثالها ترشد وتُذكِّر ، وتُنبه وتُؤكد ، على الأصل الذى تُستمد منه هذه التشريعات ، فهى ربانية سماوية ، تصدر ممن لا راد لأمره ولا مُعَقِّب لحكمه.

* * *

• من ثمرات ربانية المصدر:

واذا كان للربانية بالمعنى الأول - ربانية الغاية - تلك الثمرات والمزايا التي ذكرناها من قبل ، فإن للربانية بالمعنى الثانى - ربانية المصدر والمنهج - مزايا وثمرات ، لعلها أعظم خطراً ، وأبعد أثراً.

وكل هذه المزايا والثمرات نتيجه لسبب واحد ، هو كمال الله تعالى ، صاحب هذا المنهج ، ومصدره ، أما المناهج والمذاهب الأخرى ، فيلازمها نقص البشر ، وعجز البشر ، وقصور البشر.

١- العصمة من التناقض والتطرف :

من هذه المزايا أو الآثار ، العصمة من التناقض والاختلاف الذي تعانيه المناهج والأنظمة البشرية والمحرفة.

فالبشر -بطبيعتهم- يتناقضون ويختلفون من عصر إلى عصر ، بل في العصر الواحد من زمن الى آخر ، ومن قطر إلى قطر ، بل في القطر الواحد من إقليم إلى آخر ، وفي الإقليم الواحد من بيئة إلى أخرى ، وفى الأمة الواحدة من شعب إلى آخر ، وفي الشعب الواحد من فئة إلى أخرى ، وفي الفئة الواحدة من فرد إلى أخر ، بل في الفرد الواحد من حالة إلى أخرى ، ومن وقت إلى آخر.

فكثيراً ما رأينا تفكير الفرد في مرحلة الشباب يناقض تفكيره في مرحلة الكهولة ، أو الشيخوخة ، وكثيراً ما وجدنا آراءه ساعة الشدة والفقر ، تخالف آراءه ساعة الرخاء والغنى.

فإذا كانت هذه هي طبيعة العقل البشرى ، وضرورة تأثره بالزمان والمكان والأوضاع والأحوال ، فكيف نتصور براءته من التناقض والاختلاف ، فيما يضعه من مناهج للحياة ، سواء أكانت مناهج للتصور والاعتقاد ، أم للعمل والسلوك؟! إن الاختلاف والتناقض لازمة من لوازمه لا ريب . وصدق الله العظيم

إذ يشير إلى ذلك فيقول: ﴿ أفَلا يَتَدَبَّرُونَ القُرآنَ ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لوجَدُوا فيهِ اخْتِلافاً كثيراً ﴾[1] .

ومن مظاهر هذا التناقض ما نراه ونلمسه في كل الأنظمة البشرية والدينية ، الوضعية والمحرفة ، من إفراط أو تفريط ، كما هو واضح من مواقفها من الروحية والمادية ، أو من الفردية والجماعية ، أو من الواقعية والمثالية ، أو من العقل والقلب ، أو من الثبات والتطور ، وغيرها من المتقابلات ، التى وقف كل مذهب أو نظام عند طرف منها مغفلاً الطرف الآخر ، أو جائراً عليه.

والسر في هذا -بعد القصور البشري العام- أن تفكير الإنسان فى وضع فلسفة أو منهاج ، أو مذهب ، غالبا ما يكون نتيجة - مباشرة أو غير مباشرة - لرد فعل ، وانعكاسا لأوضاع آنية وأحوال بيئية ، تؤثر فى تصوره للأشياء ، وحكمه على الأمور ، شعر أم لم يشعر . شاء أم لم يشأ.

ولا يستطيع منصف أن ينزه أكابر الفلاسفة - وإن توافر فيهم الإخلاص فى طلب الحقيقة - من التأثر بأزمانهم وبيئاتهم . فضلاً عن التأثر بوراثاتهم وأمزجتهم الشخصية.

٢- البراءة من التحيز والهوى:

ومن ثمرات هذه الربانية فى الإسلام: اشتماله على العدل المطلق . وبراءته من التحيز والجور واتباع الهوى . مما لا يسلم منه بشر . كائناً من كان.

أجل ، لا يخلو بشر غير معصوم - مهما يعل كعبه فى العلم والتُّقى - من التأثر بالأهواء والميول والنزعات الشخصية والأسرية والإقليمية والحزبية والقومية . وإن كان فى ظاهر أمره يرغب فى الإنصاف . ويحرص على الحياد.

فإذا كان لهذا البشر هوى معين ، أو ميول خاصة ، توجهه وتلون تفكيره . وتميل بحكمه الى حيث يهوى ويحب ، فهذه هى الطامة . فقد اجتمع فيها الهوى المتبع الى القصور البشرى الذاتى . فزاد الطين بلة ﴿ وَمَن أَضَلُّ مِمَّن اتبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ ﴾[2] .

وقد قال الله لنبيه داود : ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ

---

(١) النساء: ٨٢ (٢) القصص: ٥٠ .

بَيْنَ النَّاسِ بِالحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾[1] وسبيل الله هو سبيل الحق والعدل . المنزه عن التحيز والجور والانحراف.

ومقتضى ما ذكرناه: أنه لا يسلم منهج أونظام وضعه البشر أو تدخلوا فيه ، من التأثر بالأهواء المضلة عن سبيل الله ، المتحيزة إلى جانب دون جانب ، أو فريق دون فريق.

أما «نظام الله» أو «منهج الله» فقد وضعه رب الناس للناس . وضعه من لا يتأثر بالزمان والمكان . لأنه خالق الزمان والمكان . ومن لا تحكمه الأهواء والنزعات لأنه المنزه عن الأهواء والنزعات . ومن لا يتحيز لجنس ولا لون ولا فريق . لأنه رب الجميع . وكلهم عباده .فلا يتصور تحيزه لفئة دون الأخرى . ولا لجيل دون غيره . ولا لشعب على حساب غيره من الشعوب.

ومن ثم اعتبر القرآن ما عدا شريعه الله وحكمه «أهواء» يجب الحذر منها ومن أصحابها . يقول تعالى لرسوله: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعِ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾[2] . ﴿ وأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعِ أَهْوَاءَهُم وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾[3] .

٣- الاحترام وسهولة الانقياد:

ومن ثمرات هذه الربانية كذلك أنها تُضفى على النظام أو المنهج الربانى قدسية واحتراماً لا يظفر بهما أى نظام أو منهج من صنع البشر.

ومنشأ هذا الاحترام والتقديس اعتقاد المؤمن بكمال الله تعالى ، وتنزهه عن كل نقص في خلقه وأمره . أنه تعالى أحسن كل شيء خلقه ، وأتقن كل شيء صنعه . كما قال في كتابه: ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾[4] .

وكذلك أحكم كل شيء شرعه ، وكل كتاب أنزله . كما قال تعالى عن القرآن الكريم: ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾[5] .

فهو الحكيم فيما خلق وقدر . والحكيم فيما أمر ونهى: ﴿ مَا تَرَى فِي خَلْقِ

---

(١) سورة ص: ٢٦ (٢) الجاثية: ١٨ (٣) المائدة: ٤٩
(٤) النمل: ٨٨ (٥) هود: ١

الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوتٍ ﴾[1] . ولا تجد فى شرع الرحمن من تهافت . فتبارك الله أحسن الخالقين . وأحكم الحاكمين.

ويتبع هذا الاحترام والتقديس: الرضا بكل تعاليم هذا النظام وأحكامه . وتقبله بقبول حسن . مع انشراح الصدر . واقناع العقل . وطمأنينة القلب . فهذا من موجبات الإيمان بالله ورسوله: ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُم ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِم حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾[2] .

ويلزم من هذا الاحترام والتقديس وحسن القبول: المسارعة إلى التنفيذ . والسمع والطاعة فى المنشط والمكره . دون تلكؤ أو تكاسل . أو تحايل على الهرب من تكاليف النظام والتزاماته . والتقيد بأوامره ونواهيه.

ونكتفى هنا بضرب مثلين يبينان مواقف المسلمين والمسلمات فى العهد النبوى ، من شرع الله تعالى وأمره ونهيه:

أولهما: ما وقع من المؤمنين بالمدينة عقب تحريم الخمر .

وقد كان للعرب ولع بشربها وأقداحها ومجالسها . وقد عرف الله ذلك منهم فأخذهم بسنة التدرج فى تحريمها . حتى نزلت الآية الفاصلة تحرمها تحريماً باتاً . وتعلن أنها: ﴿ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴾[3] . وبهذا حرم النبى ﷺ شربها . وبيعها . واهداءها لغير المسلمين . فما كان من المسلمين حين ذاك إلا أن جاءوا بما عندهم من مخزون الخمر وأوعيتها . فأراقوها فى طرق المدينة إعلاناً عن براءتهم منها.

ومن عجيب أمر الانقياد لشرع الله أن فريقا منهم حين بلغته هذه الآية كان منهم من فى يده كأس:قد شرب بعضها وبقى بعضها فى يده ، فرمى بها من فيه وقال - إجابة لقول الله: ﴿ فَهَلْ أَنْتُم مُنْتَهُونَ ﴾[4] : قد انتهينا يارب!

ولو وازنا هذا النصر المبين فى محاربة الخمر والقضاء عليها فى البيئة الإسلامية ، بالإخفاق الذريع الذى مُنيت به الولايات المتحدة الأمريكية[5] حين أرادت يومًا أن تحارب الخمر بالقوانين والأساطيل - لعرفنا أن البشر لا يصلحهم

---

(١) الملك: ٣ (٢) النساء: ٦٥ (٣) المائدة: ٩٠ (٤) المائدة: ٩١

(٥) اقرأ هذه الموازنة بتفصيل في كتابنا «الإيمان والحياة» في موضوع «الإيمان والأخلاق».

إلا تشريع السماء: الذى يعتمد على الضمير والإيمان قبل الاعتماد على القوة والسلطان.

وثانيهما: موقف النساء المسلمات الأول مما حرّم الله عليهن من تبرج الجاهلية وما أوجب عليهن من الاحتشام والتستر . فقد كانت المرأة فى الجاهلية تمر كاشفة صدرها . لا يواريه شيء . وكثيراً ما أظهرت عنقها وزوائب شعرها . وأقراط آذانها فحرّم الله على المؤمنات تبرج الجاهلية الأولى ، وأمرهن أن يتميزن عن نساء الجاهلية ، ويخالفن شعارهن ويلزمن الستر والأدب فى هيئاتهن وأحوالهن ، بأن يضربن بخمرهن على جيوبهن ، أى يشددن أغطية رؤوسهن بحيث تغطى فتحة الثوب من الصدر ، فتوارى النحر والعنق والأذن.

وهنا تروى لنا السيده عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها كيف استقبل نساء المهاجرين والانصار فى المجتمع الإسلامي الأول ، هذا التشريع الإلهى ، الذى يتعلق بتغيير شيء هام فى حياة النساء ، وهو الهيئة والزينة والثياب.

قالت عائشة: «يرحم الله نساء المهاجرين الأول .. لما أنزل الله: ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ﴾[1] شققن مروطهن - أكسية من صوف أو خز - فاختمرن بها »[2].

وجلس إليها بعض النساء يوماً ، فذكرن نساء قريش وفضلهن ، فقالت: «إن لنساء قريش لفضلاً ، وإني والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار ، ولا أشد تصديقاً لكتاب الله ، ولا إيماناً بالتنزيل ، لقد أنزلت سورة النور: ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِن ﴾ فانقلب رجالهن إليهن يتلون عليهن ما أنزل الله فيها ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته وعلى كل ذي قرابته ، فما منهن امرأة إلا قامت إلى مرطها المرحل -المزخرف الذي فيه تصاوير- فاعتجرت به - شدته على رأسها - تصديقاً وإيماناً بما أنزل الله من كتابه فأصبحن وراء رسول الله معتجرات كأن على رؤوسهن الغربان»[3] .

«هذا هو موقف النساء المؤمنات مما شرع الله لهن ، موقف المسارعة إلى تنفيذ

---

(١) النور : ٣١ .　　(٢) رواه البخاري.

(٣) ذكره ابن كثير في آية النور عن ابن أبي حاتم.

ما أمر ، واجتناب ما نهى ، بلا تردد ، ولا توقف ولا انتظار ، أجل لم ينتظرن يوماً أو يومين أو أكثر حتى يشترين أو يخطن أكسية جديدة تلائم غطاء الرؤوس . وتتسع لتضرب على الجيوب ، بل أي كساء وجد ، وأي لون تيسر ، فهو الملائم والموافق ، فإن لم يوجد شققن من ثيابهن ومروطهن ، وشددنها على رؤوسهن ، غير مباليات بمظهرهن الذي يبدون به كأن على رؤوسهن الغربان ، كما وصفت أم المؤمنين»[1] .

٤- التحرر من عبودية الإنسان للإنسان :

ومن ثمرات هذه الربانية -فوق ذلك كله- تحرر الإنسان من العبودية للإنسان.

ذلك أن العبودية أنواع وألوان . وأن من أشدها خطراً ، وأبعدها أثراً لهو خضوع الإنسان لإنسان مثله ، يُحل له ما شاء متى شاء ، ويُحَرِّم عليه ما شاء كيف شاء ، ويأمره بما أراد ، فيأتمر ، وينهاه عما يريد فينتهي . وبعبارة أخرى: يضع له «نظام حياة» أو «منهج حياة» فلا يسعه إلا الإذعان والتسليم والخضوع.

والحق أن الذي يملك وضع هذا النظام أو المنهج وإلزام الناس به ، وإخضاعهم له هو الله وحده ، رب الناس ، ملك الناس ، إله الناس . فمن حقه وحده أن يأمرهم وينهاهم ، وأن يحل لهم ويُحَرِّم عليهم ، بمقتضى ربوبيته تعالى وخلقه لهم ، وإنعامه عليهم بكل أجناس النعم وأصنافها وأفرادها: ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّه ﴾[2] .

فإذا ادّعى بعض الناس لأنفسهم - أو ادُّعي لهم - هذا الحق ، فقد نازعوا الربوبية حقها ، وزاحموا الألوهية في سلطانها ، واتخذوا من عباد الله عباداً لهم ، وهم مخلوقون مثلهم . يجري عليهم من سنن الله ما جرى عليهم.

ولا غرو أن أنكر القرآن الكريم على أهل الكتاب تنازلهم عن حريتهم التي ولدوا عليها ، ورضاهم بالعبودية لأحبارهم ورهبانهم ، الذين أصبحوا يملكون سلطة

---

(١) من كتاب «الحلال والحرام في الإسلام» للمؤلف ص. ٣٤-٣٤٢ .
(٢) النحل: ٥٣

التشريع لهم ، أمراً ونهياً ، وتحليلاً وتحريماً ، دون أن يكون لأحد حق في اعتراض أو نقد أو مراجعة ، وقد دمغ القرآن أهل الكتاب لذلك بالشرك وعبادة غير الله.

وفي هذا يقول القرآن الكريم: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُم وَرُهْبَانَهُم أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ، سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾(١) .

ولما كانت دعوة الإسلام دعوة تحرير شامل للإنسان من العبودية لغير الله وجدنا القرآن الكريم يوجه نداءه إلى أهل الكتاب كافة أن يتحرروا من هذه العبودية لغير الله، وأن يفردوا الله وحده بالعبادة والخضوع . وذلك في قوله تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً ، وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾(٢) .

وبهذه الآية كان يختم النبي ﷺ رسائله إلى ملوك النصارى وأمرائهم.

* * *

(١) التوبة: ٣١ (٢) آل عمران: ٦٤

الفصل الثاني

الإنسانية

ومن خصائص الإسلام العامة بعد الربانية : الإنسـانية.

فالإسلام يمتاز بنزعته الإنسانية الواضحة الثابتة الأصيلة في معتقداته وعباداته ، وتشريعاته وتوجيهاته ، إنه دين الإنسـان.

• بين الربانية والإنسانية :

وربما خيل لكثير من الناس - لأول وهلة - أن هناك تناقضاً بين إثبات خصيصة «الربانية» وخصيصة «الإنسانية» في وقت واحد.

فالظاهر والمفهوم والمفترض في أذهانهم أن ثبوت إحدى الخصيصتين ينفي الأخرى، ويطردها ، شأن كل متضادين لا يجتمعان. فإذا وجد الله لم يبق مكان للإنسان !.

وإذا كنا قد قلنا في خصيصة «الربانية»: إنها تعني -من ناحية- ربانية الغاية والوجهة، على معنى أن حسن الصلة بالله تعالى وابتغاء مرضاته هو غاية الإنسان وهدف الإسلام .

كما تعني -من ناحية أخرى- ربانية المصدر والمنهج. على معنى أن الإسلام منهج إلهي، صاحبه وشارعه هو الله وحده ، وإنما الرسول مُبَلِّغ عنه - فمعنى هذا أن لا موضع للإنسان.

وأين يكون مكان الإنسان ما دام الله هو الغاية. ومرضاته هي الهدف والوجهة وما دام الله أيضاً هو واضع المنهج إلى تلك الغاية؟

فإذا أضفنا إلى ذلك وجوب الإيمان بقدر الله تعالى، فقد انتفى - في نظر هؤلاء - كل دور للإنسان.

إن إثبات قدر الله يلغي دور إرادة الإنسانية . وإثبات شرع الله يلغي دور

التفكير الإنساني. وماذا يبقى للإنسان إذا ألغي دوره إرادياً وفكرياً؟ وهل الإنسان إلا إرادة وفكر؟!!

هذا ما يخالج تفكير بعض الناس. الذين يفهمون قدر الله وشرعه. ودور الإنسان معهما. ذلك الفهم المغلوط. معتمدين على النظرة «الجبرية» للقدر. والنظرة «الظاهرية» للشرع. وكلتاهما خاطئة كما سنبين بعد.

* * *

• ليس الإنسان نداً لله :

على أن الخطأ الأول والأساسي في موقف هؤلاء هو: النظر إلى الله والإنسان كأنهما ندان متقابلان!! وهؤلاء ينسون ما هو الله؟ وما هو الإنسان؟

والحقيقة التي لا ريب فيها أن الله هو صاحب هذا الكون وربه ومدبره ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾[1] .

والإنسان هو مخلوق حادث من مخلوقات الله جل شأنه. ولا يتصور أن يكون المخلوق نداً للخالق، ولا الحادث مضاهياً للأزلي. ولا الفاني كفواً للأبدي الباقي: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾[2].

إن الإنسان مخلوق لله، ولكنه مخلوق ذو مكانة خاصة. وله شأن ودور في هذا الوجود. والذي منحه هذه المكانة، وجعل له هذا الشأن والدور هو خالقه ذاته. هو الله تبارك وتعالى.

فلننظر للإنسان إذن على هذا الأساس. وبهذا المنظار.

إنه مخلوق. ولكنه أكرم المخلوقات على الله تعالى. وهو الوحيد من بينها - على كثرتها - الذي اختاره الله ليكون خليفته في الأرض. وكرّمه بالعقل. وهداه السبيل. وعلّمه البيان. وعلّمه ما لم يكن يعلم. وكان فضل الله عليه عظيماً.

* * *

---

(١) الأنعام: ١٦٤

(٢) سورة الإخلاص

● لا تنافي بين الربانية والإنسانية:

إذا عرفنا ما ذكرناه من حقائق. اتضح لنا:

أن الإسلام مع ربانيته في غايته ووجهته. هو إنساني أيضاً في الغاية والوجهة ومن هنا نقول: إن للإنسان مكاناً أي مكان في غايات الإسلام العليا. وأهدافه الكبرى. مع تقرير غايته الربانية وإبرازها وتثبيتها. إذ لا تنافي بين الغاية الربانية والغاية الإنسانية. بل هما متكاملتان.

أجل. لا تنافي - في نظر الإسلام - بين الربانية والإنسانية. فتقدير إنسانية الإنسان هو من الربانية التي قام عليها الإسلام.

فالله هو الذي كرّم هذا الإنسان. ونفخ فيه من روحه. وجعله في الأرض خليفة. وسخّر له ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه. وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة.

وإذا كان مصدر الإسلام «ربانياً» فإن «الإنسان» هو الذي يفهم هذا المصدر ويستنبط منه ويجتهد على ضوئه ويحوِّله إلى واقع تطبيقي ملموس.

وإذا كانت الربانية هي غاية المجتمع المسلم كما هي غاية الفرد المسلم فإن مضمون هذه الغاية هو سعادة الإنسان، وفوزه بالنعيم المقيم في جوار رب العالمين.

وإذا كانت الربانية هي رسالة المسلم، فإن أهداف هذه الربانية هي تحقيق الخير للإنسان والسمو به ، والحيلولة بينه وبين الانحراف والسقوط.

والمعاني الربانية التي توجه المسلم، من الإيمان والتوحيد والإنابة والرجاء والخوف... الخ، هي في حقيقتها معان إنسانية، لأنها جزء من كيان الإنسان كما فطره الله، وهي سر من أسرار قوله تعالى: ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ﴾[1] .

وفكرة الإسلام : أن الإنسان لا يستطيع أن يكون ربانياً حقاً، دون أن يكون إنسانياً. كما لا يستطيع أن يكون إنسانياً حقاً، دون أن يكون ربانياً.

---

(١) الحجر: ٢٩

إن الربانية - باعتبارها غاية ووجهة - تقتضي إخلاص النية والعمل والوجهة لله وحده. وجعل رضوانه ومثوبته نهاية المقصد، وغاية السعي وراء كل حركة وكل قول أو عمل.

ولكن المقصود بهذا كله هو تحرير الإنسان، وإسعاد الإنسان، وتكريم الإنسان، وحماية الإنسان، والسمو بالإنسان.

فهذه كلها أهداف وغايات يحرص الإسلام عليها، ويسعى إليها، ويعمل بكل وسيلة على بلوغها والاجتهاد في تحقيقها.

* * *

• إيجابية الإنسان أمام القدر الإلهي :

والذي يراه الدارس للإسلام أن إثبات القدر الإلهي لا ينفي إيجابية الإنسان فوق هذه الأرض ودوره في هذا الكون.

فإن الله الذي خلق الإنسان هو الذي منحه العقل، ومنحه الإرادة، ومنحه القدرة، فهو بالعقل يفكر، وبالإرادة يُرَجِّح، وبالقدرة يُنَفِّذ. وهذه كلها منح من الله للإنسان. فهو قادر بقدرة الله ، ومريد بإرادة الله وهذا معنى: ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾[1] فالإنسان يشاء، لأن الله شاء له أن يشاء. وهو معنى: «لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلاَّ بِالله» أي أن الإنسان له حول وقوة، يجلب بهما النفع، ويدفع بهما الضرر، ولكن حوله وقوته ليسا من ذاته ولا بذاته، بل حوله وقوته بالله ، ومن الله.

وعلى هذا الأساس أمر الله الإنسان ونهاه، وبعث له الرسل، وأنزل عليه الكتب، ووضع نصب عينيه الثواب والعقاب. ولولا أن الإنسان ذو إرادة وقدرة، ما كان لتحميله أمانة التكاليف معنى. ولا كان ثوابه وعقابه مما يوافق العدل الإلهي، والحكمة الإلهية، ولا كان هناك معنى لاستخلافه في الأرض، واستعماره فيها كما قال الله تعالى: ﴿ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾[2] أي طلب إليكم عمارتها.

---

(١) الإنسان: ٣٠. (٢) هود: ٦١

إن الإنسان مخلوق لله، ولكنه مخلوق متميز بمواهبه وملكاته وقواه الروحية والعقلية والمادية، التي أهله الله بها ليحمل مسئولية الخلافة وأمانة التكاليف، وهي أمانة بلغت من العظم والثقل مبلغاً عبّر عنه القرآن بهذه الصورة الفنية البليغة حين قال: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ ﴾[1] .

إن الإنسان مخلوق مكلف مسئول، وعليه أن يكدح حتى يلقى ربه، فيجزيه بكدحه إن خيراً فخير، وإن شراً فشر .. ولهذا وجّه الله إليه الخطاب بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ ﴾[2] .

ولا ينبغي للإنسان أن يغره شيء، أو يخدعه خادع عن ربه وما له عليه من حق. وإن كان نفر من بني الإنسان للأسف غرتهم الحياة الدنيا. وغرّهم بالله الغرور، واستحقوا أن يناديهم ربهم بهذا النداء العاتب: ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾[3] .

* * *

• بين العقل الإنساني والوحي الإلهي:

وإذا كان الإسلام منهجاً إلهياً وضعه رب الناس للناس، فليس معنى هذا هو إلغاء دور الإنسان أمام هذا المنهج، وتنحيته من طريقه، والحكم عليه بالسلبية المطلقة تجاهه ، فليس له إلا التلقي والتنفيذ والتسليم، دون أن يقول لم؟ أو كيف؟ إذ لا تكافؤ بين الوحي الإلهي والعقل الإنساني، فإذا قال الوحي كلمته، فليس على العقل إلا الإذعان والتسليم.

وهذا في الواقع غير سليم.

فإن القدر الإلهي لم يلغ دور الإنسان وفاعليته في الكون، مع وجود يد الله تعالى فيه، ومع انعدام التكافؤ بين الإرادة الإلهية، والإرادة الإنسانية، أو بين قدرة الخالق، وقدرة المخلوق.

---

(١) الأحزاب: ٧٢ (٢) الانشقاق: ٦ (٣) الانفطار: ٦-٨

وكذلك لا يلغي الوحي الإلهي دور العقل الإنساني وإيجابيته في فهم الوحي، والاستنباط منه والقياس عليه، وملء ما سكت عنه من فراغات تشريعية.

إن وجود النص الإلهي المقدس، ليس عائقاً للعقل عن التحليق والإبداع فقد ترك الوحي للعقل مجالات عديدة يثبت فيها ذاته، ويبرز قدراته.

لقد ترك الوحي للعقل أموراً كثيرة في مجالات متعددة:

(أ) ترك للعقل في مجال العقيدة أن يهتدي إلى أعظم حقيقتين في هذا الوجود:

الحقيقة الأولى: وجود الله ووحدانيته -فوجود الله- كما تهدي إليه الفطرة السليمة - يقتضيه كذلك النظر الصحيح، والعقل الصريح، ولا غرو إذا أقام القرآن الأدلة من الكون ومن النفس على وجود الله سبحانه وتعالى: ﴿ إنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوات وَالأرْضِ وَاخْتِلاف اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأولِي الألْبَابِ ﴾(١) .

﴿ أمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أمْ هُمُ الخَالِقُونَ * أمْ خَلَقُوا السَّموات وَالأرْضَ، بَلْ لا يُوقِنُونَ ﴾(٢) .

ويتبع ذلك الأدلة العقلية التي ذكرها القرآن على وحدانية الله بقوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إلاَّ اللَّهَ لَفَسَدَتَا ، فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ العَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾(٣) . ﴿ أمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً، قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾(٤) .

وفي موضع آخر يقول:

﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إلٰهٍ ، إذاً لَذَهَبَ كُلُّ إلٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾(٥) .

الحقيقة الثانية: ثبوت الوحي والنبوة والرسالة. فالعقل هو الذي يثبت إمكان ذلك ووقوعه بالفعل، وأن هذا الشخص المعين رسول من عند الله. العقل

---

(١) آل عمران: ١٩٠.　(٢) الطور: ٣٥ـ٣٦　(٣) الأنبياء: ٢٢
(٤) الأنبياء: ٢٤　(٥) المؤمنون: ٩١

هو الحكم الأول والأخير في هذه القضية، ولا مدخل هنا للاستدلال بالنقل ونصوص الوحي، إذ كيف يستدل بما لم يثبت بعد؟ ولهذا قال علماء الإسلام: إن العقل أساس النقل، ذلك أن العقل - بعد اقتناعه بوجوده تعالى وكماله سبحانه - يعلم أن من تمام حكمة الحكيم ورحمة الرحيم ألا يترك عباده سدى، وألا يدعهم في بحر لجي من الجهالة والعمى والغي، وهو قادر على أن يهديهم ويخرجهم من الظلمات إلى النور عن طريق مبلغين عنه.

والعقل بعد أن يعلم ذلك - لا يسلم لكل من ادعى أنه رسول من الله، بل يطالبه بما يثبت صحة دعواه وأنه لا يمثل نفسه، وإنما يمثل إرادة الله الذي أرسله، فيطالبه بالآية المعجزة التي لا يقدر عليها إلا الله تعالى.

والعقل هو الذي يميز بين الآيات المعجزة الحقيقية التي لا تظهر إلا على أيدي رسل الله حقاً وبين مظاهر الخفة والشعوذة التي تظهر على أيدي السحرة والدجالين.

والعقل هو الذي يعرف وجه دلالة المعجزة الخارقة على صدق من أظهرها الله على يديه ، وأنها تصديق من الله له في دعواه، فهي بمثابة قوله: «صدق عبدي فيما يُبَلِّغ عني» والله تعالى لا يُصَدِّق الكاذب، لأن تصديق الكاذب كذب - والكذب محال على الله تعالى. كل هذه مقدمات عقلية محض ولولاها ما ثبت الوحي أصلاً، ولا قام الدين رأساً.

والعقل ينظر في سيرة كل شخص يدَّعي الرسالة ويتأمل في صفاته وأخلاقه وأقواله وأعماله، ومدخله ومخرجه، ليعرف منها: هل هو أهل لاصطفاء الله أم ليس كذلك فيرفضه ويعرض عنه. ومن أجل ذلك احتكم القرآن في إثبات صدق رسالة محمد ﷺ إلى العقول المفكرة وحدها، فقال في صرامة ووضوح: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ، أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا، مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ، إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾[1] .

---

(١) سبأ: ٤٦

وقال يخاطب الرسول: ﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ (أي القرآن) عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ، فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِن قَبْلِهِ، أَفَلَا تَعْقِلُون ﴾[1] .

(ب) وترك الوحي للعقل في مجال التشريع أن يجول ويصول في فهم النصوص فيفرِّع على الأصول ويقيس على الفروع ويستنبط الأحكام، ويُكَيِّف الوقائع، ويرعى القواعد في جلب المصالح، ودرء المفاسد، ورفع الحرج وتحقيق اليسر، وتقدير الضرورات بقدرها، واعتبار العرف ، ورعاية ظروف الزمان والمكان.

ولا عجب بعد أن اختلفت المشارب ، وتعددت المذاهب، وتنوعت الأقوال، وخلف لنا العقل الإسلامي في ضوء الوحي، ثروة فقهية طائلة لها مكانها الرفيع في تراث الفقه العالمي.

(جـ) وترك للعقل في ميدان الأخلاق أن يصدر حكمه وفتواه في كثير من الأعمال، التي يلتبس فيها الخير بالشر ويشتبه الحلال بالحرام، ولم يغفل شأنه، بجانب الوحي، كمصدر للإلزام الأدبي، ومقياس للحكم الخلقي.

فإن الشريعة نفسها، بعد أن بينت الحلال الصريح، والحرام الصريح تركت المنطقة التي تختلط فيها الأوصاف، ويشتبه فيها الحكم وفوَّضت لكل امرئ أن يستفتي فيها قلبه، ويتحرى فيها طمأنينة نفسه، أخذاً بالأحوط والأسلم. هكذا قضى الرسول الحكيم حيث يقول: «الحلال بيِّن، والحرام بيِّن وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه»[2] ويقول: «استفت قلبك واستفت نفسك: البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك»[3] .

(د) ثم يترك الوحي للعقل بعد ذلك أن يجول في آفاق هذا الكون العريض ما شاء، صاعداً إلى الأفلاك وهابطاً إلى الأرض، ومتأملاً في النفس: ﴿ قُلِ انْظُرُوا

---

(١) يونس: ١٦ (٢) متفق عليه.
(٣) رواه الإمام أحمد والدارمي بإسناد حسن.

مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾[1] ، ﴿ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنْفُسِكُمْ، أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾[2] .

ترك له أن يكشف من ظواهر هذا الكون ما استطاع وأن يُسَخِّر من قواه ما قدر عليه فكل ما فيه سَخَّره الله لمنفعته: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[3] ، ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ الفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي البَحْرِ بِأَمْرِهِ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ دَائِبَيْنِ، وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾[4] .

(هـ) ترك له أن يبتكر ويخترع في وسائل الحياة وأمور الدنيا ما شاء، ما دام ملتزماً حدود الحق والعدل: «أنتم أعلم بشئون دنياكم»، ﴿ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾[5] .

(و) ترك للعقل أن يستفيد من تجارب الآخرين، وينتفع بتراث السابقين، ومعارف اللاحقين: ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ ﴾[6] ، ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا، فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى القُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾[7] ، ﴿ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾[8] ، ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾[9] ، «الحكمة ضالة المؤمن، أنى وجدها فهو أحق بها»[10] .

وبهذا كله يتبين أن الوحي الإلهي لم يشل الفكر الإنساني ولم يجمده، بل كان له هادياً ومعيناً في بعض المجالات، وترك له الحرية الكاملة والاستقلال المطلق في مجالات أخرى، وإنها لكثيرة ورحيبة.

* * *

---

(١) يونس: ١٠١ (٢) الذاريات: ٢٠-٢١ (٣) الجاثية: ١٣
(٤) إبراهيم: ٣٢-٣٤ (٥) القصص: ٧٧ (٦) الحشر: ٢
(٧) الحج: ٤٦ (٨) الأحقاف: ٤
(٩) النحل: ٤٣ والأنبياء: ٧ (١٠) من حديث رواه الترمذي وابن ماجه.

• القرآن .. كتاب الإنسان:

وإذا نظرنا إلى المصدر الأول للإسلام وهو القرآن كتاب الله، وتدبرنا آياته، وتأملنا موضوعاته واهتماماته، نستطيع أن نصفه بأنه كتاب الإنسان، فالقرآن كله إما حديث إلى الإنسان، أو حديث عن الإنسان.

إن كلمة «الإنسان» تكررت في القرآن ثلاثاً وستين مرة ، فضلاً عن ذكره بألفاظ أخرى مثل «بني آدم» التي ذكرت ست مرات، وكلمة «الناس» التي تكررت مائتين وأربعين مرة في مَكيِّ القرآن ومَدَنيِّه.

ولعل من أبرز الدلائل على ذلك أن أول ما نزل من آيات القرآن على رسول الإسلام -محمد ﷺ - خمس آيات من سورة العلق ذكرت كلمة «الإنسان» في اثنتين منها. ومضمونها كلها العناية بأمر الإنسان.

هذه الآيات هي: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَم * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[1] .

• دلالة الآيات الأولى من الوحي:

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾.

إن هذه الآيات الكريمة التي تُكتب في أقل من سطرين، والتي بدأ بها الوحي الإلهي تاريخاً جديداً للبشرية، تُعَبِّر أوضح التعبير عن نظرة الإسلام إلى الإنسان وعلاقته بالله تعالى، وعلاقة الله تعالى به، إنها خطاب لمحمد ﷺ ولكل إنسان يفهم الخطاب من بعده.

الإنسان في هذه الآيات مأمور أن يقرأ. والقراءة هنا رمز لكل عمل نافع يقوم به الإنسان، وإنما خص القراءة بالذكر، لأنها نقطة الانطلاق للإنسان. ومفتاح رقيه، ولأن العمل في الإسلام يجب أن يقوم على العلم والعلم مفتاحه القراءة .

---

(١) العلق: ١-٥

وأمر الإنسان بالقراءة معناه قدرته على أن يفعل، وقدرته على أن يترك أيضاً، وهذا يعني إثبات مسئوليته ، ودور إرادته ، فالآلة لا تؤمر ولا تنهي.

ولم يؤمر الإنسان هنا بمجرد قراءة، بل بقراءة مقيدة «باسم ربه» الخالق، والقرآن هنا حريص على التعبير عن ذات الله سبحانه وتعالى في هذا المقام باسم «الرب» مضافاً إلى ضمير المخاطَب وهو الإنسان، وذلك لما يوحي به اسم الرب من معاني التربية والرعاية والترقية في مدارج الكمال، وما توحي به الإضافة والخطاب من القرب والاختصاص والتكريم.

وقد تكرر اسم الرب هكذا مرتين ، مع وصفه مرة بالخالقية، ومرة بالأكرمية ﴿ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴾ فعلاقة الإنسان ليست بمجرد رب ، ولا برب كريم فقط، بل برب أكرم، بل بالرب الأكرم على الإطلاق، لأنه يعطي بغير حساب، وبغير عوض ولا مقابل.

وذكر القرآن من دلائل أكرميته تعالى أنه ﴿ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَم ﴾ ، فالله تعالى بالنسبة إلى الإنسان «مُعَلِّم» والإنسان مُتَعَلِّم ما لم يكن يعلم، هذه ميزته: استعداد للتعلم بالقراءة والكتابة بالقلم.

هذا أول نص نزل به الوحي الإلهي على محمد ﷺ . وهو نص فريد ورائع حقاً. فقد حرص على تأكيد أمور معينة من أول لحظة منها:

١- أن الإنسان مخلوق مُكلَّف.

٢- العناية بشأن الإنسان حيث ذُكر مرتين.

٣- أول ما أمر به الإنسان القراءة.

٤- تعظيم شأن القرآن حيث أمر بها مرتين.

٥- أول أداة ذكرها الوحي: القلم.

٦- أول ما وصف الله به نفسه: الرب - الخالق - الأكرم - المعلِّم.

٧- أول ما وصف به الله الإنسان: القدرة على التعلم.

* * *

● محمد .. الرسول الإنسان :

وإذا نظرنا إلى الشخص الذي جَسَّدَ الله فيه الإسلام، وجعله مثالاً حياً لتعاليمه، وكان خُلُقه القرآن - نستطيع أن نصفه بأنه «الرسول الإنسان». وسيرته ليست سيرة إله، ولا بعض إله، ولا ملاك متجرد من اللحم والدم، بل هي سيرة النبي الإنسان.

والقرآن الكريم حريص كل الحرص في شتى المناسبات على تأكيد إنسانية الرسول محمد ﷺ ، بمثل قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُم إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾[1] .

ويرد على المشركين المتعنتين من مقترحي الآيات الكونية ما يتصور منها وما لا يتصور، مثل أن يُفَجِّر لهم من الأرض ينبوعاً، أو تكون له جنة من نخيل وَعِنَبٍ أو يُسْقِط السماء عليهم كِسَفاً، أو يأتي بالله والملائكة قَبيلاً. إلى آخر هذه السلسلة من المقترحات السخيفة العجيبة، فيطلب من الرسول أن يرد عليهم بهذه الكلمة الموجزة : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَراً رَسُولاً ﴾[2] .

ولما استبعد بعضهم أن يكون الرسول بشراً مثلهم، يمشي على الأرض وافترضوا أن يكون الرسول ملكاً ينزل من السماء، رد عليهم القرآن فقال: ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً ﴾[3] .

ولهذا رأيناه ﷺ يأكل ويشرب ويتزوج وينجب، ويفرح ويحزن، ويرضى ويسخط، ويصيب ويخطئ ، ويذكر وينسى ، ويمارس ما يمارسه كل بشر عادي إلا ما كان فيه إثم أو دناءة مما لا يليق بمنصب الرسالة، وبهذا صلح أن يكون قدوة للبشر كل البشر: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾[4] .

* * *

---

(١) الكهف: ١١٠.
(٢) الإسراء: ٩٣
(٣) الإسراء: ٩٥
(٤) الأحزاب: ٢١

• الجانب الإنساني في دعوات الرسل:

ويلفت القرآن الكريم نظرنا إلى أن الأنبياء الذين بعثهم الله دعاة إلى توحيده، وكان أول نداء لهم إلى أقوامهم: ﴿ أنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾[1] لم تهمل دعوتهم الجانب الإنساني، بل عملت على إصلاحه ومقاومة الفساد والانحراف في الحياة البشرية.

فهذا هود عليه السلام -كما ينكر على قومه الشرك بالله- ينكر عليهم العبث والانحراف والبطش والجبروت: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾[2] .

وصالح يحذر قومه من الطغاة المفسدين: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾[3] .

ولوط يقول لقومه: ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾[4]. ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾[5] .

وشعيب يقول لقومه: ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ، وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ، إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ * وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ، وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾[6] . فهنا نجد شعيباً يبدأ قومه بدعوتهم إلى التوحيد الذي هو أساس البناء في الرسالات الإلهية كلها، ويستغرق هذا منه جملة واحدة، ثم يسهب ويفيض في دعوتهم إلى العدل في معاملاتهم الاقتصادية والإعراض عما كانوا عليه من التطفيف والبخس والإفساد، وهنا يردون عليه في جهل ساخر، أو في سخرية جاهلة، إذ ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَوَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا، أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ، إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾[7] .

---

(١) المؤمنون: ٣٢ (٢) الشعراء: ١٢٨-١٣٠. (٣) الشعراء: ١٥٠-١٥٢
(٤) الأعراف: ٨٠. (٥) الشعراء: ١٦٥-١٦٦ (٦) هود: ٨٤-٨٦
(٧) هود: ٨٧

وهكذا نجد دعوات الرسل، لم تنفصل عن مشكلات البشر، ولم تغفل أحوال المجتمع الإنساني، وما تتطلبه من علاج وإصلاح، ولكن ما موقف دعوة الإسلام من الجانب الإنساني؟!

* * *

• الجانب الإنساني في رسالة الإسلام :

إن كل دارس للإسلام في كتابه وسنّة رسوله، يتبين له بجلاء: أنه وَجَّهَ عناية بالغة إلى «الجانب الإنساني» وأعطاه مساحة رحبة من رقعة تعاليمه، وتوجيهاته ، وتشريعاته.

وإذا نظرت في الفقه الإسلامي وجدت «العبادات» لا تأخذ إلا نحو الربع أو الثلث من مجموعه، والباقي يتعلق بأحوال الإنسان من أحوال شخصية ومعاملات وجنايات وعقوبات وغيرها.

على أنك إذا تأملت العبادات الكبرى نفسها، وجدت إحداها «إنسانية» في جوهرها، وهي عبادة «الزكاة»، فهي تؤخذ من الإنسان الغني، لتُرَد على الإنسان الفقير. هي للأول تزكية وتطهير، وللثاني إغناء وتحرير.

والعبادات الأخرى لا تخلو من جانب إنساني تلمحه في ثناياها.

فالصلاة عون للإنسان في معركة الحياة: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾[1] .

والصوم تربية لإرادة الإنسان على الصبر في مواجهة المصاعب، وتربية لمشاعره على الإحساس بآلام غيره، فيسعى إلى مواساته. ولهذا سمى النبي ﷺ شهر رمضان: «شهر الصبر» و«شهر المواساة»[2] .

والحج مؤتمر رباني إنساني، دعا الله فيه عباده المؤمنين: ﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ ﴾[3] فشهود المنافع هنا يمثل الجانب الإنساني في أهداف الحج.

---

(١) البقرة: ١٥٣ (٢) كما في حديث سلمان عند ابن خزيمة. (٣) الحج: ٢٨

وفوق ذلك نجد النبي ﷺ يرفع إلى درجة العبادة كل عمل يؤديه المسلم، يترتب عليه نفع مادي لإنسان، أو سرور نفسي لإنسان.

ولا يكاد مسلم يجهل الأحاديث النبوية التي تقرر أن : إماطة الأذى عن الطريق صدقة، وأن أمرك بمعروف صدقة، ونهيك عن منكر صدقة، وحملك الرجل الضعيف على دابته صدقة، وإصلاحك بين اثنين صدقة، وتبسمك في وجه أخيك صدقة، والكلمة الطيبة صدقة.. إلى آخر ما جاء به الحديث من ألوان البر الإنسانى، والخدمة الاجتماعية.

بل إن النبي ﷺ ليرتفع بهذا اللون من البر والخدمة الإنسانية اليومية، إلى منزلة الواجب الذي يؤاخذ من تركه عمداً وهو قادر عليه.

روى الشيخان عن أبي موسى أن النبى ﷺ قال: «على كل مسلم صدقة» فقال أصحابه : يا رسول الله، ليس كلنا يجد ما يتصدق به، وقالوا: يا نبي الله، فمن لم يجد؟!

أي أنهم حسبوا الصدقة محصورة في إعطاء شيء من المال للمحتاج، فبيَّن لهم سعة مفهوم الصدقة التى يأمر بها كل مسلم. حتى من لم يجد ما لا يتصدق به. فقال: «يعمل بيده، فينفع نفسه ويتصدق. قالوا: فإن لم يجد؟! قال: يعين ذا الحاجة الملهوف. قالوا: فإن لم يستطع؟، قال: يأمر بالمعروف - أو الخير - قالوا: أرأيت إن لم يفعل؟ قال: يمسك عن الشر فإنها له صدقة».

وأكثر من ذلك، أن الرسول ﷺ يجعل هذه الفريضة الإنسانية الاجتماعية اليومية على كل «سُلامى» من جسم الإنسان، أي كل مفصل من مفاصله.

ففى الحديث الصحيح الذي رواه الشيخان: «كل سُلامى من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس: يعدل بين الاثنين صدقة، ويعين الرجل فى دابته فيحمله أو يرفع عليه متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة يمشيها إلى الصلاة صدقة، ويميط الأذى عن الطريق صدقة».

وفى بعض الأحيان تجد الأحاديث النبوية تعطي قيمة لبعض الأعمال الإنسانية. ترفع بها درجتها على الاشتغال بالقربات الدينية. وذلك فى الأعمال

التي تتسع دائرة النفع بها للخلق، أو يدرأ بسببها شر كثير عن الناس، مثل إصلاح ذات البين، وعدل الوالى فى ولايته .. ونحو ذلك..

نقرأ فى الحديث الشريف: «ألا أدلكم على أفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هى الحالقة»[١] يعنى حالقة الدين، لا حالقة الشعر كما جاء فى إحدى الرويات[٢].

ونقرأ كذلك: «ليوم من إمام عادل أفضل من عبادة ستين سنة»[٣].

ونقرأ كذلك هذا الحديث العجيب :

«أحب الأعمال إلى الله سرور تدخله على مسلم: تكشف عنه كربة، أو تقضى عنه ديناً، أو تطرد عنه جوعاً، ولأن أمشي مع أخ فى حاجة أحب إليّ من أن أعتكف فى هذا المسجد - يعنى مسجد المدينة - شهراً. ومن كظم غيظه - ولو شاء أن يمضيه أمضاه - ملأ الله قلبه يوم القيامه رضاً. ومن مشى مع أخيه فى حاجة حتى يقضيها له ، ثبَّت الله قدميه يوم تزل الأقدام»[٤]

* * *

• إنسانية الإنسان :

ولقد عرف العالم فيما عرف من مذاهب وفلسفات وأفكار، يضرب بعضها بعضاً: اتجاهين فكريين يناقض أحدهما الآخر:

اتجاه يؤلّه الإنسان: يجعله إله نفسه، لا رب خَلَقَهُ، ولا إله يُدَبِّر أمره، ولا حساب ينتظره، ولا آخرة يصير إليها، فهو يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

واتجاه آخر، ينظر إلى الإنسان على أنه مجرد« حيوان »، حيوان متطور أو حيوان «منتج» أو حيوان «اجتماعى».

---

(١) رواه أبو داوود والترمذي وابن حبان في صحيحه. (٢) رواه الترمذي.

(٣) رواه الطبراني في الكبير والأوسط عن أبي عباس، وإسناد الكبير حسن، كما في الترغيب.

(٤) رواه الأصبهاني من حديث ابن عمر واللفظ له، ورواه ابن أبي الدنيا عن بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يسمه، وأشار المنذري إلى ضعفه في «الترغيب والترهيب» وذكر الألباني في «صحيح الجامع الصغير وزيادته» أنه حسن.

المهم أنه حيوان، وأساسه هو هذه «الحيوانية» ومن زاويتها يُنظر إليه، ويُتعامل معه، ويفُسَّر سلوكه، وتحُدد علاقاته.

أما الإسلام، فلا يرفع الإنسان إلى مقام الألوهية، ولا يهبط به إلى درك الحيوانية.

فليس إلهاً من وُجد بعد أن لم يكن، ومن يموت بعد عمر يقصر أو يطول .. من وُلِدَ بغير اختياره، ويموت بغير اختياره، ويعيش بين الولادة والموت تحكمه سنن كونية لا يملك لها دفعاً، فهو - رغم ما مُنح من عقل وإرادة ووسائل - عاجز مقهور أمام كثير من الأشياء والأحداث والمواقف. والعاجز المقهور كيف يكون إلهاً. وصفة الإله أنه القادر القهار؟

ومع أنه ليس إلهاً، فليس حيواناً، إن نفي الإلهية عن الإنسان لا يعني إثبات الحيوانية له، فالإنسان جنس متميز، كرّمه الله بالعقل، وبالإرادة وبالروح.

* * *

• مظاهر التكريم الإلهي للإنسان:

الإنسان -إذن- في نظر الإسلام مخلوق متميز، مخلوق مُكَرَّم، ميَّزه الله وكرَّمه وفضَّله على كثير من خلقه، ويحسن هنا أن نذكر بعض مظاهر التكريم الإلهي للإنسان.

(أ) استخلافه في الأرض:

لقد أعلى الإسلام كرامة الإنسان، فاعتبره خليفة الله في الأرض، وهي منزلة اشرأبت إليها أعناق الملائكة، وتشوفت إليها أنفسهم، فلم يُعْطَوها، ومنحها الله للإنسان: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلمَلائكة إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً، قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ، قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلائكة فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا، إِنَّكَ أَنْتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ، فَلَمَّا

أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾[1] .

لقد كرَّم الله الإنسان بالخلافة في الأرض. وهيأه لها بالعقل والعلم الذي تفوق به على الملائكة.

(ب) خلقه في أحسن تقويم :

وأعلن الإسلام كذلك أن الله كرَّم الإنسان بالصورة الحسنة وبالخلقة الحسنة، كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾[2]، ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾[3] .

وقد كان النبي ﷺ يكرر هذا الدعاء في سجوده : «سجد وجهي للذي خلقه وصوَّره، وشق سمعه وبصره، فتبارك الله أحسن الخالقين».

(جـ) تمييزه بالعنصر الروحي:

وفوق ذلك كله كرَّمه بالروح العلوي الذي أودعه الله بين جنبيه. فهو قبس من نور الله، ونفخة من روح الله، استحق به أن تنحني له الملائكة إجلالاً وإكباراً لمقدمه بأمر الله ، كما قال تعالى للملائكته: ﴿ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾[4] .

وهذه النفخة الروحية الالهية ليست خاصة بآدم أبي البشر، كما قد يتوهم بعض الناس، فإن بنيه ونسله جميعاً قد نالهم حظ منها، كما قال تعالى بعد أن ذكر خلق آدم: ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ، قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ ﴾[5] .

فلم يكن هذا التكريم والاحتفال لشخص آدم عليه السلام، وإنما كان تكريماً للنوع الإنساني في شخصه. فإن الله ميَّزهم بما ميَّزه من مواهب العقل والعلم والروح، واستخلفهم كما استخلفه في الأرض، ولهذا أعلن القرآن كرامة البشر

---

(١) البقرة: ٣٠-٣٣ (٢) التين: ٤ (٣) التغابن: ٣
(٤) سورة ص: ٧١-٧٢ (٥) السجدة: ٨-٩

كافة حين قال: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾[1] .

وهذا كله يثبت أن الانسان نوع متفرد متميز عن سائر الحيوانات، فإنها- وان شابهته فى عناصر تكوينها الطينى- تخالفه ويخالفها فى التكوين المعنوى، إذ لم يُكَرِّمها الله بما كرَّمه به من الروح والعقل، لأنها لم تُكَلَّف ما كُلِّفه من عمارة الأرض وخلافة الله فيها.

فهى مجرد أداة له فى مهمته، ليُسَخِّرها فى حاجته.

ولا ريب أن إيحاء هذا المعنى فى نفس الإنسان، غير إيحاء الذين ينظرون اليه على أنه ليس إلا حيواناً « تطور» وترقى حتى صار إلى ما هو عليه الآن[2].

(د) تسخير الكون لخدمة الإنسان:

وكان من تكريم الله للإنسان- فى نظر الاسلام - أنه جعل الكون كله فى خدمته. وسَخَّرَ لمنفعته العوالم كلها: السماء والأرض، الشمس والقمر والنجوم، الليل والنهار، الماء واليابس، البحار والأنهار، النبات والحيوان والجماد، كلها مُسَخَّرةٌ لمصلحة الإنسان وسعادة الإنسان، كرامة من الله له، ونعمة منه عليه.

يقول تعالى مخاطباً بنى الإنسان: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ، وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ، وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوهَا ﴾[3] .

---

(١) الإسراء: ٧٠.

(٢) كما هو مذهب داروين الذي لم يقم عليه دليل صحيح، وإنما روجته الصهيونية لحاجة في نفسها، كما اعترفوا به في «بروتوكولات حكماء صهيون» وحتى أتباع داروين من بعده لم يستطيعوا إلا أن يخالفوه ويثبتوا بالعلم «تفرد الإنسان» وهؤلاء هم الذين يطلق على مذهبهم اسم «الداروينية الحديثة». انظر في تقويم نظرية داروين كتاب الأستاذ قيس القرطاس «نظرية داروين بين مؤيديها ومعارضيها وكتاب «الإنسان في القرآن الكريم» للأستاذ عباس محمود العقاد، و«الإنسان بين المادية والإسلام» للأستاذ محمد قطب.

(٣) إبراهيم: ٣٢-٣٤

﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ البَحْرَ لِتَجْرِيَ الفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ ولِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(١) .

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾(٢) .

وتسخير الكون للإنسان يتضمن معنيين كبيرين:

أولهما: أن الطاقات الكونية كلها مهيأة ومبذولة للإنسان، لا يستعصى شىء منها عليه إذا تيسرت سبله، ورُعيت سنن اللّه فيه. فعليه أن يبذل جهده ويعمل فكره، فى فتح مغاليقها، واكتشاف مخبوئها، ليستخدمها فيما يعود عليه بالخير والسعادة.

وثانيهما: أن الإنسان هو واسطة العقد فى هذا العالم، وإن صغر حجمه، بالنسبة للمكان، أو قصر عمره، بالنسبة للزمان. فلا يجوز للإنسان إذن أن يؤله شيئاً فى هذا العالم، أو يتعبد له رغباً أو رهباً، والذين عبدوا بعض الأشياء أو المظاهر أو القوى الكونية، فى العالم العلوى أو السفلى، قلبوا الحقائق، وحوّلوا الإنسان من سيد سُخِّر له الكون، إلى عبد ذليل، يسجد لنجم، أو شجرة، أو بقرة، أو حجر من الأحجار، أو غير ذلك مما سجله التاريخ من أوهام البشر وضلالاتهم اذا انحرفوا عن هداية اللّه، على عكس ما أراد اللّه للإنسان، وما أراده من الإنسان.

* * *

• تميز « الإنسانية » فى الإسلام :

ولا ريب أن هناك أدياناً ونحلاً ومذاهب وفلسفات تهتم بالانسان، وتحرص على سعادته ، وقد تعلن وتفاخر بأنها «إنسانية».

ولكن العيب المشترك فى هذه الديانات والمذاهب أنها لم تعرف الإنسان

---

(١) الجاثية: ١٢-١٣ (٢) لقمان: ٢٠

معرفة محيطة به، وإنما نظرت إليه من زاوية معينة، أو من جانب خاص، غافلة عن الجوانب الأخرى، برغم أهميتها فى وجوده، فجارت على الإنسان باسم الإنسـان.

إن بعض الأديان والفلسفات نظرت إلى الجانب الروحى فى الإنسان، غير عابئة بجانبه العقلى، وجانبه الحسى والمادي. بل ربما دعت إلى تعذيب الجسم فى سبيل سعادة الروح.

وبعض المذاهب والفلسفات لم تنظر إلا إلى الجانب المادى فى الإنسان، ولم تبال بغيره، ولم تعترف به، فالإنسان كائن اقتصادى، أو حيوان منتج، لا أكثر.

وبعض المذاهب والفلسفات «ألّهت» الإنسان، واعتبرته كائناً مستقلا، «يقوم وحده» مستغنياً عن الله، فأساءت إلى الإنسان من حيث أرادت الإحسان إليه، وجعلته «نباتاً شيطانياً» خرج إلى الوجود من غير زارع، ولغير هدف، إلا أن ييبس ويصبح هشيماً تذروه الرياح، أو تأكله النار.

وبعض المذاهب - كالرأسمالية- تُدلل الإنسان الفرد، وتُطلق له العنان ، حتى يتحضم فى النهاية- باسم الحرية-دون أن تجعل للمجتمع حقاً فى مراقبته ومحاسبته وتقويمه من أجل مصلحته هو فى النهـاية، ومصلحة المجتمع من ورائه.

وبعض آخر- كالشيوعية- يضغط على الإنسـان الفرد، ويُكبله بقيود شتى، ويحرمه من كثير من الحريات، وكثير من الحقوق الطبيعية- باسم المجتمع- حتى يكاد يسحقه سحقاً.

أما الإسلام، فقد تميز عن هذه الأديان والفلسفات بنظرته الشاملة المحيطة لماهية الإنسان، والنفاذ إلى أغوار طبيعته، والاعتراف بكل جوانبه وخصائصه، دون ميل أو شطط، أو اهمال لناحية لحساب أخرى.

* * *

- بين إنسان المسيحية وإنسان الإسلام:

إن الأديان السماوية كلها قد جاءت لتحرير الإنسان وإسعاده والسمو به، ولكن أصابها الغلو أو التحريف والتزييف، بما بَدَّل جوهرها، وأخرجها عن رسالتها، ونظراً لأنها كانت رسالات مرحلية موقوتة لم يكتب الله لها الخلود، ولم يتكفل بحفظها، كما تكفل بحفظ القرآن، بل استحفظها أهلها، فضيعوا وبَدَّلوا.

وأبرز مثل لذلك المسيحية التي جاءت لإنقاذ الإنسان من سيطرة العقلية اليهودية في ماديتها وشكليتها وعنصريتها. فلم تلبث أن حُرِّفت بالحذف والزيادة حتى أصبحت- في القرون الوسطى- غِلاً في عنق الإنسان، وقيداً في رجله.

اعتبرت الإيمان ضداً للعقل. فكان شعارها: اعتقد وأنت أعمى.

واعتبرت الجسم عدواً للروح، فأهملت الأجسام إبقاء على الأرواح.

واعتبرت العمل للحياة منافياً للتعبد لله، فابتدعت نظام الرهبنة، والانقطاع عن الحياة .

واعتبرت الإنسان ملوثاً بالخطيئة من يوم يُولد، لأنها لازمة لوجوده ورثها من أبيه الأول .

وحجرت على الإنسان أن يتصل بربه إلا بوساطة كاهن بيده مفاتيح الجنة، وملكوت السماء.

(هـ) إلغاء الوساطة الكهنوتية بين الله والإنسان:

ذلكم هو إنسان المسيحية في صورتها التاريخية المعروفة. أما انسان الإسلام، فهو شيء آخر.

لقد كان من دلائل تكريم الله للانسان في نظر الإسلام: أنه فتح له باب التقرب إليه سبحانه وتعالى أنى شاء ، ومتى شاء، ولم يحوجه إلى وسطاء

يتحكمون فى ضميره، ويقفون حجاباً بينه وبين ربه. يقول الله تعالى مخاطباً لرسوله الكريم: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ، أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾[1] . ويقولُ في آية أخرى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[2] ، ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾[3] .

ويعلن الحديث القدسى أن من تقرب إلى الله شبراً تقرب الله إليه ذراعاً، ومن تقرب إلى الله ذراعاً تقرب الله إليه باعاً[4] .

لا حاجة بالإنسان إذن إلى وساطة كاهن، يصل عن طريقه إلى الله- ولا يقبل الله منه عبادة بغير توسطه ولا يستطيع التوبة من ذنب ارتكبه إلا بالجلوس أمامه فى ذل وخنوع على كرسى الاعتراف المشهور. فليس فى إلاسلام كاهن ولا كهنوت.

وبهذا يستطيع الإنسان المسلم أن يقرع باب ربه متى شاء ، وأين شاء، بعيداً عن سيطرة طبقة الدجاجلة المدعين للسمسرة بين الله وعباده.

يستطيع أن يدعو ربه متى شاء، فيجده أقرب إليه من حبل الوريد، دون وسيط أو شفيع وقد قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾[5] .

ويستطيع أن يصلى ويتعبد فى أى مكان، وحده أو مع غيره، دون حَجْر أو تضييق، فالأرض كلها له مسجد، والله بين يديه حيث كان: ﴿ فَأَيْنَمَا تَوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾[6] .

ويستطيع أن يناجى الله مباشرة فى أى ساعة من ليل أو نهار، فليس على بابه حاجب ولا بواب[7] .

وليس هذا لخاصة الأتقياء والصالحين، دون العصاة والمذنبين.

كلا، فإن باب الله مفتوح على مصراعيه لكل من دعاه ورجاه، ووقف على

---

(١) البقرة: ١٨٦ (٢) غافر: ٦٠. (٣) البقرة: ١٥٢
(٤) من حديث رواه البخاري. (٥) البقرة: ١٨٦ (٦) البقرة: ١١٥
(٧) انظر: كتابنا «العبادة في الإسلام» موضوع: «تحرير العبادة من رق الكهنوت»، ص١٤٨-١٥٦ ط. خامسة.

عتبته ضارعاً مستغفراً، وإن اقترف قبل ذلك كبائر الإثم وفواحش الذنوب. يقول تعالى: ﴿ والَّذينَ إذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أوْ ظَلَمُوا أنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلاَّ اللَّهَ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[1] .

وفى الحديث القدسى الصحيح: «يا عبادي إنَّكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم»[2] .

وفي القرآن الكريم: ﴿ قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّه، إنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً، إنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾[3] - وما أجمل وأرق هذا النداء: «ياعبادى» - فرغم خطاياهم واسرافهم على أنفسهم، لم يطردهم من ساحته ولم يحرمهم شرف عبوديته، وأضافهم الى ذاته القدسية، إيناساً لهم، وتحبباً إليهم.

(و) الاعتراف بالكيان الانسانى كله :

وكان من تكريم الإسلام للإنسان أن اعترف به كله كما فطره اللّه: جسمه وروحه، عقله وقلبه، إرادته ووجدانه، فلم يغفل حق جانب من هذه الجوانب لحساب آخر.

١- ولهذا أمره بالسعي فى الأرض والمشى فى مناكبها، والأكل من طيباتها والاستمتاع بزينة اللّه التى أخرج لعباده فيها، وحثه على النظافة والتجميل والاعتدال، ونهاه عن المسكرات والمفترات وكل ما يضر تناوله، وفاءً بحظ جسمه.

٢- وأمره بعبادة اللّه وحده، والتقرب اليه بأنواع الطاعات، من صلاة وصيام وصدقة وزكاة، وحج وعمرة، وذكر ودعاء، وإنابة وتوكل، وخوف ورجاء، وبر واحسان، وجهاد فى سبيل اللّه، وغير ذلك من ألوان العبادة الظاهرة والباطنة - وفاء بحق الروح.

٣- وأمره بالنظر والتفكير فى ملكوت السموات والأرض وما خلق اللّه من شىء، وفى مصاير الأمم، وسنن الله فى المجتمعات، كما أمره بطلب العلم،

---

(١) آل عمران: ١٣٥ (٢) رواه مسلم من حديث أبي ذر المشهور. (٣) الزمر: ٥٣

والتماس الحكمة من أي وعاء خرجت منه، وأنكر عليه الجمود والتقليد للآباء والكبراء، كل ذلك وفاء بحق العقل.

٤- ولفته إلى جمال الكون بأرضه وسمائه ونباته وحيوانه ، وما زانه الله به من مظاهر الحسن والبهجة، ليشبع حاسة الجمال فى نفسه، ويشعر فى أعماقه بعظمة ربه، الذي أحسن كل شيء خلقه، كما أنه أباح له التمتع بألوان من اللهو وترويح النفس، دفعاً للسآمة عنها، فإنها تمل كما تمل الأبدان، وتتعب كما تتعب، وفى هذا رعاية لجانب الوجدان والعاطفة[١] .

(ز) تحرير الإسان من اعتقاد وراثة الخطيئة الأولى:

ومن كرامة الإنسان فى الإسلام : أنه أزال عنه وصمة التلوث بالخطيئة، التى يولد عليها كل إنسان، كما هى دعوى المسيحية، التى زعمت أن خطيئة آدم - بالأكل من الشجرة المحرمة - وُرِّثت لبنيه ذكوراً وإناثاً. فلا يُولد مولود إلا وفى عنقه هذه الخطيئة، ولا ينجو إنسان من إثمها وتبعتها إلا بكفارة وفداء، ولم يتحقق هذا الفداء إلا بصلب المسيح فيما زعموا - ومن ثم كانت حتمية الإيمان بالمسيح فادياً مخلصاً !

أما الإسلام فقد ألغى هذا كله، وأعلن أن «كل مولود يُولد على الفطرة»[٢] غير مُلوَّث بخطيئة، أو مُثقَّل بذنب.

كما قرر الإسلام بوضوح وحسم مسئولية الإنسان عن نفسه، فلا يجوز فى منطق العدل الإلهى أن يحمل الابن وزر أبيه، أو الحفيد وزر جده: ﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾[٣] .

على أن معصية آدم نفسها، قد غسلتها التوبة، وانتهى أمره بالاجتباء والهداية من ربه، كما قال تعالى: ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾[٤] .

---

(١) انظر: كتابنا «الحلال والحرام في الإسلام» فصل: «اللهو والترفيه».
(٢) من حديث رواه البخاري. (٣) الأنعام: ١٦٤ (٤) طه: ١٢١_١٢٢

يقول الدكتور نظمى لوقا. المسيحى المصرى فى كتابه «محمد .. الرسالة والرسول»: إن أنس لا أنسى ما ركبنى صغيراً من الفزع والهول من جراء تلك الخطيئة الأولى وما سيقت فيه من سياق مروع، يقترن بوصف جهنم، ذلك الوصف المخيف لمخيلة الأطفال وكيف تتجدد فيها الجلود كلما أكلتها النيران، جزاء وفاقاً على خطيئة آدم بإيعاذ من حواء. وأنه لولا النجاة على يد المسيح الذى فدى البشر بدمه الطهور! لكان مصير البشرية كلها الهلاك المبين !

وإن أنس لا أنسى القلق الذى ساورنى وشغل خاطرى عن ملايين البشر قبل المسيح: أين هم؟ وما ذنبهم حتى يهلكوا بغير فرصة للنجاة؟!

والحق أنه لا يمكن ان يُقَدِّر قيمة عقيدة خالية من أعباء الخطيئة الأولى الموروثة إلا من نشأ في ظل تلك الفكرة القاتمة، التي تصبغ بصبغة الخجل والتأثم كل أفعال المرء، فيمضي في حياته مضي المريب المتردد، ولا يقبل عليها إقبال الواثق، بسبب ما أنقض ظهره من الوزر الموروث.

إن تلك الفكرة القاسية تسمم ينابيع الحياة كلها، ورفعها عن كاهل الإنسان منة عظمى، بمثابة نفخ نسمة حياة جديدة فيه، بل هو ولادة جديدة حقاً، ورد اعتبار لا شك فيه. إنه تمزيق صحيفة السوابق، ووضع زمام كل إنسان بيد نفسه»[١] .

* * *

• تقرير حقوق الإنسان:

وقبل أن تسمع أذن الدنيا عن حقوق الإنسان باثنتي عشر قرناً أو تزيد، ويوم كان العالم كله لا ينظر للإنسان إلا من جهة ما عليه من واجبات يُطالب بأدائها، وإلا كان عليه من العقاب ما يستحق .. جاء الإسلام ليقرر جهرة أن للإنسان حقوقاً ينبغي أن ترعى، كما أن عليه واجباتٍ ينبغي أن تُؤدى.

وكما أنه يُسئل عما عليه، يجب أن يعطي ما له، فكل واجب يقابله حق. كما أن كل حق يقابله واجب.

---

(١) محمد الرسالة والرسول.

وهذه الحقوق ليست منحة من مخلوق مثله له، يمن بها عليه إن شاء، ويسلبها منه متى شاء..

كلا، ليست منحة من إمبراطور أو ملك أو أمير، أو حزب أو لجنة، إنما هي حقوق قررها الله له بمقتضى فطرته الإنسانية. فهي حقوق ثابتة دائمة بحكم الطبيعة والشريعة جميعاً.

من هذه الحقوق: حق الحياة .. حق الكرامة .. حق التفكير .. حق التدين والاعتقاد .. حق التعبير .. حق التعلم .. حق التملك .. حق الكفاية من العيش .. حق الأمن من الخوف.

وسأقتصر هنا على الحديث الخاطف عن بعض هذه الحقوق. طلباً للاختصار، وللتفصيل مجال آخر[1] :

• حق الحياة للإنسان:

قدّس الإسلام حق الحياة وحماه بالتربية والتوجيه وبالتشريع والقضاء، وبكل المؤيدات النفسية والفكرية والاجتماعية. واعتبر الحياة هبة من الله لا يجوز لأحد أن يسلبها غيره. لا يجوز لحاكم أن يسلب حياة المحكوم. ولا لسيد أن يسلب حياة عبده، ولا لزوج أن يسلب حياة زوجه. ولا لوالد أن يسلب حياة ولده.

ولا غرو أن أنكر القرآن على أهل الجاهلية من العرب الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم: وأدوا البنات خاصة مخافة العار، وقتلوا البنين والبنات جميعاً من أجل الإملاق الواقع، أو خشية الإملاق المتوقع، وجعل القرآن ذلك من أكبر الآثام: ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾[2] ، ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ. نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ، إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً ﴾[3] .

---

(١) وقد ألفت في ذلك كتب يمكن الرجوع إليها من أراد التفصيل، أذكر منها: حقوق الإنسان في الإسلام للدكتور علي عبد الواحد وافي، وحقوق الإنسان بين الإسلام وميثاق الأمم المتحدة للشيخ محمد الغزالي.

(٢) التكوير: ٨ - ٩

(٣) الإسراء: ٣١

لم يفرق الإسلام في حق الحياة بين أبيض وأسود، ولا بين شريف ومشروف، ولا بين حر وعبد، ولا بين رجل وامرأة، ولا بين كبير وصغير. حتى الجنين في بطن أمه له حرمة لا يجوز المساس بها، حتى الجنين الذي ينشأ عن طريق الحرام لا يجوز لأمه ولا لغيرها أن تسقطه، لأنه نفس محترمة لا يحل الاعتداء عليها. ولما جاءت امرأة إلى النبي ﷺ .وأقرت عنده أنها زنت وأنها حبلى من الزنا. وطلبت إليه أن يطهرها بإقامة حد الله عليها، قال لها: اذهبي حتى تلدي .. فلما ولدت جاءت بطفلها .. مطالبة بإقامة الحد مرة أخرى، فقال لها: اذهبي حتى تفطميه. ولم ينفذ فيها العقوبة إلا بعد أن جاءت به بعد أن أصبح يأكل الطعام. كل هذا رعاية لحق الجنين، ثم المولود الرضيع، لأنه لا ذنب له فيما جنته أمه، أو اقترفه أبوه. ولا تزر وازرة وزر أخرى.

ومن أجل المحافظة على الحياة، جاءت آيات القرآن، وأحاديث الرسول ﷺ تنذر بأشد العذاب من اعتدى على نفس بغير حق، حتى ذهب بعض العلماء في الإسلام إلى أن القاتل لا تقبل له توبة.

وفي سبيل المحافظة على الحياة شرع الإسلام في قتل العمد القصاص، مع ترغيبه في العفو والصلح بعوض أو بغير عوض: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ﴾ إلى أن يقول: ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ﴾[1] . ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[2] .

كما شرع الدية والكفارة في قتل الخطأ قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطأً، وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلاَّ أَنْ يَصَّدَّقُوا، فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ، وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللهِ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴾[3] .

---

(١) البقرة: ١٧٨ (٢) البقرة: ١٧٩ (٣) النساء: ٩٢

ونلاحظ في الآية الكريمة أن الكافر الذي بينه وبين المسلمين ميثاق وحلف، يجب في قتله خطأ ما يجب في قتل المؤمن من الدية والكفارة. وقد جاءت الأحاديث مؤكدة بأن من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة.

وكيف لا يحمي الإسلام حق الحياة للإنسان، وقد حمى حياة الحيوان إذا لم يكن منه أذى للناس، وفي الحديث الصحيح: «أن امرأة دخلت النار في هرة حبستها حتى ماتت، فلا هي أطعمتها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض».

وفي حديث آخر: «لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها» مشيراً إلى قوله تعالى: ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾[1] .

فإذا كان هذا في شأن القطط والكلاب، واحترام حياتها، واعتبارها أمماً أمثالنا، فكيف تكون منزلة حياة الإنسان المكرم، خليفة الله في الأرض؟

* * *

• حق الكرامة وحماية العرض:

أكد الإسلام حرمة العرض والكرامة للإنسان، مع حرمة الدماء والأموال، حتى أن النبي ﷺ أعلن ذلك في حجة الوداع أمام الجموع المحتشدة في البلد الحرام، والشهر الحرام، واليوم الحرام: «إن الله حرَّم عليكم دماءكم وأعراضكم وأموالكم»[2] فلا يجوز أن يؤذي إنسان في حضرته ولا أن يهان في غيبته، سواء أكان هذا الإيذاء للجسم بالفعل أم للنفس بالقول. فربما كان جرح القلب بالكلام أشد من جرح الأبدان بالسياط أو السنان.

وكيف لا يُحَرِّم الإسلام القتل، وقد حَرَّم ما دونه؟ أجل، لقد حرَّم الإسلام أشد التحريم أن يُضرب إنسان بغير حق، وأن يُجلد ظهره بغير حد، وأنذر باللعنة من ضرب إنساناً ظلماً، ومن شهده يُضرب ولم يدفع عنه[3] ، وبهذا حمى بدن الإنسان من الإيذاء.

---

(١) الأنعام: ٣٨ (٢) رواه الشيخان وغيرهما من حديث جابر.

(٣) معنى حديث رواه الطبراني والبيهقي بإسناد حسن كما في الترغيب والترهيب للمنذري.

كذلك حرَّم الإسلام الإيذاء الأدبي للإنسان: حرَّم الهمز واللمز والتنابز بالألقاب، والسخرية والغيبة وسوء الظن بالناس، وأنزل اللّه في ذلك آيات تتلى في سورة الحجرات[1] وبذلك حمى نفس الإنسان من الإهانة.

ولم يكتف الإسلام بحماية الإنسان في حالة حياته، فكفل له الاحترام بعد مماته، ومن هنا جاء الأمر بغسله وتكفينه ودفنه، والنهي عن كسر عظمه أو الاعتداء على جثته[2] خلافاً للأمم التي تحرق جثث موتاها.

وفي هذا جاء الحديث النبوى: «كسر عظم الميت، ككسره حياً»[3].

وقال ابن حجر في الفتح: يُستفاد منه أن حرمة المؤمن بعد موته باقية كما كانت في حياته»[4].

وكما حمى جسمه بعد الموت حمى عِرضه وسمعته أيضاً، لئلا تلوكها الأفواه. فقال الرسول ﷺ: «لا تذكروا موتاكم إلا بخير»[5].

* * *

• حق الكفاية التامة :

ومن حق كل إنسان أن تُهيأ له كفايته التامة من العيش بحيث تتوافر له الحاجات الأساسية للمعيشة، من مأكل وملبس ومسكن وعلاج وما يتصل بذلك مما يحتاج إليه الإنسان.

والواجب أن يكون للإنسان دخل كاف يحقق كفايته منه، عن طريق العمل المشروع، في زراعة أو تجارة أو صناعة، أو احتراف بحرفة نافعة للناس. سواء عمل الإنسان لنفسه أم لغيره بأجر يكافئ جهده.

---

(١) الآيات ١٠-١٢ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ ﴾ .. الآيات.

(٢) ما لم تدفع إلى ذلك ضرورة أو حاجة، كمعرفة أسباب القتل وكيفيته، الذي يقوم به «الطب الشرعي» الآن .. وقد يستلزم هذا تشريح الجثة أو كسر بعض العظام

(٣) رواه أحمد وأبو داوود وابن ماجه عن عائشة، ورواه ابن ماجه عن أم سلمة بلفظ: «ككسر عظم الحي في الإثم» كما في الجامع الصغير للسيوطي.

(٤) فيض القدير: شرح الجامع الصغير للمناوي جـ٤ ص. ٥٥-٥٥١

(٥) رواه أبو داوود الطيالسي في مسنده بسند جيد كما في «كشف الخفاء» للعجلوني. جـ١ ص٦٠١.

فإذا لم يكن للإنسان دخل يكفيه، كان على أقاربه الموسرين أن يحملوه، لأنه جزء منهم، وهم جزء منه، وقد قال تعالى: ﴿ وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾[1] .

وإن لم يكن له أقارب موسرون، يستطيعون حمله معهم، وجبت كفايته من الزكاة، التي فرضها الله على المسلمين ، تؤخذ من أغنيائهم لترد على فقرائهم، فهي من الأمة وإليها.

ومن الجميل هنا: أن الزكاة لم تجب لتحقيق الكفاية فحسب للإنسان الفقير، بل لتحقيق تمام الكفاية له ولمن يعول من أهل وأقربين .. فالحد الأدنى المطلوب للفقير في المجتمع الإسلامي، ليس هو حد الكفاف، ولا حد الكفاية، بل تمام الكفاية..

ولقد ذكر الفقهاء : أن كتب العلم من تمام الكفاية، وأن آلات الحرفة من تمام الكفاية.

بل اعتبروا الزواج لمن لا زوجة له من تمام الكفاية.

والمطلوب: تمام الكفاية له ولأسرته لمدة سنة كاملة[2] .

بل ذهب الإمام الشافعي - وهو قول في بعض المذاهب الأخرى - إلى وجوب كفاية العمر للفقير، بحيث لا يحتاج إلى الزكاة مرة أخرى. وقد صح عن عمر قوله: «إذا أعطيتم فأغنوا» وقوله: «والله لأكررن عليهم الصدقة ولو راح على أحدهم مائة من الإبل»[3] . وهذا المقدار -مائة من الإبل- يساوي عشرين نصاباً من أنصبة الزكاة في الإبل.

وليست الزكاة هي الحق الوحيد في المال. بل هي الحق الدوري الثابت الذي وصل به الإسلام إلى أعلى درجات الإلزام، فاعتبر إيتاءها من أركان الإسلام الخمسة، وقرنها بالصلاة -عمود الدين- في عشرات المواضع من القرآن والحديث، وفرض أداءها طوعاً وبطيب نفس، وإلا أخذت كرهاً، ولو بقوة السلاح،

---

(١) الأنفال: ٧٥ (٢) انظر في هذا، كتابنا «فقه الزكاة» جـ٢ ص٥٦٧ وما بعدها.
(٣) المرجع السابق ص٥٦٤-٥٦٧

حتى لا يضيع حق الفقير في تمام كفايته وكفاية أهله. ولا يجهل أحد حروب الخليفة الأول أبي بكر الصديق من أجل انتزاع حقوق الفقراء من براثن الأغنياء.

ومع هذا إذا لم تقم حصيلة الزكاة بتحقيق تمام الكفاية للفقراء والمساكين، وجب على أغنياء كل بلد أن يقوموا بكفاية فقرائهم، وإن لم يفعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم، ألزمهم السلطان بذلك باسم الشرع الذي أوجب التكافل بين المسلمين، واعتبرهم كالبنيان المرصوص، أو كالجسد الواحد، وليس بمؤمن من بات شبعان وجاره إلى جنبه جائع.

على أن دائرة هذا التكافل ليست مغلقة على المسلمين وحدهم، بل تشمل معهم من يعيش في ظل دولة الإسلام من أهل الذمة.

وقد رأينا عمر الفاروق يأمر خازن بيت المال أن يفرض ليهودي رآه يسأل الناس - من بيت مال المسلمين ما يكفيه، وجعل ذلك قاعدة له ولأمثاله من أهل الكتاب، وكتب بذلك عمر بن عبد العزيز إلى بعض ولاته لينفذه[(١)] .

كما أن عمر -وهو في طريقه إلى الشام- وجد جماعة مجذومين من النصارى، فأمر بإجراء القوت عليهم من الصدقات.

ثم إن موارد الدولة كلها يجب أن تكون في خدمة هذا الحق -حق الكفاية التامة- إذا لم تكف الزكوات وغيرها. وذلك بحكم مسئولية الدولة عن رعاياها.

* * *

• من ثمرات الإنسانية في الإسلام:

الإخاء، والمساواة، والحرية.

هذه النزعة الإنسانية الأصيلة في الإسلام هي أساس هام لمبدأ الإخاء البشري الذي نادى به الإسلام. وهي أساس هام كذلك لمبدأ المساواة الإنسانية العام الذي دعا إليه الإسلام.

---

(١) انظر: كتابنا «مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام» ط ثانية.

وهي أساس هام كذلك لمبدأ الحرية الذي قرره الإسلام . أكد الإسلام الدعوة إلى هذه المبادئ الإنسانية الثلاثة، ووضع الصور العملية لتطبيقها، وربطها بعقائده وشعائره وآدابه ربطاً محكماً، بحيث لا تظل مجرد أمنية شاعرية تهفو إليها بعض النفوس، أو فكرة مثالية تتخيلها بعض الرؤوس، أو حبر على ورق سطرته بعض الأقلام.

وأكتفى هنا بالحديث عن الإخاء والمساواة فهما مبدآن متلازمان:

• مبدأ الإخاء الإنساني:

أما مبدأ الإخاء الإنساني البشري العام، فقد قرره الإسلام بناء على أن البشر جميعاً أبناء رجل واحد وامرأة واحدة، ضمتهم هذه البنوة الواحدة المشتركة، والرحم الواصلة، ولهذا قال تعالى في أول سورة النساء: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجالاً كَثِيراً وَنِساءً، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾[1] .

وما أحق كلمة «الأرحام» المذكورة في هذه الآية أن تفسر بحيث تشمل بعمومها الرحم الإنسانية العامة، لتتسق مع بداية الخطاب بـ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ ومع ذكر النفس الواحدة التي خلق اللّه منها جميع الناس رجالاً ونساء، وهي نفس آدم عليه السلام وعطفها على لفظ الجلالة ﴿ اللّه ﴾ في هذا المقام يدل على أن لهذه الأرحام شأناً أي شأن.

وقد كان رسول اللّه ﷺ يقرر هذا الإخاء ويؤكده كل يوم أبلغ تأكيد وأوثقه.

فقد روي الإمام أحمد في مسنده عن زيد بن أرقم رضي اللّه عنه : أن رسول اللّه ﷺ كان يقول دبر كل صلاة: «اللهم ربنا ورب كل شيء ومليكه، أنا شهيد أنك اللّه وحدك لا شريك لك ..

---

(١) النساء: ١

اللّهم ربنا ورب كل شيء ومليكه، أنا شهيد أن محمداً عبدك ورسولك ..

اللّهم ربنا ورب كل شيء ومليكه، أنا شهيد أن العباد كلهم أخوة »[1] .

بهذا الدعاء كان يناجي رسول الله ﷺ ربه بعد كل صلاة، وإنه ليدلنا أوضح دلالة على قيمة الإخاء البشري في رسالة الإسلام.

١- فهو -أولاً- يعلن الأخوة بين عباد الله كلهم - لا بين العرب وحدهم ولا بين المسلمين وحدهم - مشيراً إلى الجامع المشترك بينهم، الموحِد بين أجناسهم وألوانهم وطبقاتهم وهو العبودية لله تعالى.

٢- وهو ﷺ يقرر ذلك في صيغة دعاء يناجي به ربه ويشهد بنفسه أمامه سبحانه على حقية هذا المبدأ وصدقه، أي أن تقرير هذا المبدأ ليس مجرد كلام للاستهلاك المحلي أو للتضليل العالمي، وإنما هو حقيقة دينية لا ريب فيها.

٣- أنه قرن هذا المبدأ بالمبدأين الأساسيين في عقيدة الإسلام واللذين لا يدخل أحد هذا الدين إلا إذا آمن وشهد بهما، وهما: توحيد الله تعالى ورسالة عبده محمد ﷺ ، وهذا الاقتران دليل على أهمية هذا المبدأ (الإخاء) لدى رسول الإسلام.

كما أن لهذا الاقتران دلالة أخرى في تأكيد مبدأ الإخاء، فإن توحيد الله تعالى معناه إسقاط كافة المتألهين في الأرض، المتعالين على غيرهم من عباد الله. وهذا أول ما يعمق أساس الأخوة بين الخلق. كما أن الشهادة بأن محمداً عبد الله ورسوله - ليس إلهاً، ولا نصف إله، ولا ثلث إله، ولا ابن إله، ولا من سلالة الآلهة - يؤكد مضمون الأخوة العامة ويثبتها.

٤- ثم هو لا يكتفي بإعلانه مرة في العمر أو مرة كل عام، أو حتى كل شهر أو كل أسبوع، بل يدل هذا الحديث أنه كان يكرر ذلك في كل يوم، وعقب كل صلاة ، أي خمس مرات في اليوم والليلة، وهذا دليل على مزيد العناية والاهتمام.

---

(١) ذكره ابن القيم في زاد المعاد، وقال: ورواه أبو داوود.

٥- أنه جعل ذلك من الأذكار والأدعية التي يُتعبد بها، ويُتقرب إلى الله بتكرارها، وربطه بالصلاة وختامها، وهذا يُضفي عليه قدسية ومنزلة في قلوب المؤمنين لا تعدلها منزلة مبدأ يُقرر بعيداً عن الله وعن هداه.

ويزداد هذه الإخاء توثقاً وتأكداً إذا أضيف إليه عنصر الإيمان، فتجتمع الأخوة الدينية إلى الأخوة الإنسانية، وتزيدها قوة على قوة. وإذا كان باب الإيمان مفتوحاً لكل الناس بلا قيد ولا شرط ولا تحفظ على جنس أو لون أو إقليم أو طبقة، فإن الإخاء الديني المتفرع عن الإيمان والعقيدة المشتركة لا يضعف الإخاء العام، بل يشد عضده ويُقويه، ويجعل له في واقع الناس كتلة حيلة ملموسة تؤمن به وتطبقه، وتدعو إليه، وتدافع عنه، فلا تنافي إذن بين الإخاء البشري العام وبين الإخاء الديني الذي نلمسه في مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾[1]. وقوله ﷺ: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه»[2].

ولقد طبق الإسلام هذا الإخاء الرفيع، وأقام على أساسه مجتمعاً ربانياً إنسانياً فريداً. شعاره: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه». وجد هذا المجتمع في المدينة بعد الهجرة، في ظل العقيدة، فانطفأت نار العداوة بين الأوس والخزرج، وذابت الحواجز بين القحطانيين والعدنانيين من العرب، كما رأينا ذلك في المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وانحلت العقد بين العربي والعجمي وامحت الفوارق بين الأغنياء والفقراء وبين المتحضرين والبداة، وأصبح مسجد الرسول يضم في رحابه الفيحاء، الحبشي كبلال، والفارسي كسلمان، والرومي كصهيب، إلى جوار إخوانهم العرب الأقحاح من الصحابة، كما يضم أغنياء كابن عوف وابن عفان، وفقراء كأبي ذر وأبي هريرة. لم ينل من أخوتهم اختلاف الجنس أو اللون أو القبيلة أو الطبقة، أو أي اعتبار بشري مما يفرق الناس بعضهم من بعض.

لقد غسل الإسلام الأنفس من أرجاس الجاهلية وطهرها من الغل والحسد والحقد، ونقاها من الأنانية والشُح والبخل، بل ارتقى ببعض الأنفس إلى درجة

---

(١) الحجرات: ١٠.

(٢) رواه البخاري وغيره.

الإيثار، كما رأينا في مثل موقف سعد بن الربيع الأنصاري مع أخيه عبد الرحمن ابن عوف المهاجر فقد عرض عليه شطر ماله ليتملكه، كما عرض عليه إحدى زوجتيه ليطلقها من أجله فيتزوجها، وهو طيب النفس قرير العين.

وكان هذا هو الطابع العام لموقف الأنصار من إخوانهم المهاجرين، برغم ما ينشأ عادة من عُقد بين أصحاب البلد والطارئين عليهم، وبرغم كيد اليهود، ودسائس المنافقين. ولا عجب أن سجل الله في كتابه هذا الموقف الخالد لهذه الجماعة المؤمنة بقوله: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ، وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[١] .

* * *

• مبدأ المساواة الإنسانية:

وأما مبدأ المساواة الإنسانية الذي قرره الإسلام ونادى به، فأساسه: أن الإسلام يحترم الإنسان ويكرمه من حيث هو إنسان، لا من أي حيثية أخرى، الإنسان من أي سلالة كان ومن أي لون كان، من غير تفرقة بين عنصر وعنصر، وبين قوم وقوم، وبين لون ولون، مسقطاً كل أنواع التفرقة القبلية والعنصرية والقومية واللونية، يقول القرآن: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[٢] .

وقد خطب النبي ﷺ الناس بمعنى هذه الآية في حجة الوداع في أوسط أيام التشريق فقال: «يا أيها الناس، إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى، إن أكرمكم عند الله أتقاكم»[٣] ، وفي الحديث الآخر: «الناس بنو آدم، وآدم خلق من تراب»[٤] .

---

(١) الحشر: ٩ (٢) الحجرات: ١٣

(٣) رواه البيهقي من حديث جابر وقال: في إسناده بعض من يجهل، كما في الترغيب.

(٤) رواه أبو داوود والترمذي وحسنه البيهقي.

الإنسان من أي وطن كان وأي بلد كان، بلا فرق بين وطن ووطن وبين إقليم وإقليم فالبلاد كلها أرض الله، والناس كلهم عباد الله وبهذا تسقط كل ألوان العصبية الإقليمية والوطنية التي تُعلي أهل بلد على غيره.

الإنسان من أي طبقة كان، دون تفريق بين طبقة وطبقة، وبين فئة وأخرى. فكل الناس سواسية، وكل المؤمنين أخوة، ولا اعتبار للغنى أو للفقر في تقديم الناس أو تأخيرهم .. بل الواجب إنزالهم منازلهم، وإعطاء كل ذي حق حقه، دون نظر إلى تلك الاعتبارات.

وبهذا تسقط الاعتبارات الطبقية التي قام عليها كثير من المجتمعات قديماً وحديثاً، والتي أقام عليها بعض الناس فلسفتهم الحاقدة السوداء التي تبني طبقة واحدة بهدم كل الطبقات.

بل الإنسان من أي دين كان، فإن اختلاف الأديان لا يُسقط عن المخالفين إنسانيتهم ولا يخلعهم منها، حتى أن النبي ﷺ قام لجنازة، فقيل له: إنها جنازة يهودي فقال: أليست نفساً؟؟ (رواه البخاري) لا مكان إذن لجنس متفوق ولا لشعب مختار، ولا لطبقة مُتسلطة، ولا لأسرة لها حق السيادة على غيرها.

قد يختلف الناس في أجناسهم وعناصرهم فيكون منهم الآرى والسامي والحامي والعربي والعجمي.

وقد يختلفون في أنسابهم وأحسابهم فيكون منهم من ينتهي إلى أسرة عريقة في المجد، ومن ينتهي إلى أسرة صغيرة مغمورة في الناس.

وقد يتفاوت الناس في ثرواتهم فيكون منهم الغنى، ومنهم الفقير، ومنهم المتوسط الحال.

وقد يتفاوتون في أعمالهم ومناصبهم، فيكون منهم الحاكم والمحكوم، ويكون منهم المهندس الكبير والعامل الصغير، ويكون منهم أستاذ الجامعة والحارس ببابها.

ولكن هذا الاختلاف أو التفاوت لا يجعل لواحد منهم قيمة إنسانية أكبر من قيمة الآخر، بسبب جنسه أو لونه أو حسبه أو ثروته أو عمله أو طبقته أو أي اعتبار آخر.

إن القيمة الإنسانية واحدة للجميع. فالعربي إنسان والعجمي إنسان، والأبيض إنسان والأسود إنسان. والحاكم إنسان والمحكوم إنسان. والغني إنسان والفقير إنسان، ورب العمل إنسان والعامل إنسان.. والرجل إنسان والمرأة إنسان.. والحُر إنسان والعبد إنسان. وما دام الكل إنساناً، فهم إذن سواسية كأسنان المشط الواحد.

ومن هنا اعتبر الإسلام الاعتداء على نفس أي إنسان اعتداء على الإنسانية كلها، كما جعل إنقاذ أي نفس انقاذاً للجميع، هذا ما قرره القرآن بوضوح: ﴿ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً، وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً ﴾[1].

* * *

• شعائر الإسلام تثبت معنى المساواة :

ولم يكتف الإسلام بتقرير مبدأ المساواة نظرياً، وتثبيته فكرياً، بل أكده عملياً بجملة أحكام وتعاليم نقلته من فكرة مجردة إلى واقع ملموس. من ذلك العبادات الشعائرية التي فرضها الإسلام، وجعلها الأركان العملية التي يقوم عليها بناؤه العظيم من الصلاة والزكاة والصيام والحج.

ففي مساجد الإسلام - حيث تُقام صلاة الجمعة والجماعة - تأخذ المساواة صورتها العملية وتزول كل الفوارق التي تُميز بين الناس، فمن ذهب إلى المسجد أولاً أخذ مكانه في مقدمة الصفوف وإن كان أقل الناس مالاً، وأضعفهم جاهاً. ومن تأخر حضوره تأخر مكانه مهما يكن مركزه، ولو نظرت إلى صف واحد من صفوف المصلين لراعك أن تجد فيه الغني بجانب الفقير، والعالم بجانب الأمي، والشريف بجانب الوضيع، والحاكم بجوار الخادم، لا فرق بين واحد وآخر، فكلهم سواسية أمام الله، في قيامهم وقعودهم وركوعهم وسجودهم .. قبلتهم واحدة وكتابهم واحد، وربهم واحد، وحركاتهم واحدة ، خلف إمام واحد.

---

(١) المائدة: ٣٢

وفي الآراضي المقدسة - حيث تُؤدَى مناسك الحج والعمرة - تتحقق المساواة بصورة أشد ظهوراً، وتتجسد تجسداً تراه العين، وتلمسه اليد. فقد يظل الناس في صف الصلاة متمايزين بما يلبسون من أنواع الثياب التي تختلف باختلاف الأقوام أو البلدان أو الطبقات، أما في الحج والعمرة فإن شعيرة الإحرام تفرض على الحجاج والمعتمرين أن يتجردوا من ملابسهم العادية ويلبسوا ثياباً بيضاء ساذجة لم يدخلها التكلف والتصنع والتفصيل، أشبه ما تكون بأكفان الموتى يستوي فيها القادر والعاجز، والملك والسوقة، ثم ينطلق الجميع ملبين بهتاف واحد: «لبيك اللّهم لبيك».. مبتهلين إلى رب واحد، طائفين ببيت الله الحرام، معظمين لشعائره لا فرق بين سيد ومسود، ولا بين آمر ومأمور.

* * *

• المساواة أمام قانون الإسلام :

ومن المساواة العملية التي قررها الإسلام قولاً، وطبقها فعلاً: المساواة أمام قانون الشرع وأحكام الإسلام.

فالحلال حلال للجميع، والحرام حرام على الجميع[1] ، والفرائض مُلزِمة للجميع، والعقوبات مفروضة على الجميع.

حاولت إحدى القبائل عند الدخول في الإسلام أن تعفي من الصلاة حيناً من الزمن، فأبى عليها ذلك الرسول ﷺ وقال: «لا خير في دين لا صلاة فيه».

وحاول الصحابة أن يُشَفِّعُوا أسامة بن زيد - حِب رسول الله وابن حبه - في امرأة من قريش ومن بني مخزوم، سرقت فاستحقت أن يُقام عليها حد السرقة: قطع اليد. فكلّمه فيها أسامة، فغضب ﷺ غضبته التاريخية المعروفة، وقال كلمته التي خلّدها التاريخ: «إنما هلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيْمَ الله، لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطع محمد يدها».

---

(١) انظر: كتابنا «الحلال والحرام» ص٣٥-٣٨ تحت عنوان: «الحرام حرام على الجميع».

وفي عهود الخلفاء الراشدين رأينا كثيراً من الصور والأمثلة لتطبيق مبدأ المساواة بين جميع الناس، دون تفريق أو تمييز، وحسبنا أن نشير هنا إلى قصة جبلة بن الأيهم -الأمير الغساني- مع الأعرابي الذي شكا إلى عمر أمير المؤمنين كيف لطمه جبلة بغير حق، فلم يسع عمر إلا أن يحضر جبلة ويطلب إليه أن يُمَكِّن الأعرابي ليقتص منه، لطمة بلطمة، إلا أن يعفو عنه ويصفح، وعزَّ على الأمير الغساني أن يفعل ذلك، وقال لعمر بصراحة: كيف يقتص مني وأنا ملك وهو سوقة؟

فقال عمر: إن الإسلام قد سَوَّى بينكما.

ولم يسع الأمير المسكين هذا المعنى الكبير وخرج من المدينة هارباً مرتداً عن الإسلام الذي يفرض المساواة بين الملك والسوقة أمام شرع الله وغلبت عليه شقوته فكان من الخاسرين.

ولم يُبال عمر ولا الصحابة معه بهذه النتيجة لأن ارتداد رجل عن الإسلام أهون بكثير من التهاون في تطبيق مبدأ عظيم من مبادئ الإسلام، كالمساواة. وخسارة فرد لا تُقاس بخسارة مبدأ.

ومما نشير إليه هنا كذلك: قصة عمر مع واليه على مصر: عمرو بن العاص، حين ضرب ابنه ابن القبطي متطاولاً عليه بأنه «ابن الأكرمين» وكيف سافر القبطي من مصر إلى المدينة شاكياً الوالي، وطالباً النُصفة والعدل، فما كان من عمر إلا أن استدعى عمراً وولده وأمر ابن القبطي أن يضرب ابن عمرو كما ضربه، ثم قال لعمرو كلمته الشهيرة: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟؟!

ومما يَلْفِتُ الانتباه ويجدر بالتسجيل هنا، موقف القبطي وسفره من مصر إلى المدينة على بُعد المسافة، ومشقة الطريق، وضعف الوسائل، وقد كان هذا القبطي وألوف أمثاله يضربون ويُعذبون ويُضرب أبناؤهم وأهلوهم في عهد الرومان، فما يرفعون بالشكاية رأساً ولا يُحركون ساكناً.

تُرى ما الذي طرأ عليهم؟ وما الذي غير من نظرتهم، وجعلهم يحسون بالظلم، ويشكون منه، ويركبون الصعب في سبيل الانتصاف لأنفسهم؟؟ إنه الإسلام بلا ريب .. الإسلام أشعرهم بكرامتهم الإنسانية، وأفهمهم أن لهم حقوقاً يجب أن تُرعى، مثلما أن عليهم واجبات ينبغي أن تُؤدى، وعرفوا أن هذه المبادئ الإنسانية الجديدة ليست حبراً على ورق، ولا مجرد لافتات للدعاية، وإنما هي دين يجب أن يُحترم ويُنفذ.

فلا عجب أن قطع الرجل الفيافي، ليطالب بحقه ويسترد كرامته التي صانها له الإسلام.

وفي عهد أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه سقطت درع له فالتقطها نصراني، فعرفها عليّ معه، فقال: هذه درعي. ولكن الرجل أنكر وادعى أنها ملكه .. فلم يملك أمير المؤمنين إلا أن يقول للنصراني: بيني وبينك القضاء ، وذهبا إلى القاضي شُريح، وبعد سماع الخصمين طلب القاضي من الخليفة بيّنة على دعواه، أي شهوداً، فلم يكن عنده .. فما كان من القاضي إلا أن حكم للرجل النصراني بالدرع بحكم وضع يده عليه.

ودُهِش النصراني لهذا الحكم الذي لم يكن يتوقعه فقال: أشهد أن هذه أحكام أنبياء ، أمير المؤمنين يذهب معي إلى قاضيه فيحكم لي عليه، وهو يعلم أنه لا يكذب؟! أما إني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .. الدرع درعك يا أمير المؤمنين سقطت منك فأخذتها. قال: أما وقد أسلمت فهي لك !

أي نظام في الدنيا يُعامل رئيس الدولة كما يُعامِل واحداً من الرعية، غير الإسلام؟

* * *

• كيف كانت المساواة في أمم الحضارة عند ظهور الإسلام :

ولا يُقدِر قيمة المساواة في الإسلام حق قدرها ، إلا من اطلع على تاريخ الأمم عند ظهور الإسلام، وكيف كان التمييز والتفاوت بين الناس يأخذ أشكالاً حادة

تهون معها كرامة الإنسان، ونكتفي هنا ببلدين شهيرين في التاريخ هما فارس والهند.

ففي بلاد الفرس كانت الأكاسرة ملوك فارس يدّعون أنه يجري في عروقهم دم إلهي، وكان الفرس ينظرون إليهم كالآلهة ويعتقدون أن في طبيعتهم شيئاً علوياً مقدساً، فكانوا يُكَفرون لهم وينشدون الأناشيد بألوهيتهم ويرونهم فوق القانون وفوق الانتقاد وفوق البشر، لا يجري اسمهم على لسانهم، ولا يجلس أحد في مجلسهم، ويعتقدون أن لهم حقاً على كل إنسان وليس لإنسان حق عليهم.

وكذلك كان اعتقادهم في البيوتات الروحية والأشراف من قومهم فيرونهم فوق العامة في طينتهم، وفوق مستوى الناس في عقولهم ونفوسهم، ويعطونهم سلطة لا حد لها ويخضعون لهم خضوعاً كاملاً.

يقول البروفسور «ارتهرسين» مؤلف «تاريخ إيران في عهد الساسانيين»: كان المجتمع مؤسساً على اعتبار النسب والحرف، وكان بين طبقات المجتمع هوة واسعة لا يقوم عليها جسر ولا تصل بينها صلة، وكانت الحكومة تحظر على العامة أن يشتري أحد منهم عقاراً لأمير أو كبير. وكان من قواعد السياسة الساسانية أن يقنع كل واحد بمركزه الذي منحه نسبه، ولا يستشرف لما فوقه، ولم يكن لأحد أن يتخذ حرفة غير الحرفة التي خلقه الله لها. وكان ملوك إيران لا يولون وضيعاً وظيفة من وظائفهم، وكان العامة كذلك طبقات متميزة بعضها عن بعض تميزاً واضحاً. وكان لكل واحد مركز محدد في المجتمع.

وكان في هذا التفاوت بين طبقات الأمة امتهان للإنسانية، يظهر ذلك جَلياً في مجالس الأمراء والأشراف، حيث يقوم الناس على رؤوس الأمراء كأنهم جماد لا حراكِ بهم ويجلسون مزجر الكلب.

أما في الهند فيذكر العلامة السيد أبو الحسن الندوي: أنه لم يُعرف في تاريخ أمة من الأمم نظام طبقي أشد قسوة وأعظم فصلاً بين طبقة وطبقة وأشد استهانة بشرف الإنسان من النظام الذي اعترفت به الهند دينياً ومدنياً وخضعت

له آلافاً من السنين ولا تزال. فقبل ميلاد المسيح بثلاثة قرون ازدهرت في الهند الحضارة البرهمية ووُضِعَ فيها مرسوم جديد للمجتمع الهندي وألف فيه قانون مدني وسياسي اتفقت عليه البلاد وأصبح قانوناً رسمياً ومرجعاً دينياً في حياة البلاد ومدنيتها وهو المعروف الآن بـ«منوشاستر»، يقسم هذا القانون أهل البلاد إلى أربع طبقات متميزة وهي:

١- البراهمة: طبقة الكهنة ورجال الدين.

٢- شترى: رجال الحرب.

٣- ويش: رجال الزراعة والتجارة.

٤- شودر: رجال الخدمة.

ويقول «منو» مؤلف هذا القانون:

إن القادر المطلق قد خلق لمصلحة العالم «البراهمة» من فمه و« شترى » من سواعده و«ويش» من أفخاذه و«الشودر» من أرجله .. ووزّع لهم فرائض وواجبات لصلاح العالم. فعلى البراهمة تعليم «ويد» - الكتاب المقدس - أو تقديم النذور للآلهة وتعاطي الصدقات. وعلى «الشترى» حراسة الناس والتصدق وتقديم النذور ودراسة «ويد» والعزوف عن الشهوات .. وعلى «ويش» رعي السائمة والقيام بخدمتها وتلاوة «ويد» والتجارة والزراعة، وليس لـ «شودر» إلا خدمة هذه الطبقات الثلاث..

وقد منح هذا القانون طبقة البراهمة امتيازات وحقوقاً ألحقتهم بالآلهة، فقد قال: إن البراهمة هم صفوة الله وهم ملوك الخلق، وأن ما في العالم هو ملك لهم، فإنهم أفضل الخلائق وسادة الأرض ولهم أن يأخذوا من مال عبيدهم «شودر» -من غير جريرة- ما شاءوا، لأن العبد لا يملك شيئاً وكل ماله لسيده.

وإن البرهمي الذي يحفظ «رك ويد» - الكتاب المقدس - هو رجل مغفور له ولو أباد العوالم الثلاثة بذنوبه وأعماله، ولا يجوز للملك حتى في أشد ساعات الاضطراب والفاقة أن يجبي من البراهمة جباية أو يأخذ منهم أتاوة، ولا يصح

لبرهمي في بلاده أن يموت جوعاً، وإن استحق برهمي القتل لم يجز للحاكم إلا أن يحلق رأسه، أما غيره فيُقتل.

أما «الشترى» فإن كانوا فوق الطبقتين «ويش» و«شودر» ولكنهم دون البراهمة بكثير فيقول: «منو»: إن البرهمي الذي هو في العاشرة من عمره يفوق الشترى الذي ناهز مائة كما يفوق الوالد ولده.

أما «شودر» - المنبوذون - فكانوا في المجتمع الهندي - بنص هذا القانون المدني الديني - أحط من البهائم وأذل من الكلاب! فيُصَرِّح القانون بأن: من سعادة شودر أن يقوموا بخدمة البراهمة وليس لهم أجر وثواب بغير ذلك..

وليس لهم أن يقتنوا مالاً أو يدخروا كنزاً، فإن ذلك يؤذي البراهمة. وإذا مد أحد من المنبوذين إلى برهمي يداً أو عصاً ليبطش به قُطعت يده، وإذا رفسه في غضب قطعت رجله، وإذا هَمَّ أحدٌ من المنبوذين أن يجالس برهمياً فعلى الملك أن يكوى استه وينفيه من البلاد!! وأما إذا مسه بيد أو سبه فيقتلع لسانه، وإذا ادعى أن يعلمه سُقي زيتاً فائراً، وكفارة الكلب والقطة والضفدعة والوزغ والغراب والبومة ورجل من الطبقة المنبوذة سواء!

وقد نزلت النساء في هذا المجتمع منزلة الإماء، وكان الرجل قد يخسر امرأته في القمار، وكان في بعض الأحيان للمرأة عدة أزواج، فإذا مات زوجها صارت كالموءودة لا تتزوج، وتكون هدف الإهانات والتجريح، وكانت أمة بنت زوجها المتوفي وخادم الأحماء، وقد تحرق نفسها على إثر وفاة زوجها تفادياً من عذاب الحياة وشقاء الدنيا.

فليوازن المنصف بين هذا كله وبين ما جاء به الإسلام، ليعرف الفرق بين الظلمات والنور.

والمهم أن نعلم أن الإسلام نادى بالمساواة نظرياً، وطبقها عملياً، وأقام عليها مجتمعاً حطم كل الفوارق التي تُقيم الحواجز بين الناس، من عنصرية ولونية وإقليمية وطبقية، كما نرى ذلك واضحاً في صفحات الحضارة الإسلامية، وكما نرى ذلك إلى اليوم في مجتمعات المسلمين ، على ما فيها من انحراف عن حقيقة الإسلام.

لقد محا الإسلام من نفوس أبنائه عُقَد التمييز بين الأجناس والألوان والطبقات، التي سادت مجتمعات كثيرة، ولا زالت تسود مجتمعات أخرى إلى اليوم، إن ملايين المسلمين على امتداد القرون يقولون عن بلال العبد الأسود الذي اشتراه أبو بكر وأعتقه: سيدنا بلال رضي الله عنه، معتزين به ومفاخرين. حتى أن عمر ثالث رجل في الإسلام يقول عن أبي بكر: هو سيدنا وأعتق سيدنا، أي بلالاً.

أما الحضارة الغربية فقد أعلنت المساواة مبدءاً وفكرة، ولكنها عجزت عن تحقيقها في مجتمعاتها، ولا زالت مشكلة «التمييز العنصري» حية قائمة. نقرأ عنها ونسمع، إن لم نر ونشاهد -في جنوب إفريقيا وكذلك في الولايات المتحدة الأمريكية، التي فَرَّقت بين الأبيض والأسود حتى في مقام التعبد لله، فللبيض كنائسهم المستقلة، كما أن للسود كنائسهم الخاصة.

وقد حدث أن أخطأ رجل أسود فدخل كنيسة من كنائس البيض في يوم، وكان القسيس يعظ ويتحدث، فلمح هذا الوجه الغريب بين الحضور، فلم يملك إلا أن أخرج ورقة مطوية أرسلها إليه، فلما فتحها الرجل الأسود، وجد فيها : عنوان كنيسة السود في شارع كذا..!!

وفي روسيا أحب شاب إفريقي كان يدرس في موسكو فتاة شقراء وأحبته .. وغلا مرجل الغضب في صدور بعض الشباب السوفييتي، لا من أجل الحب، فهذا أمر مباح هناك، بل لانتهاك حرمة اللون .. وفي اليوم التالي وجُدت جثة الشاب الأسود ملقاة في الطريق .. واحتج الطلاب الأفارقة بصورة جماعية .. فقابلهم الطلاب الروس بمثلها وهم يقولون في بذاءة ووقاحة : عودوا إلى غاباتكم أيها القردة !!

إن روح الحضارة الغربية -ليبرالية كانت أو شيوعية- روح تمييز واستعلاء، وليست روح إخاء ولا مساواة.

* * *

الفصل الثالث

الشّمُوْلُ

«الشمول» من الخصائص التي تميز بها الإسلام عن كل ما عرفه الناس من الأديان والفلسفات والمذاهب، بكل ما تتضمنه كلمة «الشمول» من معان وأبعاد.

إنه شمول يستوعب الزمن كله ، ويستوعب الحياة كلها، ويستوعب كيان الإنسان كله.

لقد عبَّر الشهيد حسن البنا عن أبعاد هذا الشمول في رسالة الإسلام فقال وأجاد:

« إنها الرسالة التي امتدت طولاً حتى شملت آباد الزمن ..

وامتدت عرضاً حتى انتظمت آفاق الأمم ..

وامتدت عمقاً حتى استوعبت شئون الدنيا والآخرة »..

* * *

- رسالة الزمن كله:

إنها رسالة لكل الأزمنة والأجيال، ليست رسالة موقوتة بعصر معين أو زمن مخصوص، ينتهي أثرها بانتهائه ، كما كان الشأن في رسالات الأنبياء السابقين على محمد ﷺ فقد كان كل نبي يبعث لمرحلة زمنية محدودة، حتى إذا ما انقضت بَعَثَ الله نبياً آخر.

أما محمد ﷺ فهو خاتم النبيين، ورسالته هي رسالة الخلود التي قَدَّرَ الله بقاءها إلى أن تقوم الساعة ويُطوى بساط هذا العالم، فهي تتضمن هداية الله الأخيرة للبشرية. فليس بعد الإسلام شريعة، ولا بعد القرآن كتاب، ولا بعد محمد نبي. ولم يسبق لنبي قبل محمد ﷺ أن أعلن أن رسالته هي الخاتمة وأن لا نبي بعده. بل بَشَّرت التوراة بمن يأتي بعد موسى، وبَشَّرَ الإنجيل بمن يأتي بعد المسيح عيسى وهو «الفارقليط» الذي سيبين كل الحق: ولا يتكلم من عند نفسه.

إنها رسالة المستقبل المديد ولا شك، وهي أيضاً رسالة الماضي البعيد.

إنها - في جوهرها وأصولها الاعتقادية والأخلاقية - رسالة كل نبي أرسل، وكل كتاب أنزل، فالأنبياء جميعاً جاءوا بالإسلام، ونادوا بالتوحيد، واجتناب الطاغوت، وهذا ما يقرره القرآن في وضوح وتأكيد:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾[1] .

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾[2] .

كل الأنبياء أعلنوا أنهم مسلمون، ودعوا إلى الإسلام.

نوح قال: ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾[3] .

وإبراهيم وإسماعيل قالا: ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ﴾[4] .

ووصى إبراهيم بنيه ويعقوب فقالا: ﴿ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾[5] .

ويوسف دعا ربه فقال: ﴿ .. تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾[6] .

وموسى قال: ﴿ يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾[7] .

وسحرة فرعون حين آمنوا بموسى، قالوا: ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾[8] .

وسليمان بعث لبلقيس وقومها: ﴿ أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾[9] .

والحواريون قالوا لعيسى: ﴿ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[10] .

---

(١) الأنبياء: ٢٥ (٢) النحل: ٣٦. (٣) يونس: ٧٢.
(٤) البقرة: ١٢٨. (٥) البقرة: ١٣٢. (٦) يوسف: ١٠١.
(٧) يونس: ٨٤. (٨) الأعراف: ١٢٦. (٩) النمل: ٣١.
(١٠) آل عمران: ٥٢.

إنها إذن - في جوهرها - رسالة كل نبي جاء من عند الله منذ عهد نوح إلى محمد عليهم الصلاة والسلام. إنها رسالة الزمن .. كل الزمن.

* * *

• رسالة العالم كله :

وإذ كانت هذه الرسالة غير محددة بعصر ولا جيل - فهي كذلك غير محدودة بمكان ولا بأمة، ولا بشعب ولا بطبقة.

إنها الرسالة الشاملة، التي تخاطب كل الأمم، وكل الأجناس، وكل الشعوب، وكل الطبقات.

إنها ليست رسالة لشعب خاص، يزعم أنه وحده شعب الله المختار! وأن الناس جميعاً يجب أن يخضعوا له.

وليست رسالة لإقليم معين، يجب أن تدين له كل أقاليم الأرض، وتُجبي إليه ثمراتها وأرزاقها.

وليست رسالة لطبقة معينة مهمتها أن تُسَخِّر الطبقات الأخرى لخدمة مصالحها أو اتباع أهوائها، أو السير في ركابها، سواء أكانت هذه الطبقة المسيطرة من الأقوياء أم الضعفاء، من السادة أم من العبيد، من الأغنياء أم من الفقراء والصعاليك، إنها رسالتهم جميعاً. وليست لمصلحة طائفة منهم دون سواها. وليس فهمها ولا تفسيرها ولا الدعوة إليها حكراً على طبقة خاصة كما قد يتوهم كثير من الناس. إنها هداية رب الناس لكل الناس، ورحمة الله لكل عباد الله. وهذا ما وضحه القرآن منذ العهد المكي. نقرأ في ذلك: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلاَّ رَحْمَةً للعَالَمِينَ ﴾[1]. ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إنِّي رَسُولُ اللَّه إلَيْكُمْ جَميعاً ﴾[2] ﴿ تَبَارَكَ الَّذي نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذيراً ﴾[3]. ﴿ إنْ هُوَ إلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾[4].

---

(1) الأنبياء: ١٠٧ — (2) الأعراف: ١٥٨.
(3) الفرقان: ١ — (4) سورة ص: ٨٧

وقد زعم بعض المستشرقين أن محمداً ﷺ لم يكن يُعلن في أول أمره أنه مبعوث إلى الناس كافة، وإنما فعل ذلك بعد ما أتيح له الانتصار على قومه من العرب. ولكن الآيات التي ذكرناها تَرد عليهم. فكلها -لسوء حظهم- من سور القرآن المكية، ومثلها مما نزل من أوائل القرآن كثير.

* * *

• رسالة الإنسان كله :

وهي كذلك رسالة الإنسان من حيث هو إنسان متكامل.

إنهـا ليست رسالة لعقـل الإنسـان دون روحـه. ولا لروحه دون جسـمه، ولا لأفكاره دون عواطفه ، ولا عكس ذلك.

إنها رسالة الإنسان كله: روحه وعقله، وجسمه، وضميره، وإرادته ، ووجدانه. كما نبهنا على ذلك في «خصيصة الإنسانية».

إن الإسلام لم يشطر الإنسان شطرين، كما فعلت أديان أخر: شطر روحي يوجهه الدين، ويتجه به للمعبد، وهذا الشطر أو النصف من اختصاص رجال الدين (الكهنوت) يتحكم فيه الكاهن أو القسيس، ويقود الإنسان من خلاله. وشطر آخر مادي لا سلطان للدين ولا لرجاله عليه، ولا مكان لله فيه. إنه شطر للحياة، للدنيا، للسياسة، للمجتمع، للدولة، وهذا في الواقع هو الجزء الأكبر من حياة الإنسان.

تُرى هل يتفق هذا مع فطرة الإنسان وطبيعته كما خلقه الله ؟

كلا، فالإنسان -كما خلقه الله- ليس مجزءاً ولا مشطوراً. إنه «كل» متكامل. و«كيان» واحد، لا تنفصل فيه روح عن مادة، ولا مادة عن روح، ولا عقل عن عاطفة، ولا عاطفة عن عقل، إنه «وحدة» لا تتجزأ، من الجسم والروح والعقل والضمير.

فلهذا يجب أن تكون غايته واحدة، ووجهته واحدة، وطريقه واحداً وهذا ما صنعه الإسلام. فقد جعل الغاية الله ، والوجهة الآخرة.

وبهذا لا يتمزق الإنسان بين توجيهين مختلفين، أو سلطتين متناقضتين . هذه تُشَرِّق به وتلك تُغَرِّب. كالعبد الذي له أكثر من سيد، كل واحد يأمره بغير ما يأمر به الآخر، فهمه شعاع، وقلبه أوزاع كما ذكر القرآن الكريم في قوله: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ﴾[1] .

* * *

• رسالة الإنسان في أطوار حياته كلها:

إن الإسلام هو رسالة الإنسان كله، وهو رسالته كذلك في كل مراحل حياته ووجوده، فهذا مظهر آخر من مظاهر الشمول الإسلامي.

إنها هداية الله، تصحب الإنسان أنَّى اتجه وأنَّى سار في أطوار حياته. إنها تصحبه طفلاً، ويافعاً وشاباً وكهلاً وشيخاً. وترسم له في كل هذه المراحل المتعاقبة المنهج الأمثل التي يُحبه الله ويرضاه.

فلا عجب أن تجد في الإسلام أحكاماً وتعاليم تتعلق بالمولود منذ ساعة ميلاده مثل إماطة الأذى عنه، والتأذين في أذنه، واختيار اسم حسن له، وذبح عقيقة عنه شكراً لله. وغير ذلك مما ضمَّنه إمام كابن القيم كتاباً مستقلاً له سماه «تحفة المودود في أحكام المولود».

ونجد أحكاماً تتعلق بارضاع الرضيع ومدته وفصاله وفطامه، ومن يرضعه وعلى من تكون نفقة المرضعة أو أجرتها، وخصوصاً عند الطلاق وانفصال أم الرضيع عن أبيه. فهنا ينزل القرآن الكريم مُوَضِّحاً مُفَصِّلاً كل ذلك، فيقول: ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ، لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ، وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا، لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا، وَلا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ، وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ، فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا، وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمْ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[2] .

---

(١) الزمر: ٢٩ — (٢) البقرة: ٢٣٣

وبعد ذلك نجد أحكاماً تتعلق بالإنسان صبياً وشاباً وكهلاً وشيخاً، فلا توجد مرحلة من حياته إلا وللإسلام فيها توجيه وتشريع.

وأكثر من ذلك أنها تعنى بالإنسان قبل أن يولد، وبالإنسان بعد أ[illegible].

ولا غرو أن وجدنا في الإسلام أحكاماً تتعلق بالجنين، من حيث وجوب حمايته، والحرص على حياته واستمرار غذائه بمقدار كاف. ولهذا حرَّم الشرع الإجهاض، وقدَّر دِيَةً محددة تجب على من تسبب في إسقاط الجنين، وشرع للحامل أن تُفطر في رمضان إذا خافت على جنينها أن يقل غذاؤه، وتتأثر صحته. إلى غير ذلك من الأحكام التي تتعلق بالحمل وميراثه، وبالحامل ونفقتها مدة الحمل وإن كانت مطلقة: ﴿ وَإِنْ كُنَّ أولاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾[1] .

كما وجدنا في الإسلام أحكاماً أخرى تتعلق بالإنسان بعد موته: من وجوب تغسيله وتكفينه والصلاة عليه، ودفنه بكيفية خاصة، ومن شرعية التعزية فيه، والدعاء له، وتنفيذ وصاياه، وقضاء ديونه التي عليه للعباد أو لله تعالى. وغير ذلك مما يشمله كتاب «الجنائز» وغيره في الفقه الإسلامي.

* * *

• رسالة الإنسان في كل مجالات حياته:

ومن معاني الشمول في الإسلام أيضاً: أنه رسالة للإنسان في كل مجالات الحياة، وفي كل ميادين النشاط البشري. فلا يدع جانباً من جوانب الحياة الإنسانية إلا كان له فيه موقف: قد يتمثل في الإقرار والتأييد، أو في التصحيح والتعديل، أو في الإتمام والتكميل، أو في التغيير والتبديل، وقد يتدخل بالإرشاد والتوجيه، أو بالتشريع والتقنين، قد يسلك سبيل الموعظة الحسنة، وقد يتخذ أسلوب العقوبة الرادعة، كل في موضعه.

المهم هنا أنه لا يدع الإنسان وحده -بدون هداية الله- في أي طريق يسلكه،

---

(١) الطلاق. ٦

وفي أي نشاط يقوم به: مادياً كان أو روحياً، فردياً أو اجتماعياً، فكرياً أو عملياً، دينياً أو سياسياً، اقتصادياً أو أخلاقياً.

إن الإسلام - كما قال المرحوم العقاد - «هو العقيدة المثلى للإنسان منفرداً أو مجتمعاً ، وعاملاً لروحه أو عاملاً لجسده، وناظراً إلى دنياه أو ناظراً إلى آخرته ومسالماً أو محارباً، ومعطياً حق نفسه أو معطياً حق حاكمه وحكومته، فلا يكون مسلماً وهو يطلب الآخرة دون الدنيا، ولا يكون مسلماً وهو يطلب الدنيا دون الآخرة، ولا يكون مسلماً لأنه روح تنكر الجسد، أو لأنه جسد ينكر الروح، أو لأنه يصحب إسلامه في حالة ويدعه في حالة أخرى. ولكنما هو المسلم بعقيدته كلها مجتمعة لديه، في جميع حالاته، سواء تفرد وحده أو جمعته بالناس أواصر الاجتماع.

إن شمول العقيدة هي ظواهرها الفردية، وظواهرها الاجتماعية، هو المزية الخاصة في العقيدة الإسلامية، وهو المزية التي تُوحي إلى الإنسان أنه «كل» شامل فيستريح من «فصام» العقائد التي تشطر السريرة شطرين ثم تعيا بالجمع بين الشطرين على وفاق »[1] .

يريد الكاتب رحمه الله: أن بعض الديانات -كالمسيحية- ارتضت أن تقسم الحياة نصفين، نصف للدين تقوده الكنيسة، ونصف للدنيا تقوده الدولة كما ذكرنا من قبل.

وسند رجال المسيحية في ذلك ما حكاه إنجيلهم عن المسيح عليه السلام أنه قال لمن سأله عن قيصر قولته المشهورة: «أعط ما لقيصر لقيصر، وما لله لله».

ولكن الإسلام ينكر هذه القسمة للحياة ويرفضها لأمرين :

الأول : أن الإسلام يجعل الكون كله والخلق كلهم ملكاً لله ، وليس لقيصر فيه ذرة واحدة ، فقيصر إذن وما لقيصر لله الواحد القهار ، وفي هذا يقول القرآن : ﴿ ألا إنَّ للهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾[2] . ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ

---

(١) الإسلام في القرن العشرين للأستاذ عباس محمود العقاد فصل «قوة صامدة».
(٢) يونس: ٥٥

وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴾[١] . ﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً ﴾[٢] .

فلا يجوز في عقيدة الإسلام أن يخضع المسلم -مختاراً- لأمر قيصر وهو قادر على إخضاع قيصر لأمر الله، ولا يجوز أن يعطي ظاهره لقيصر وباطنه لله: ﴿ بَلْ لِلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعاً ﴾[٣] .

والثاني: أن الحياة بكل جوانبها كتلة واحدة، لا تقبل الانقسام والتفريق، إلا في الورق أو الرؤوس، أما في الواقع فالحياة كل لا يتجزأ، ولا ينفصل فيه دين عن دولة، ولا اقتصاد عن أخلاق، ولا فرد عن أسرة، ولا أسرة عن مجتمع.

ولهذا تحاول كل المذاهب الكبرى السيطرة على كل نواحي الحياة، وتوجيهها حسب فكرتها وعقيدتها، حتى الكنيسة نفسها في العصور الوسطى بأوروبا لم تطبق عملياً، ما جاء في الإنجيل نظرياً. وحاولت هي أن تأخذ مكان قيصر أو -على الأقل- تسيطر عليه، وتدير السياسة من خلاله.

* * *

• شمول التعاليم الإسلامية:

وإذا كان الإسلام هو رسالة الإنسان كله في كل أطواره، ورسالة الحياة كلها، بكل جوانبها ومجالاتها، فلا عجب أن نجد التعاليم الإسلامية كلها تتميز بهذا الشمول والاستيعاب لكل شئون الحياة والإنسان.

نجد هذا الشمول يتجلى في العقيدة والتصور، ويتجلى في العبادة والتقرب، ويتجلى في الأخلاق والفضائل، ويتجلى في التشريع والتنظيم.

* * *

• شمول العقيدة الإسلامية:

فالعقيدة الإسلامية عقيدة شاملة من أي جانب نظرت إليها.

---

(١) طه : ٦ (٢) آل عمران: ٨٣ (٣) الرعد: ٣١

(أ) فهي توصف بالشمول، باعتبار أنها تفسر كل القضايا الكبرى في هذا الوجود. القضايا التي شغلت الفكر الإنساني، ولا تزال تشغله، وتلح عليه بالسؤال، وتتطلب الجواب الحاسم الذي يخرج الإنسان من الضياع والشك والحيرة، وينتشله من متاهات الفلسفات والنحل المتضاربة قديماً وحديثاً: قضية الألوهية .. قضية الكون .. قضية الإنسان .. قضية النبوة .. قضية المصير.

فإذا كانت بعض العقائد تعني بقضية الإنسان دون قضية الألوهية والتوحيد، أو بقضية الألوهية دون قضية النبوة والرسالة، أو بقضية النبوة، دون قضية الجزاء الأخروي، فإن عقيدة الإسلام قد عنيت بهذه القضايا كلها، وقالت كلمتها فيها، بشمول واضح، ووضوح شامل.

(ب) وتوصف العقيدة الإسلامية بالشمول كذلك، لأنها لا تجزئ الإنسان بين إلهين اثنين: إله الخير والنور، وإله الشر والظلمة كما كان في المجوسية ، أو بين الله والشيطان الذي سمي في الأناجيل باسم «رئيس هذا العالم» واسم «إله هذا الدهر» وانقسم العالم بينه وبين الله، فله مملكة الدنيا، ولله ملكوت السموات. فيوشك أن يكون عمله في نظر المسيحية مضارعاً لعمل «اهريمان» إله الظلام في المجوسية»!(١).

إن الشيطان في نظر الإسلام، يمثل قوة الشر لا مراء، ولكنها قوة لا سلطان لها على ضمير الإنسان، إلا سلطان الوسوسة والإغراء والدعوة إلى الشر وتزيينه في الأنفس: فهذا مبلغ كيده وجهده، وهو كيد ضعيف أمام يقين المؤمنين المعتصمين بالله المتوكلين عليه.

يقول الله تعالى، على لسان الشيطان نفسه في مخاطبة من أغواهم: ﴿ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾(٢) .

ويقول سبحانه في مخاطبة الشيطان: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾(٣). ويقول: ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى

---

(١) انظر: حقائق الإسلام للعقاد ص١٠٣ ط أولى.
(٢) إبراهيم : ٢٢ (٣) الإسراء : ٦٥

رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾[1] ويقول: ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً ﴾[2].

(جـ) وتوصف العقيدة الإسلاميه بالشمول من ناحية أخرى، وهى: أنها لا تعتمد فى ثبوتها على الوجدان أو الشعور وحده، كما هو شأن الفلسفات الإشراقية والمذاهب الصوفية. وكما هو شأن المسيحية التى ترفض تدخل العقل فى العقيدة رفضاً باتاً، بحيث لا تؤخذ إلا بالتسليم المطلق، على حد قولهم: اعتقد وأنت أعمى.

وهى كذلك لا تعتمد على العقل وحده، كما هو شأن جل الفلسفات البشرية التى تتخذ العقل وسيلتها الفذة فى معرفة الله وحل ألغاز الوجود.

وإنما تعتمد على الفكر والشعور معاً أو العقل والقلب جميعاً، باعتبارهما أداتين متكاملتين من أدوات المعرفة الإنسانية، والوعى الإنسانى.

إن الإيمان الإسلامي الصحيح هو الذى ينبعث من ضياء العقل وحرارة القلب، وبذلك يؤدى دوره ويؤتى أكله فى الحياة.

(د) وتوصف العقيدة الإسلامية بالشمول أيضاً، لأنها عقيدة لا تقبل التجزئة، لابد ان تؤخذ كلها بكل محتوياتها دون إنكار، أو حتى شك فى أى جزء منها. فمن آمن بـ ٩٩٪ من مضمون هذه العقيدة، وكفر بـ ١٪ لم يعد بذلك مسلماً. فالإسلام يقتضى أن يسلم الانسان قياده كله لله، ويؤمن بكل ما جاء من عنده.

لا يجوز فى نظر العقيدة الإسلامية، أن يقول مسلم: أنا مؤمن بالقرآن الكريم فى شأن الشعائر والعبادات - مثلا - ولكن لا أومن بما جاء به فى شأن الأخلاق والآداب، أو يقول: آخذ من القرآن العبادة والأخلاق، ولكن لا أستمد النظام والتشريع. أو آخذ منه ذلك كله، ولكن لا أصدقه فى كل ما يرويه من أحداث التاريخ. أو أصدقه وأسلم له فى كل ما ذكرنا ولكن لا أعتقد بحقيقة ما جاء في وصف الآخرة، وحقيقة الجنة والنار.

---

(١) النحل : ٩٩-١٠٠ (٢) النساء : ٧٦

ومن ثم أنكر القرآن أشد الإنكار على بني إسرائيل إيمانهم ببعض الرسل دون بعض، وببعض الكتاب الإلهي دون بعض. يقول تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً ﴾[1] ويقول سبحانه: ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ، فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[2].

* * *

- شمول العبادة في الإسلام:

وتتمثل ظاهرة الشمول الإسلامي في عبادته كما تمثلت في عقيدته.

فالعبادة في الإسلام تستوعب الكيان البشري كله، فالمسلم لا يعبد الله بلسانه فحسب، أو ببدنه فقط، أو بقلبه لا غير، أو بعقله مجرداً، أو بحواسه وحدها. بل يعبد الله بهذه كلها: بلسانه ذاكراً داعياً تالياً، وببدنه مصلياً صائماً مجاهداً، وبقلبه خائفاً راجياً محباً متوكلاً، وبعقله متفكراً متأملاً، وبحواسه كلها مستعملاً لها في طاعته سبحانه.

إن عبادة كالصلاة تتجلى فيها عبادة اللسان بالتلاوة والتكبير والتسبيح والدعاء، وعبادة الجسم بالقيام والقعود، والركوع والسجود، وعبادة العقل بالتفكر والتأمل في معاني القرآن وأسرار الصلاة، وعبادة القلب بالخشوع والحب لله ، والشعور بمراقبة الله.

ومعنى آخر للشمول في العبادة، وهي أنها تتسع للحياة كلها، فلا تقتصر على الشعائر التعبدية المعروفة من صلاة وزكاة وصيام وحج، بل تشمل كل حركة وكل عمل ترتقي به الحياة ويسعد به الناس.

---

(١) النساء : ١٥٠ـ١٥١ (٢) البقرة : ٨٥

فالجهاد في سبيل الله ، دفاعاً عن الحق، وذوداً عن الحرمات، ومنعاً للفتنة، وإعلاء لكلمة الله .. عبادة لا تعدلها عبادة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: مر رجل من أصحاب رسول الله ﷺ بشعب فيه عيينة من ماء عذبة، فأعجبته، فقال: لو اعتزلت الناس، فأقمت في هذا الشعب! (يعني لأتعبد) ولن أفعل حتى أستأذن رسول الله ﷺ . فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «لا تفعل، فإن مقام أحدكم في سبيل الله تعالى، أفضل من صلاته في بيته سبعين عاماً! ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة؟ اغزوا في سبيل الله. من قاتل في سبيل الله فواق ناقة وجبت له الجنة»[1] .

وعنه أيضاً، قال: قيل: يا رسول الله، ما يعدل الجهاد في سبيل الله؟ قال: «لا تستطيعونه» فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثاً، كل ذلك يقول: «لا تستطيعونه». ثم قال: «مثل المجاهد في سبيل الله، كمثل الصائم القائم، لا يفتر من صلاة ولا صيام، حتى يرجع المجاهد في سبيل الله »[2] .

وكل عمل نافع يقوم به المسلم، لخدمة المجتمع، أو مساعدة أفراده. وخصوصاً الضعفاء وذوي العجز والفاقة منهم .. هو كذلك عبادة أي عبادة.

من ذلك ما جاءت به الأحاديث الكثيرة التي تحث على الصدقة كل يوم تطلع فيه الشمس. حتى جعلت إماطة الأذى عن الطريق صدقة، وحمل الرجل الضعيف على دابته صدقة، بل تبسمك في وجه أخيك صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وكل معروف صدقة.

ويدخل في دائرة العبادة: سعي الإنسان على معاشه ومعاش أسرته، ليغنيهم بالحلال، ويعفهم عن السؤال، فالرسول ﷺ قد اعتبر من فعل ذلك «في سبيل الله» أي في جهاد كجهاد الميدان وقتال أعداء الله.

---

(١) رواه الترمذي وقال: حديث حسن، والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم وأقره المنذري في الترغيب.

(٢) رواه البخاري ومسلم واللفظ له.

وأكثر من ذلك أنه جعل من وضع شهوته في حلال كان له بها أجر، ولما عجب الصحابة من ذلك، قال لهم النبي: «أليس لو وضعها في حرام كان عليه وزر»؟ قالوا: بلى. قال: «فكذلك لو وضعها في حلال كان له أجر، أتحتسبون بالشر، ولا تحتسبون بالخير»؟![1].

* * *

• شمول الأخلاق في الإسلام:

ويبرز الشمول كذلك في ميدان الأخلاق والفضائل. فالأخلاق الإسلامية ليست هي التي تُعرف عند بعض الناس بـ«الأخلاق الدينية» التي تتمثل في أداء الشعائر التعبدية، واجتناب أكل لحم الخنزير وشرب الخمر، ونحو ذلك لا غير. إنها أخلاق تسع الحياة بكل جوانبها، وكافة مجالاتها.

إن الأخلاق في الإسلام لم تدع جانباً من جوانب الحياة الإنسانية: روحية أو جسمية، دينية أو دنيوية، عقلية أو عاطفية، فردية أو اجتماعية، إلا رسمت له المنهج الأمثل للسلوك الرفيع. فما فرّقه الناس في مجال الأخلاق، باسم الدين وباسم الفلسفة، وباسم العرف أو المجتمع، قد ضمه قانون الأخلاق في الإسلام في تناسق وتكامل وزاد عليه.

١- إن من أخلاق الإسلام ما يتعلق بالفرد في كافة نواحيه:

(أ) جسماً له ضروراته وحاجاته. بمثل قوله تعالى: ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾[2]. وقول الرسول ﷺ: «إن لبدنك عليك حقاً»[3].

(ب) وعقلاً له مواهبه وآفاقه، يقول القرآن: ﴿ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾[4]، ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ، أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾[5].

---

(١) انظر في شمول العبادة كتابنا «العبادة في الإسلام» فصل «مجالات العبادة في الإسلام».
(٢) الأعراف: ٣١ (٣) رواه الشيخان.
(٤) يونس: ١٠١ (٥) سبأ: ٤٦

(جـ) ونفساً لها مشاعرها ودوافعها وأشواقها: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾[1] .

٢- ومن أخلاق الإسلام ما يتعلق بالأسرة :

(أ) كالعلاقة بين الزوجين: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالمَعْرُوفِ، فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً، وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً ﴾[2] .

(ب) وكالعلاقة بين الأبوين والأولاد: ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً ﴾[3] . ﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ، نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ، إِنَّ قَتْلَهُم كَانَ خِطْئاً كَبِيراً ﴾[4] .

(جـ) وكالعلاقة بين الأقارب والأرحام: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى ﴾[5] . ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ﴾[6] .

٣- ومن أخلاق الإسلام ما يتعلق بالمجتمع:

(أ) في آدابه ومجاملاته، مثل: ﴿ لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[7] .

(ب) وفي اقتصاده ومعاملاته: ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾[8] . ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ، وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ، وَلا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ﴾[9] .

(جـ) وفي سياسته وحكمه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾[10] .

---

(١) الشمس: ٩-١٠.
(٢) النساء: ١٩
(٣) الأحقاف: ١٥
(٤) الإسراء: ٣١
(٥) النحل: ٩٠.
(٦) الإسراء: ٢٦
(٧) النور: ٢٧
(٨) المطففين: ١-٣
(٩) البقرة: ٢٨٢
(١٠) النساء: ٥٨

٤- ومن أخلاق الإسلام، ما يتعلق بغير العقلاء من الحيوان والطير، كما في الحديث: «اتقوا الله في البهائم المعجمة، فاركبوها صالحة، وكلوها صالحة»، وفي الحديث الآخر: «في كل كبد رطبة أجر»[١] .

٥- ومن أخلاق الإسلام ما يتعلق بالكون الكبير :

من حيث أنه مجال التأمل والاعتبار والنظر والتفكر والاستدلال بما فيه من إبداع وإتقان، على وجود مبدعه وقدرته، وعلى علمه وحكمته كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ ﴾[٢] .

ومن حيث أنه مجال للانتفاع والاستمتاع بما أودع الله فيه من خيرات وما بث فيه من قوى مسخرة لمنفعة الإنسان، وما أسبغ فيه من نعم، تستوجب الشكر لواهبها والمنعم بها، كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾[٣] .
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ ﴾[٤] .

٦- وقبل ذلك كله وفوق ذلك كله ما يتعلق بحق الخالق العظيم الذي منه كل النعم وله كل الحمد: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾[٥] فهو وحده الحقيق بأن يُحمد الحمد كله، وأن تُرجى رحمته الواسعة. وأن يُخشى عقابه العادل يوم الجزاء. وهو وحده الذي يستحق أن يُعبد ويُستعان وأن تُطلب منه الهداية إلى الصراط المستقيم.

وبهذا، يتجلى شمول الأخلاق الإسلامية، من حيث موضوعها ومحتواها، ولكن الشمول في الأخلاق الإسلامية يبدو كذلك إذا نظرنا إلى نسلفتها ومصدر الإلزام بها.

---

(١) رواه البخاري.
(٢) آل عمران: ١٩٠ـ١٩١
(٣) لقمان: ٢٠
(٤) البقرة: ١٧٢
(٥) الفاتحة: ٢-٦

لقد شاء الله للإسلام أن يكون الرسالة العامة الخالدة، فهو هداية الله للناس كافة، من كل الأمم، وكل الطبقات، وكل الأفراد، وكل الأجيال. والناس تختلف مواهبهم وطاقاتهم الروحية والعقلية والوجدانية، وتتفاوت مطامحهم وآمالهم، ودرجات اهتمامهم. ولهذا جمعت الفكرة الأخلاقية في الإسلام ما فرّقته الطوائف الدينية، والمذاهب الفلسفية -مثالية وواقعية- في نظرتها إلى الأخلاق وتفسيرها لمصدر الإلزام الخُلقي، فلم يكن كل ما قالته هذه المذاهب والنظريات باطلاً، كما لم يكن كله حقاً. إنما كان عيب كل نظرية أنها نظرت من زاوية، وأغفلت أخرى، وهو أمر لازم لتفكير البشر، الذي يستحيل عليه أن ينظر في قضية ما نظراً يستوعب كل الأزمنة والأمكنة، وكل الأجناس والأشخاص، وكل الأحوال والجوانب، فهذا يحتاج إلى إحاطة إله عليم حكيم.

فلا غرو إذا كانت نظرة الإسلام، جامعة محيطة مستوعبة، لأنها ليست نظرية بشر، بل وحي من أحاط بكل شيء علماً، وأحصى كل شيء عدداً.

لهذا أودع الله في هذا الدين ما يشبع كل نهمة معتدلة، وما يقنع كل ذي وجهة، ويلائم كل تطور، فمن كان مثالياً ينزع إلى الخير لذات الخير، وجد في أخلاقية الإسلام ما يرضي مثاليته. ومن كان يؤمن بمقياس السعادة، وجد في الفكرة الإسلامية ما يحقق سعادته وسعادة المجموع معه، ومن كان يؤمن بمقياس المنفعة -فردية أو اجتماعية- وجد في الإسلام ما يرضي نفعيته، ومن كان يؤمن بالترقي إلى الكمال، وجد فيه ما يحقق طلبته، ومن كان همه التكيف مع المجتمع، وجد فيه ما يلائم اجتماعيته، حتى الذي يؤمن بأهمية اللذة الحسية يستطيع أن يجدها فيما أعد الله للمؤمنين في الجنة من نعيم مادي، ومتاع حسي: ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ ﴾[1] .

وبهذا تسمع كل أذن الأنشودة التي تحبها، وتجد كل نفس الأمنية التي تهفو إليها[2] .

* * *

---

(١) الزخرف: ٧١

(٢) انظر: كلمات في مبادئ علم الأخلاق لأستاذنا المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز.

- **شمول التشريع في الإسلام:**

والتشريع في الإسلام تشريع شامل كذلك.

إنه لا يشرع للفرد دون الأسرة، ولا للأسرة دون المجتمع، ولا للمجتمع منعزلاً عن غيره من المجتمعات.

إن تشريع الإسلام يشمل التشريع للفرد في تعبده وصلته بربه، وهذا ما يفصله قسم «العبادات» في الفقه الإسلامي، وهو ما لا يوجد في التشريعات الوضعية.

ويشمل التشريع للفرد في سلوكه الخاص والعام، وهذا يشمل ما يسمى «الحلال والحرام» أو الحظر والإباحة.

ويشمل التشريع ما يتعلق بأحوال الأسرة من زواج وطلاق ونفقات، ورضاع، وميراث، وولاية على النفس والمال ونحوها. وهذا يشمل ما يسمى في عصرنا «الأحوال الشخصية».

ويشمل التشريع للمجتمع في علاقاته المدنية والتجارية، وما يتصل بتبادل الأموال والمنافع، بعوض أو بغير عوض، من البيوع والإجارات والقروض والمداينات والرهن والحوالة والكفالة والضمان وغيرها. مما تتضمنه في عصرنا القوانين المدنية والتجارية.

ويشمل التشريع ما يتصل بالجرائم وعقوباتها المقدرة شرعاً كالحدود والقصاص، والمتروكة لتقدير أهل الشأن كالتعازير. وهذا يشمل ما يسمى الآن بـ«التشريع الجنائي» أو «الجزائي» وقوانين العقوبات.

ويشمل التشريع الإسلامي ما يتعلق بواجب الحكومة نحو المحكومين، وواجب المحكومين نحو الحكام، وتنظيم الصلة بين الطرفين، مما عنيت به كتب السياسة الشرعية والخراج، والأحكام السلطانية في الفقه الإسلامي، وتضمنه في عصرنا «التشريع الدستوري» أو «الإداري» و«المالي».

ويشمل التشريع الإسلامي ما ينظم العلاقات الدولية في السلم والحرب، بين المسلمين وغيرهم، مما عنيت به كتب «السير» أو «الجهاد» في فقهنا الإسلامي، وما ينظمه في عصرنا «القانون الدولي».

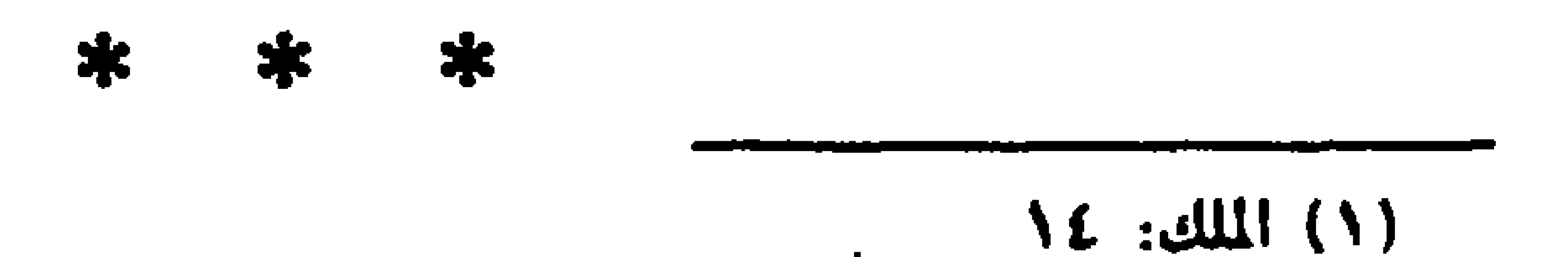
ومن هنا لا توجد ناحية من نواحي الحياة إلا دخل فيها التشريع الإسلامي آمراً أو ناهياً، أو مخيراً.

وحسبنا أن أطول آية نزلت في كتاب الله تعالى، نزلت في تنظيم شأن من الشئون المدنية، وهو المداينة، وكتابة الدين.

ويبدو شمول التشريع الإسلامي في أمر آخر، أو بُعد آخر، وهو النفاذ إلى أعماق المشكلات المختلفة، وما يؤثر فيها، وما يتأثر بها، والنظر إليها نظرة محيطة مستوعبة، مبنية على معرفة النفس الإنسانية، وحقيقة دوافعها وتطلعاتها وأشواقها، ومعرفة الحياة البشرية وتنوع احتياجاتها وتقلباتها، وربط التشريع بالقيم الدينية والأخلاقية، بحيث يكون التشريع في خدمتها وحمايتها، ولا يكون معولاً لهدمها.

ومن عرف هذا جيداً، استطاع أن يفهم موقف التشريع الإسلامي وروعته من قضايا كثيرة، كالطلاق وتعدد الزوجات، والميراث، والربا، والحدود والقصاص، وغيرها. مما أثبتت الدراسات المقارنة، وأثبت الاستقراء التاريخي والواقعي فضل الإسلام فيه وتفوقه على كل تشريع سابق أو لاحق.

إن عيب البشر الذي هو من لوازم ذواتهم المحدودة أنهم ينظرون إلى الأمور والأشياء من جانب واحد، غافلين عن جانب أو أكثر من جوانبها الأخرى. والحقيقة أنهم لا ذنب لهم في هذا القصور ولا حيلة، لأن النظرة المحيطة الشاملة، التي تستوعب الشيء من جميع جوانبه، وتعرف كل احتياجاته، وتدرك كل احتمالاته وتوقعاته، لا يقدر عليها إلا رب البشر وخالق الكون: ﴿ ألا


يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾[1] .

* * *

(١) الملك: ١٤

- **شمول الالتزام بالإسلام كله :**

هذا الشمول الذي تميز به الإسلام -بحيث استوعب الحياة كلها، والإنسان كله، في كل أطوار حياته، وفي كل مجالات حياته- يجب أن يقابله شمول مماثل من جانب التزام المسلمين: أعني الالتزام بهذا الإسلام كله في شموله وعمومه وسعته. فلا يجوز الأخذ بجانب من تعاليمه وأحكامه، وطرح جانب آخر، أو جوانب أخرى منها، قصداً أو إهمالاً، لأنها «كُلٌّ» لا يتجزأ.

وقد عاب القرآن الكريم على بني إسرائيل تجزئتهم أحكام دينهم تبعاً لأهوائهم، يأخذون منها ما راق لهم، ويدعون ما لم يرق لهم. فقرعهم الله أشد التقريع على ذلك فقال: ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ، فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ، فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾[١] .

فلا يجوز في نظر الإسلام أخذ جانب العقيدة والإيمان من تعاليمه، وإغفال جانب العبادة أو الأخلاق، كالذين قالوا: لا تضر مع الإيمان معصية، كما لا تنفع مع الكفر طاعة، فإن عمل الصالحات مكمل للإيمان، وسياج له، وثمرة لازمة للإيمان الصادق، كما بيّن ذلك القرآن والسنّة: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾[٢] .

ولا يجوز في نظر الإسلام العناية بالعبادات والشعائر، وإهمال جانب الأخلاق والفضائل، لأن الفضائل الأخلاقية، من شعب الإيمان الحق، وثمرة للعبادة الصحيحة: «الإيمان بضع وسبعون شعبة، والحياء شعبة من الإيمان»[٣] : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ، إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾[٤] . وفي الصحيح:

(١) البقرة: ٨٥ - ٨٦
(٢) الأنفال: ٢-٤
(٣) رواه البخاري.
(٤) العنكبوت: ٤٥

«آية المنافق ثلاث، وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم: إذا حدّثَ كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان».

ولا يجوز في نظر الإسلام كذلك الاهتمام بالجانب الأخلاقي، وإغفال الجانب التعبدي، فإن الناس إنما خلقوا ليعرفوا الله ويعبدوه: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾[1] . وإنما يُعبد الله تعالى بما شرع وفرض من شعائر وفرائض اعتبرها رسوله الأركان التي بُني عليها الإسلام. وأول خُلُقٌ يجب أن يتحلى به المسلم هو الوفاء لله بعهده، وشكر نعمته، وأداء أمانته، وذلك بأداء حقه الذي افترضه على عباده من صلاة وزكاة وصيام وحج: ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فإنَّ اللّهَ غَنيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾[2] .

ولا يجوز في نظر الإسلام الأخذ بكل ما ذكر من عقيدة وعبادة وأخلاق، مع إغفال جانب الشريعة التي نظم الله بها حياة الخلق، وأنزل بها الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط. فلا يحل لمن يؤمن بعدل الله تعالى، وكمال علمه وحكمته وبره بخلقه، أن يدع شرع الله عمداً، ليحكم بشرائع البشر الممثلة لقصورهم وأهوائهم، ولهذا حذر الله رسوله -وبالتالي كل حاكم من بعده- أن يدع: ﴿ بَعْضَ مَا أنْزَلَ اللّه ﴾ تأثراً بأهواء الآخرين وفتنتهم، فإن من ترك حكم الله سقط لا محالة في حكم الجاهلية ولا ثالث لهما. قال تعالى: ﴿ وأن احْكُمْ بَيْنَهُمْ بمَا أنْزَلَ اللّهُ ولا تَتّبِعْ أهْوَاءَهُمْ واحْذَرْهُمْ أنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أنْزَلَ اللّهُ إلَيْكَ، فَإنْ تَوَلَّواْ فَاعلَمْ أنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أنْ يُصيبَهُمْ ببَعْضِ ذُنُوبِهِمْ، وإنَّ كَثيراً منَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ * أفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ، وَمَنْ أحْسَنُ مِنَ اللّه حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[3] .

* * *

(١) الذاريات: ٥٦
(٢) آل عمران: ٩٧
(٣) المائدة: ٤٩ـ ٥٠

الفصل الرابع

الوَاسِطيَّة

وهذه خصيصة أخرى من أبرز خصائص الإسلام وهي «الوسطية» ويعبر عنها أيضاً بـ «التوازن» ونعني بها التوسط أو التعادل بين طرفين متقابلين أو متضادين، بحيث لا ينفرد أحدهما بالتأثير، ويطرد الطرف المقابل، وبحيث لا يأخذ أحد الطرفين أكثر من حقه، ويطغى على مقابله ويحيف عليه.

مثال الأطراف المتقابلة أو المتضادة: الروحية والمادية، والفردية والجماعية، والواقعية والمثالية، والثبات والتغير، وما شابهها، ومعنى التوازن بينها: أن يفسح لكل طرف منها مجاله، ويعطي حقه «بالقسط» أو «بالقسطاس المستقيم»، بلا وكس ولا شطط، ولا غلو ولا تقصير، ولا طغيان ولا إخسار. كما أشار إلى ذلك كتاب الله بقوله: ﴿ والسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * ألاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾[1].

* * *

- **عجز الإنسان عن إنشاء نظام متوازن:**

وهذا في الحقيقة أكبر من أن يقدر عليه الإنسان، بعقله المحدود، وعلمه القاصر، فضلاً عن تأثير ميوله ونزعاته الشخصية والأسرية والحزبية والإقليمية والعنصرية وغلبتها عليه من حيث يشعر أو لا يشعر.

ولهذا لا يخلو منهج أو نظام يصنعه بشر - فرد أو جماعة - من الإفراط أو التفريط. كما يدل على ذلك استقراء الواقع وقراءة التاريخ.

إن القادر على إعطاء كل شيء في الوجود -مادياً كان أو معنوياً- حقه بحساب وميزان، هو الله الذي خلق كل شيء فقدَّره تقديراً، وأحاط بكل شيء خبراً، وأحصى كل شيء عدداً، ووسع كل شيء رحمة وعلماً.

---

(١) الرحمن: ٧-٩

ولا عجب أن نرى هذا التوازن الدقيق في خلق الله، وفي أمر الله جميعاً، فهو صاحب الخلق والأمر. فظاهرة التوازن، تبدو فيما أمر الله به وشرعه من الهدى ودين الحق، أي في نظام الإسلام ومنهجه للحياة، كما تبدو في هذا الكون الذي أبدعته يد الله، فأتقنت فيه كل شيء.

* * *

• ظاهرة التوازن في الكون كله:

ننظر في هذا العالم من حولنا فنجد الليل والنهار، والظلام والنور، والحرارة والبرودة، والماء واليابس، والغازات المختلفة، كلها بقدر وميزان وحساب، لا يطغى شيء منها على مقابله، ولا يخرج عن حده المقدر له.

وكذلك الشمس والقمر والنجوم والمجموعات الكونية السابحة في فضاء الكون الفسيح، إن كلاً منها يسبح في مداره، ويدور في فلكه، دون أن يصدم غيره، أو يخرج عن دائرته. وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾[1] ، ﴿ مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ ﴾[2] ، ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ، وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[3] ، ﴿ اَلشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ * وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ * وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾[4] .

وقد لاحظ الأديب المعروف الأستاذ توفيق الحكيم هذه الظاهرة الكونية العامة: ظاهرة التوازن أو التعادل بين المتقابلات في شتى جوانب الكون والحياة. فبنى عليها نظريته في الأدب والفن والثقافة، وأطلق عليها عنوان «التعادلية».

فهو يتحدث عن الأرض التي يعيش عليها الإنسان مؤكداً أن أهم صفة للأرض أنها كرة تعيش بالتوازن والتعادل بينها وبين كرة أضخم هي الشمس.

---

(١) القمر: ٤٩ (٢) الملك: ٣
(٣) يس: ٤٠. (٤) الرحمن: ٥-٧

يقول: «.. فإذا اختل هذا التعادل ابتلعتها الشمس أو ضاعت في الفضاء .. التعادل إذن هو الحقيقة الأولى لحياة الأرض.

فهل صفة التعادل هي أيضاً الحقيقة الأولى في كيان الإنسان؟

فلننظر أولاً كيف يعيش الإنسان من حيث هو كائن مادي؟.. إنه يعيش طبعاً بالتنفس.

ما هو التنفس؟.. هو حركة تعادل بين الشهيق والزفير.

فإذا اختل هذا التعادل، بأن طال الشهيق أكثر مما ينبغي طاغياً على الزفير، أو امتد الزفير أكثر مما ينبغي جائراً على الشهيق، وقفت حياة الإنسان. فإذا تركنا التركيب المادي إلى التركيب الروحي، وجدنا عين القانون.

فالتركيب الروحي للإنسان له هو أيضاً شهيقه وزفيره فيما يمكن أن نسميه الفكر والشعور. أو بعبارة أخرى: العقل والقلب.

والحياة الروحية السليمة هي أيضاً تعادل بين الفكر والشعور.

وما يطلق عليه وصف الأمراض العقلية والعصبية ما هو إلا اختلال في هذا التعادل، إما بتضخم الشعور تضخماً يلغي إلى جانبه أو يعطل مهمة الفكر، فيرتد الإنسان طفلاً في أعوامه الأولى، وإما أن يطغى الفكر ويكبت الشعور، فترتبك أداة الإدراك في الإنسان..

فالإنسان إذن كائن متعادل مادياً وروحياً. وهو ليس وحده الذي ينطبق عليه هذا التعريف. كل الكائنات التي تحملها هذه الأرض المتعادلة هي أيضاً كأمها في تركيبها تعادلاً هو سر حياتها.

فالحيوان والنبات والجماد .. كلها تخضع لقانون «التعادل» في تركيبها البيولوجي والكيميائي والطبيعي. حتى في نظر العلم الحديث الذي غيَّر معتقدات القرن التاسع عشر، حول «المادة» وبين بنظرياته عن «المادة» و«المجال». أن ما نصفه بالمادة ليس سوى «الطاقة» مركزة تركيزاً شديداً.

كما أنه صاغ أيضاً القوانين الجديدة في مجال الجاذبية بين جزئيات المادة، والجاذبية هي أساس التعادل، لأن الجاذبية تعني وجود قوتين . والتعادل يعني المحافظة على بقاء القوتين، دون أن تتلاشى إحداهما في الأخرى»[١] .

والذي لاحظه الأستاذ الحكيم في الكون الصغير: الإنسان، والكون الكبير: العالم، من ظاهرة التعادل أو التوازن بين أجزائه، من الذرة إلى المجموعة الشمسية، والتي بنى عليها مذهبه في الأدب والفن - حقيقة لا ريب فيها، قد سبق القرآن بالإرشاد إليها، والتنبيه عليها، كما ذكرنا من قبل، وبنى على ذلك فلسفته ومنهجه للحياة كلها: مادية وروحية، فردية واجتماعية. وأعلن تميز أمته بهذه الخصيصة الكبيرة : الوسطية أو التوازن.

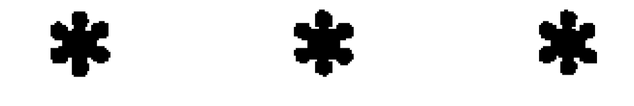
وإلى هذه الخصيصة البارزة يشير قوله تعالى مخاطباً أمة الإسلام: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾[٢] .

ووسطية الأمة الإسلامية إنما هي مستمدة من وسطية منهجها ونظامها، فهو منهج وسط لأمة وسط. منهج الاعتدال والتوازن الذي سلم من الإفراط والتفريط، أو من الغلو والتقصير.

* * *

• مزايا الوسطية وفوائدها:

ولقد كان من حكمة الله تعالى أن اختار الوسطية أو التوازن شعاراً مميزاً لهذه الأمة التي هي آخر الأمم، ولهذه الرسالة التي ختم بها الرسالات الإلهية، وبعث بها خاتم أنبيائه رسولاً للناس جميعاً، ورحمة للعالمين .



---

(١) «التعادلية» لتوفيق الحكيم. ص.١-١٢.
(٢) البقرة : ١٤٣

- **الوسطية أليق بالرسالة الخالدة:**

فقد يجوز في رسالة مرحلية محدودة الزمن والإطار أن تعالج بعض التطرف في قضية ما بتطرف مضاد، فإذا كان هناك مبالغة في الدعوة إلى الواقعية قُومَت بمبالغة مقابلة في الدعوة إلى المثالية، وإذا كان هناك غلو في النزعة المادية، رُدَّ عليها بغلو معاكس في النزعة إلى الروحية. كما رأينا ذلك في الديانة المسيحية وموقفها من النزعة المادية الواقعية عند اليهود والرومان. فإذا أدت الدعوة المرحلية دورها الموقوت، وحَدَّتْ من الغلو، ولو بغلو مثله، كان لابد من العودة إلى الحد الوسط، وإلى الصراط السوى، فتعتدل كفتا الميزان. وهذا ما جاءت به رسالة الإسلام بوصفها رسالة عالمية خالدة.

على أن في الوسطية معاني أخرى تميز منهج الإسلام وأمة الإسلام وتجعلهما أهلاً للسيادة والخلود.

(أ) الوسطية تعني العدل:

فمن معاني الوسطية التي وصفت بها الأمة في الآية الكريمة ورتبت عليها شهادتها على البشرية كلها: العدل، الذي هو ضرورة لقبول شهادة الشاهد، فما لم يكن عدلاً، فإن شهادته مردودة مرفوضة. أما الشاهد العدل والحاكم العدل فهو المرضي بين كافة الناس.

وتفسير الوسط في الآية بالعدل مروي عن النبي ﷺ : فقد روي الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ فسر الوسط هنا بالعدل[١] والعدل والتوسط والتوازن عبارات متقاربة المعنى، فالعدل في الحقيقة توسط بين الطرفين المتنازعين أو الأطراف المتنازعة دون ميل أو تحيز إلى أحدهما أو أحدها. وهو بعبارة أخري: موازنة بين هذه الأطراف بحيث يعطي كل منها حقه دون بخس ولا جور عليه. ومن ثم قال زهير في المدح:

همو وسط يرضي الأنام بحكمهم   إذا نزلت إحدى الليالي العظائم

يصفهم بالعدل والقسط وعدم التحيز.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص. ١٩٠ ط الحلبي.

وقال المفسرون في قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾[1] - أي: أعدلهم[2] . يؤكد هذا الإمام الرازي في تفسيره بقوله: إن أعدل بقاع الشيء وسطه، لأن حكمه مع سائر أطرافه على سواء. وعلى اعتدال[3].

ويقول المفسر أبو السعود: الوسط في الأصل اسم لما تستوي نسبة الجوانب إليه كمركز الدائرة، ثم استعير للخصال البشرية المحمودة، لكون تلك الخصال أوساطاً للخصال الذميمة المكتنفة بها من طرق الإفراط والتفريط[4] .

فالوسط يعني إذن العدل والاعتدال. وبعبارة أخرى: يعني التعادل والتوازن، بلا جنوح إلى الغلو ولا إلى التقصير.

(ب) الوسطية تعني الاستقامة:

والوسطية تعني كذلك: استقامة المنهج، والبعد عن الميل والانحراف. فالمنهج المستقيم، وبتعبير القرآن: ﴿ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ هو -كما عبَّر أحد المفسرين- الطريق السوي الواقع وسط الطرق الجائرة عن القصد إلى الجوانب، فإذا فرضنا خطوطاً كثيرة واصلة بين نقطتين متقابلتين، فالخط المستقيم إنما هو الخط الواقع في وسط تلك الخطوط المنحنية، ومن ضرورة كونه وسطاً بين الطرق الجائرة أن تكون الأمة المهدية إليه وسطاً بين الأمم السالكة إلى تلك الطرق الزائغة[5] ..

ومن هنا علّم الإسلام المسلم أن يسأل الله الهداية للصراط المستقيم كل يوم ما لا يقل عن سبع عشرة مرة، هي عدد ركعات الصلوات الخمس المفروضة في اليوم والليلة. وذلك حين يقرأ فاتحة الكتاب في صلاته فيقول داعياً ربه: ﴿ اهْدِنَا

---

(١) القلم: ٢٨

(٢) انظر تفسير الفخر الرازي جـ٤ ص١٠٨-١٠٩ المطبعة المصرية ١٣٥٤هـ (١٩٣٥م).

(٣) المصدر السابق.

(٤) تفسير أبي السعود جـ١ ص١٢٣ ط صبيح.

(٥) المصدر نفسه.

الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ ﴾[1] .

وقد مثَّل النبي ﷺ للمغضوب عليهم باليهود ، وللضالين بالنصارى ، ولا شك أن كلاً من اليهود والنصارى يمثلون الإفراط والتفريط في كثير من القضايا ، فاليهود قتلوا الأنبياء ، والنصارى ألَّهوهم. اليهود أسرفوا في التحريم ، والنصارى أسرفوا في الإباحة حتى قالوا: كل شيء طيب للطيبين .. اليهود غلوا في الجانب المادي ، والنصارى قصروا فيه.. اليهود تطرفوا في اعتبار الرسوم في الشعائر والتعبدات ، والنصارى تطرفوا في إلغائها.

والإسلام يعلم المسلم أن يحذر من تطرف كلا الفريقين ، وأن يلتزم المنهج الوسط ، أو الصراط المستقيم ، الذي سار عليه كل من رضي الله عنهم ، وأنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

(جـ) الوسطية دليل الخيرية :

والوسطية كذلك دليل الخيرية ، ومظهر الفضل والتمييز ، في الماديات والمعنويات. ففي الأمور المادية نرى أفضل حبات العقد واسطته ، ونرى رئيس القوم في الوسط والأتباع من حوله .. وفي الأمور المعنوية نجد التوسط دائماً خيراً من التطرف.

ولهذا قال العرب في حكمهم : «خير الأمور الوسط» ، وقال أرسطو: «الفضيلة وسط بين رذيلتين». ومن هنا قال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿ أُمَّةً وَسَطاً ﴾[2] . الوسط ههنا: الخيار والأجود. كما يقال: قريش أوسط العرب نسباً وداراً ، أي: خيرها ، وكان رسول الله ﷺ وسطاً في قومه ، أي: أشرفهم نسباً. ومنه : الصلاة الوسطى ، التي هي أفضل الصلوات[3] .

(د) الوسطية تمثل الأمان:

والوسطية تمثل منطقة الأمان ، والبعد عن الخطر ، فالأطراف عادة تتعرض للخطر والفساد ، بخلاف الوسط ، فهو محمي ومحروس بما حوله ، وفي هذا قال الشاعر:

---

(١) الفاتحة : ٦ـ٧ (٢) تفسير ابن كثير جـ١ ص.١٩. (٣) المصدر نفسه.

كانت هي الوسط المحمي فاكتنفت بها الحوادث حتى أصبحت طرفاً

وكذلك شأن النظام الوسط ، والأمة الوسط.

(هـ) الوسطية دليل القوة:

والوسطية دليل القوة ، فالوسط هو مركز القوة ، ألا ترى الشباب الذي يمثل مرحلة القوة وسطاً بين ضعف الطفولة وضعف الشيخوخة؟! والشمس في وسط النهار أقوى منها في أول النهار وآخره ؟!

(و) الوسطية مركز الوحدة:

والوسطية تمثل مركز الوحدة ونقطة التلاقي .. فعلى حين تتعدد الأطراف تعدداً قد لا يتناهى ، يبقى الوسط واحداً ، يمكن لكل الأطراف أن تلتقي عنده ، فهو المنتصف ، وهو المركز. وهذا واضح في الجانب المادي والجانب الفكري والمعنوي عن سواه.

ومركز الدائرة في وسطها يمكن لكل الخطوط الآتية من المحيط أن تلتقي عنده ، والفكرة الوسطى يمكن أن تلتقي بها الأفكار المتطرفة في نقطة ما هي نقطة التوازن والاعتدال. كما أن التعدد والاختلاف الفكري يكون حتمياً كلما وجد التطرف ، وتكون حدته وشدته بقدر حدة هذا التطرف. أما التوسط والاعتدال فهو طريق الوحدة الفكرية ومركزها ومنبعها. ولهذا تثير المذاهب والأفكار المتطرفة من الفرقة والخلاف بين أبناء الأمة الواحدة ما لا تثيره المذاهب المعتدلة في العادة.

* * *

• مظاهر الوسطية في الإسلام:

وإذا كان للوسطية كل هذه المزايا ، فلا عجب أن تتجلى واضحة في كل جوانب الإسلام ، نظرية وعملية ، تربوية وتشريعية.

فالإسلام وسط في الاعتقاد والتصور .. وسط في التعبد والتنسك .. وسط في الأخلاق والآداب .. وسط في التشريع والنظام.

- وسطية الإسلام في الاعتقاد:

(أ) فهو وسط في الاعتقاد بين الخرافيين الذين يسرفون في الاعتقاد فيصدقون بكل شيء ، ويؤمنون بغير برهان ، وبين الماديين الذين ينكرون كل ما وراء الحس ولا يستمعون لصوت الفطرة ، ولا نداء العقل، ولا صراخ المعجزة.

فالإسلام يدعو إلى الاعتقاد والإيمان ، ولكن بما قام عليه الدليل القطعي والبرهان اليقيني ، وما عدا ذلك يرفضه ويعده من الأوهام ، وشعاره دائماً: ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[1] .

(ب) وسط بين الملاحدة الذين لا يؤمنون بإله قط ، خانقين صوت الفطرة في صدورهم ، متحدين منطق العقل في رؤوسهم .. وبين الذين يعددون الآلهة حتى عبدوا الأغنام والأبقار ، وألّهوا الأوثان والأحجار!

فالإسلام يدعو إلى الإيمان بإله واحد لا شريك له ، لم يلد ولم يُولد ، ولم يكن له كفواً أحد. وكل من عداه وما عداه مخلوقات لا تملك ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً. فتأليهها شرك وظلم وضلال مبين: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴾[2] .

(جـ) وهو وسط بين الذين يعتبرون الكون هو الوجود الحق وحده ، وما عداه - مما لا تراه العين ولا تلمسه اليد - خرافة ووهم .. وبين الذين يعتبرون الكون وهماً لا حقيقة له ، وسراباً بقيعة يحسبه الظمآن ماءً ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً.

فالإسلام يعتبر وجود الكون حقيقة لا ريب فيها. ولكنه يعبر من هذه الحقيقة إلى حقيقة أكبر منها وهي: مَن كوّنه ونظّمه ودبّر أمره. وهو الله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي

---

(١) البقرة : ١١١ (٢) الأحقاف : ٥

الألباب * الَّذينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِياماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ في خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ ﴾[1] .

(د) وهو وسط بين الذين يؤلهون الإنسان ، ويُضفون عليه خصائص الربوبية ويعتبرونه إله نفسه ، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، وبين الذين جعلوه أسير جبرية اقتصادية أو اجتماعية أو دينية ، فهو كريشة في مهب الريح ، أو دمية يحرك خيوطها المجتمع ، أو الاقتصاد ، أو القدر.

فالإنسان في نظر الإسلام مخلوق مكلف مسئول ، سيد في الكون ، عبد لله ، قادر على تغيير ما حوله ، بقدر ما يغير ما بنفسه: ﴿ إنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾[2] .

(هـ) وهو وسط بين الذين يقدسون الأنبياء حتى رفعوهم إلى مرتبة الألوهية او البنوة للإله .. وبين الذين كذّبوهم واتهموهم. وصبوا عليهم كؤوس العذاب.

فالأنبياء بشر مثلنا ، يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ، ولكثير منهم أزواج وذرية ، وكل ما بينهم وبين غيرهم من فرق ، أن الله منّ عليهم بالوحي ، وأيدهم بالمعجزات: ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إنْ نَحْنُ إلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إلاَّ بِإذْنِ اللَّهِ ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾[3] .

(و) وهو وسط بين الذين يؤمنون بالعقل وحده مصدراً لمعرفة حقائق الوجود وبين الذين لا يؤمنون إلاَّ بالوحي والإلهام ، ولا يعترفون للعقل بدور في نفي أو إثبات.

فالإسلام يؤمن بالعقل ، ويدعوه للنظر والتفكير ، وينكر عليه الجمود والتقليد ويخاطبه بالأوامر والنواهي ، ويعتمد عليه في إثبات أعظم حقيقتين في الوجود ، وهما وجود الله تعالى[4] وصدق دعوى النبوة ، ولكنه يؤمن بالوحي ، مكملاً للعقل

---

(١) آل عمران: ١٩٠-١٩١ (٢) الرعد: ١١ (٣) إبراهيم: ١١

(٤) هذه الحقيقة الأولى والكبرى لم تثبت بطريق الوحي إلى رسول ، فإن الوحي والرسالة فرع عن ثبوت المُوحي والمرسِل وهو الله ، وإنما ثبتت هذه الحقيقة بضرورة العقل ، وغريزة الفطرة معاً.

ومعيناً له فيما تضل فيه العقول وتختلف ، وما تغلب عليه الأهواء ، وهادياً له إلى ما ليس من اختصاصه ولا هو في مقدوره ، من الغيبيات والسمعيات وطرائق التعبد لله تعالى.

- وسطية الإسلام في العبادات والشعائر:

والإسلام وسط في عباداته وشعائره بين الأديان والنحل التي ألغت الجانب «الرباني» -جانب العبادة والتنسك والتأله- من فلسفتها وواجباتها ، كالبوذية التي اقتصرت فروضها على الجانب الأخلاقي الإنساني وحده .. وبين الأديان والنحل التي طلبت من أتباعها التفرغ للعبادة والانقطاع عن الحياة والإنتاج ، كالرهبانية المسيحية.

فالإسلام يكلف المسلم أداء شعائر محدودة في اليوم كالصلاة ، أو في السنة كالصوم ، أو في العمر مرة كالحج ، ليظل دائماً موصولاً بالله ، غير مقطوع عن رضاه ، ثم يطلقه بعد ذلك ساعياً منتجاً ، يمشي في مناكب الأرض ، ويأكل من رزق الله.

ولعل أوضح دليل نذكره هنا الآيات الآمرة بصلاة الجمعة :

. ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[1] .

فهذا هو شأن المسلم مع الدين والحياة حتى في يوم الجمعة: بيع وعمل للدنيا قبل الصلاة ، ثم سعي إلى ذكر الله وإلى الصلاة وترك للبيع والشراء وما أشبهه من مشاغل الحياة. ثم انتشار في الأرض وابتغاء الرزق من جديد بعد انقضاء الصلاة ، مع عدم الغفلة عن ذكر الله كثيراً في كل حال ، فهو أساس الفلاح والنجاح.

---

(١) الجمعة: ٩ـ ١٠.

- وسطية الإسلام في الأخلاق:

(أ) والإسلام وسط في الأخلاق بين غلاة المثاليين الذين تخيلوا الإنسان ملاكاً أو شبه ملاك ، فوضعوا له من القيم والآداب ما لا يمكن له .. وبين غلاة الواقعيين ، الذين حسبوه حيواناً أو كالحيوان ، فأرادوا له من السلوك ما لا يليق به ، فأولئك أحسنوا الظن بالفطرة الإنسانية فاعتبروها خيراً محضاً ، وهؤلاء أساءوا بها الظن ، فعدوها شراً خالصاً ، وكانت نظرة الإسلام وسطاً بين أولئك وهؤلاء.

فالإنسان في نظر الإسلام مخلوق مركب فيه العقل ، وفيه الشهوة ، فيه غريزة الحيوان ، وروحانية الملاك ، قد هُدِيَ للنجدين ، وتهيأ بفطرته لسلوك السبيلين ، إما شاكراً وإما كفوراً. فيه استعداد للفجور استعداده للتقوى. ومهمته جهاد نفسه ورياضتها حتى تتزكى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾[1] .

(ب) وهو كذلك وسط في نظرته إلى حقيقة الإنسان بين النِّحَل والمذاهب التي تقوم على اعتباره روحاً علوياً سجن في جسد أرضي ، ولا يصفو هذا الروح ولا يسمو إلا بتعذيب هذا الجسد وحرمانه ، كالبرهمية وغيرها .. وبين المذاهب المادية التي تعتبر الإنسان جسداً محضاً ، وكياناً مادياً صرفاً ، لا يسكنه روح علوي ، ولا يختص بأي نغمة سماوية.

أما الإنسان في الإسلام فهو كيان روحي ومادي ، كما يشير إلى ذلك خلق الإنسان الأول آدم عليه عليه السلام ، فقد خلقه الله من تراب أو طين أو صلصال وكلها تومئ إلى الأصل المادي لبدن الإنسان ، ثم أودع الله في هذه المادة شيئاً آخر ، هو سر تميز الإنسان ، ومنبع كرامته ، وفيه يقول للملائكة : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾[2]

---

(١) الشمس: ٧-١٠.   (٢) الحجر: ٢٩

وما دام الإنسان مؤلفاً من الروح والبدن ، فإن لروحه عليه حقاً ، ولبدنه عليه حقاً.

(جـ) وهو وسط في النظرة إلى الحياة بين الذين أنكروا الآخرة ، واعتبروا هذه الحياة الدنيا هي كل شيء ، هي البداية والنهاية: ﴿ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾[1] وبهذا غرقوا في الشهوات ، وعبّدوا أنفسهم للماديات ولم يعرفوا لهم هدفاً يركضون وراءه غير المنافع الفردية الدنيوية العاجلة.. وهذا شأن الماديين في كل زمان ومكان .. وبين الذين رفضوا هذه الحياة ، وألغوا اعتبارها من وجودهم واعتبروها شراً يجب مقاومته والفرار منه ، فحرّموا على أنفسهم طيباتها وزينتها ، وفرضوا عليها العزلة عن أهلها ، والانقطاع عن عمارتها والإنتاج لها.

فالإسلام يعتبر الحياتين ، ويجمع بين الحسنيين ، ويجعل الدنيا مزرعة للآخرة ، ويرى العمل في عمارتها عبادة لله ، وأداء لرسالة الإنسان ، وينكر على غلاة المتدينين تحريم الزينة والطيبات ، كما ينكر على الآخرين انهماكهم في الترف والشهوات. يقول الله في كتابه: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ ﴾[2] . ويقول تعالى: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِد ، وكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا ، إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾[3] . ويذكر القرآن أن السعادة والحياة الطيبة في الدنيا من مثوبة الله لعباده المؤمنين فيقول: ﴿ فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ ، وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾[4] ويعلّم المؤمنين هذا الدعاء الجامع لحسنتي الدارين: ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾[5] .

* * *

(1) الأنعام : ٢٩ (2) محمد : ١٢ (3) الأعراف : ٣١-٣٢
(4) آل عمران : ١٤٨ (5) البقرة : ٢٠١

• التوازن بين الروحية والمادية:

ولا عجب أن نجد من أبرز مظاهر الوسطية أو التوازن في رسالة الإسلام: التوازن بين الروحية والمادية -أو بعبارة أخرى- بين الدين والدنيا.

(أ) لقد وجدت في التاريخ جماعات وأفراد ، كل همهم إشباع الجانب المادي في الإنسان ، وعمارة الجانب المادي في الحياة ، دون التفات إلى الجوانب الأخرى: ﴿ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾[1] .

وهذه النزعة المغالية في المادية وفي قيمة الدنيا ، جديرة بأن تولد الترف والطغيان ، والتكالب على متاع الحياة ، والغرور والاستكبار عند النعمة ، واليأس والقنوط عند الشدة.

نرى ذلك واضحاً فيما قصَّه الله علينا من مصارع الأفراد والأقوام الذين عاشوا للدنيا وحدها ، ولم يُلقوا للدين بالاً ، ولا للآخرة حساباً ، ولا للروح مكاناً.

فهذا صاحب الجنتين يفخر على صاحبه ، منتفخاً بثروته ، مختالاً بجنته ، قائلاً: ﴿ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴾[2] .

فأرسل الله على جنته حسباناً من السماء فأصبحت صعيداً زلقاً ، وأصبح ماؤها غوراً.

وهذا قارون ، الذي آتاه الله من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة. بغى على قومه ، واغتر بماله ، وعزا الفضل فيه إلى نفسه ، قال: ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ﴾[3] فخسف الله به وبداره الأرض.

وهذا فرعون الذي قال: ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي ، أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾[4] .

---

(1) الأنعام: ٢٩
(2) الكهف: ٣٤-٣٦
(3) القصص: ٧٨
(4) الزخرف: ٥١

وغير هؤلاء من الأمم التي أترفت في الحياة الدنيا فقتلها الترف ، ودمرها التحلل ، وحقت عليها كلمة العذاب ، وحُرمت نصر الله وعونه: ﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ * لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ ، إِنَّكُمْ مِنَّا لا تُنْصَرُونَ * قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ ﴾[1] . ﴿ وكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ * فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ * لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُم لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ ﴾[2] .

(ب) وفي الطرف المقابل لهذه النزعة وأصحابها ، وُجِدَ آخرون من الأفراد والجماعات ، نظروا إلى الدنيا نظرة احتقار وعداوة. فحرّموا على أنفسهم طيبات الحياة وزينتها ، وعطلوا قواهم من عمارتها ، والإسهام في تنميتها وترقيتها واكتشاف ما أودع الله فيها.

عُرِفَ ذلك في برهمية الهند ، ومانوية فارس ، وبدا ذلك بوضوح وجلاء في نظام الرهبانية الذي ابتدعه النصارى ، فعزلوا به جماهير غفيرة عن الحياة ، والتمتع بها ، والإنتاج فيها.

وأصبح الشائع في مفهوم الناس عن الدين والتدين الحق ، هو الانقطاع عن العالم ، والتفرغ للعبادة ، وأن المتدين الحق هو الذي يتبطل فلا يعمل ، ويتقشف فلا يتمتع ، ويتبتل فلا يتزوج ، ويتعبد فلا يفتر ، ليله قائم ، ونهاره صائم ، يده من الدنيا صفر ، وحظه من الحياة خبز الشعير ، ولبس المرقّع ، واتخاذ الفلوات داراً.

(جـ) وبين هاتين النزعتين قام الإسلام ، يدعو إلى التوازن والاعتدال فصحح مفهوم الناس عن حقيقة الإنسان ، وعن حقيقة الحياة.

فالإنسان مخلوق مزدوج الطبيعة ، يقوم كيانه على قبضة من طين الأرض ، ونفخة من روح الله ، ففيه عنصر أرضي ، يتمثل في جسمه الذي يطلب حظه مما خرج من الأرض من متاع وزينة. وفيه عنصر سماوي يتمثل في روحه التي تتطلع إلى هداها مما نزل من السماء.

---

(١) المؤمنون : ٦٤ - ٦٦ (٢) الأنبياء : ١١ - ١٣

وقد أشار القرآن إلى هذه الطبيعة المزدوجة في خلق الإنسان الأول: آدم أبي البشر ، فقال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾[1] .

وأشار إلى هذه الطبيعة نفسها في خلق ذرية آدم حيث قال: ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ ، قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ ﴾[2] .

وكان من حكمة الله سبحانه أن خلق الإنسان على هذه الطبيعة ، لأنها تتفق مع الرسالة التي كُلّف القيام بها ، وهي الخلافة في الأرض.

فهو -بعنصره الطيني المادي- قادر على أن يسعى في الأرض ويعمرها ويحسنها ، ويكتشف ما أودع الله فيها من كنوز ونعم ، ويسخر قواها المتنوعة بإذن الله - لمنفعته والنهوض بمهمته ، فالجسم المادي في الإنسان ليس إذن شراً ولا لعنة ، ولو كان الإنسان روحاً خالصاً كالملائكة ما وُجِدَتْ لديه الدوافع التي تحفزه على استخدام المادة والمشي في مناكب الأرض والكشف عن مكنونها ، والعمل على تعميرها.

وهو - بعنصره الروحي السماوي - مهيأ للتحلبق في أفق أعلى ، والتطلع إلى عالم أرقى ، وإلى حياة هي خير وأبقى ، وبهذا يُسَخِّر المادة ولا تُسَخِّره. ويستخدم ما على الأرض من ثروات وخيرات دون أن تستخدمه هي وتستعبده.

إن الأرض وما عليها خُلِقَتْ له ، أما هو فقد خُلِقَ لله: لعبادته ومعرفته وإحسان الصلة به.

والحياة ليست سجناً عُوقب الإنسان به ، ولا عبثاً فُرِضَ عليه حمله ، إنما هي نعمة يجب أن تُشكر ، ورسالة يجب أن تُؤدي ، ومزرعة لحياة أخرى هي خير وأبقى ، يجب ألا تشغل عنها ، ولا تحيف عليها.

---

(١) سورة ص: ٧١-٧٢

(٢) السجدة: ٧-٩

والقرآن الكريم يدعو إلى العمل للحياة ، والضرب في الأرض ، والمشي في مناكبها والاستمتاع بطيباتها ، بجوار الحث على الاستعداد للآخرة ، والتزود ليوم الحساب ، وذلك بالإيمان والعبادة وحسن الصلة بالله ، ودوام ذكره الذي تطمئن به القلوب.

يقول سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَات مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا ، إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً ، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾[1] .

ويقول تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وكُلُوا مِنْ رِزْقِه ، وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾[2] . ويقول: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّه وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[3] . ويقول: ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ ، وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ، وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ، وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ ، إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾[4] .

والرسول ﷺ كان يأكل من طيبات هذه الحياة ولا يُحَرِّمها على نفسه ، ولكنه لم يجعلها شغل نفسه ، ولا محور تفكيره ، وكان من دعائه: «اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ، ولا مبلغ علمنا »[5] .

وإنما كان يعطيها حقها ، وللآخرة حقها ، بالقسطاس المستقيم ، وكان من دعائه: «اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري ، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي ، وأصلح لي آخرتي التي إليها معدي ، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير ، واجعل الموت راحة لي من كل شر»[6] .

---

(١) المائدة: ٨٧ ـ ٨٨
(٢) الملك. ١٥
(٣) الجمعة: ١٠
(٤) القصص: ٧٧
(٥) رواه الترمذي عن ابن عمر وحسنه وأقره النووي ، ورواه النسائي أيضاً والحاكم وصححه على شرط البخاري.
(٦) رواه مسلم.

فهذا الدعاء النبوي المأثور ، يبين موقف المسلم من الدين والدنيا والآخرة ، إنه يطلبها جميعاً ، ويسأل الله أن يُصلحها له جميعاً ، الدين والدنيا والآخرة ، إذ لا غنى له عن واحد منها ، فالدين عصمة أمره ، وملاك حياته ، والدنيا فيها معاشه ، ومتاعه إلى حين ، والآخرة إليها معاده ومصيره.

وهو مثل الدعاء القرآني الموجز الذي كان ﷺ كثيراً ما يدعو به: ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾[1] .

وكان ﷺ حريصاً على توجيه أصحابه إلى التوازن المقسط بين دينهم ودنياهم ، بين حظ أنفسهم وحق ربهم ، بين متعة البدن ونعيم الروح. فإذا رأى بعضهم غلواً في جانب ، قوَّمه بالحكمة ورده إلى سواء الصراط.

ولما رأى في بعض أصحابه إفراطاً في التعبد والصيام والقيام ، على حساب جسمه وأهله ومجتمعه ، قال له: «إن لبدنك عليك حقاً ، وإن لزوجك عليك حقاً ، وإن لزورك - يعني زوارك وضيوفك - عليك حقاً ، فأعط كل ذي حق حقه»[2] .

وقال للجماعة الذين التزم أحدهم أن يصوم فلا يُفطر ، والتزم الثاني أن يقوم فلا ينام ، والتزم الثالث أن يعتزل النساء فلا يتزوج أبداً - قال لهم: «أما إني أخشاكم لله وأتقاكم له ، ولكني أصوم وأفطر ، وأقوم وأنام ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[3] .

وحين أقبل أبو عبيدة بمال من البحرين ، وأحس بعض الصحابة بقدومه فهرولوا مسرعين ، ينتظرون أن ينالهم شيء منه ، وبدا منهم الحرص على هذا المتاع الأدنى ، انتهزها النبي ﷺ فرصة ، ليحذرهم من فتنة الدنيا ، وغرورها ، والحرص على زخارفها ، فخطب فيهم قائلاً: «أبْشروا وأمِّلوا ، فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى أن تُبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم ، فتنافسوها كما تنافسوها ، فتهلككم كما أهلكتهم»[4] .

---

(١) البقرة: ٢٠١
(٢) رواه البخاري.
(٣) رواه البخاري.
(٤) رواه البخاري.

وهكذا تعلّم الصحابة أن يوازنوا بين مطالب دنياهم وآخرتهم ، وأن يعملوا للدنيا كأحسن ما يعمل أهل الدنيا ، ويعملوا للآخرة كأحسن ما يعمل أهل الآخرة ، يقول القائد الفاتح عمرو بن العاص رضي الله عنه: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً. واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً».

ولم يشعروا بتعارض قط بين عملهم لدينهم ، وعملهم لدنياهم ، بل شعروا بالوحدة والانسجام والامتزاج ، كانت شعائرهم وواجباتهم الدينية ، تعطيهم زاداً وشخصية قوية ، يواصلون بها الكفاح لدنياهم. وكانت أعمالهم الدنيوية ، عوناً لهم على أداء فرائضهم الدينية .. كانوا يعتقدون أنهم - في عبادتهم ومساجدهم- ليسوا مقطوعين عن الدنيا ، كما أنهم - في مزارعهم ومتاجرهم وحرفهم- غير بعيدين عن الدين ، فأعمالهم هذه عبادة إذا صحت فيها النية ، والتزمت حدود الله.

* * *

• وسطية الإسلام في التشريع:

والإسلام وسط كذلك في تشريعه ونظامه القانوني والاجتماعي.

فهو وسط في التحليل والتحريم بين اليهودية التي أسرفت في التحريم ، وكثرت فيها المحرمات ، مما حرّمه إسرائيل على نفسه ، ومما حرّمه الله على اليهود ، جزاء بغيهم وظلمهم كما قال الله تعالى: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيراً * وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ﴾[1] .

وبين المسيحية التي أسرفت في الإباحة ، حتى أحلّت الأشياء المنصوص على تحريمها في التوراة . مع أن الإنجيل يُعلن أن المسيح لم يجيء لينقض ناموس التوراة ، بل ليكمله. ومع هذا أعلن رجال المسيحية أن كل شيء طاهر للطاهرين.

---

(١) النساء: ١٦٠ ــ ١٦١

فالإسلام قد أحلّ وحرّم ، ولكنه لم يجعل التحليل ولا التحريم من حق بشر ، بل من حق الله وحده ، ولم يُحرِّم إلا الخبيث الضار ، كما لم يحل إلا الطيب النافع. ولهذا كان من أوصاف الرسول عند أهل الكتاب أنه : ﴿ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾(١) .

والتشريع الإسلامي وسط في شئون الأسرة ، كما هو وسط في شئونه كلها. وسط بين الذين شرعوا تعدد الزوجات بغير عدد ولا قيد ، وبين الذين رفضوه وأنكروه ولو اقتضته المصلحة وفرضته الضرورة والحاجة.

فقد شرع الإسلام هذا الزواج بشرط القدرة على الإحصان والإنفاق ، والثقة بالعدل بين الزوجتين ، فإن خاف ألا يعدل ، لزمه الاقتصار على واحدة. كما قال تعالى: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾(٢) .

وهو وسط في الطلاق بين الذين حرّموا الطلاق ، لأي سبب كان ، ولو استحالت الحياة الزوجية إلى جحيم لا يُطاق ، كالكاثوليك ، وقريب منهم الذين حرّموه إلا لعلة الزنا والخيانة الزوجية كالأرثوذكس .. وبين الذين أرخوا العنان في أمر الطلاق ، فلم يقيدوه بقيد ، أو شرط ، فمن طلب الطلاق من امرأة أو رجل كان أمره بيده ، وبذلك سهل هدم الحياة الزوجية بأوهى سبب ، وأصبح هذا الميثاق الغليظ أوهى من بيت العنكبوت.

إنما شرع الإسلام الطلاق ، عندما تفشل كل وسائل العلاج الأخرى ، ولا يجدي تحكيم ولا إصلاح . ومع هذا فهو أبغض الحلال إلى الله ، ويستطيع المُطلِّق مرة ومرة أن يراجع مطلقته ويعيدها إلى حظيرة الزوجية من جديد. كما قال تعالى:﴿ الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾(٣)

والإسلام وسط في تشريعه ونظامه الاجتماعي بين «الليبراليين» أو «الرأسماليين» الذين يدللون الفرد على حساب المجتمع ، بكثرة ما يُعْطَى له

---

(١) الأعراف: ١٥٧ (٢) النساء: ٣ (٣) البقرة: ٢٢٩

من حقوق يطالب بها ، وقلة ما يُفْرَض عليه من واجبات يُسئل عنها. فهو دائماً يقول: لي ، وقلّما يقول: علي .. وبين الماركسيين والجماعيين الذين يضخمون دور المجتمع ، بالضغط على الفرد ، والتقليل من حقوقه ، والحجر على حريته ، ومصادرة نوازعه الذاتية.

* * *

• التوازن بين الفردية والجماعية :

وفي النظام الإسلامى تلتقى الفردية والجماعية فى صورة متزنة رائعة. تتوازن فيها حرية الفرد ومصلحة الجماعة ، وتتكافأ فيها الحقوق والواجبات ، وتتوزع فيها المغانم والتبعات بالقسطاس المستقيم.

لقد تخبطت الفلسفات والمذاهب من قديم ، فى قضية الفرد والمجتمع والعلاقة بينهما: هل الفرد هو الأصل والمجتمع طارىء مفروض عليه ، لأن المجتمع إنما يتكون من الأفراد؟ أم المجتمع هو الأساس والفرد نافلة ، لأن الفرد بدون المجتمع مادة غفل (خام) والمجتمع هو الذى يُشكلها ويُعطيها صورتها ، فالمجتمع هو الذى يُورث الفرد ثقافته رآدابه وعاداته وغير ذلك؟

من الناس من جنح إلى هذا ، ومنهم من مال إلى ذاك ، وامتد الخلاف بين الفلاسفه والمشرعين والاجتماعيين والاقتصاديين والسياسيين فى هذه القضية ، فلم يصلوا إلى نتيجة.

كان «أرسطو» يؤمن بفردية الإنسان ، ويحبذ النظام الذى يقوم على الفردية ، وكان أستاذه «أفلاطون» يؤمن بالجماعية - الاشتراكية - كما يتضح ذلك فى كتابه «الجمهورية».

وبهذا لم تستطع الفلسفة الإغريقية - أشهر الفلسفات البشرية القديمة - أن تحل هذه العقدة ، وأن تُخرج الناس من هذه الحيرة ، كشأن الفلسفة دائماً فى كل القضايا الكبيرة ، تعطي الرأى وضده ، ولا يكاد أقطابها يتفقون على حقيقة ، حتى قال أحد أساتذتها: الفلسفة لا رأي لها !!

وفى فارس ظهر مذهبان متناقضان: أحدهما فردى يدعو إلى التقشف والزهد ، والامتناع عن الزواج ، ليعجل الانسان بفناء العالم ، الذى يعج بالشرور والآلام ، وهذا هو مذهب «مانى» ويمثل أقصى الفردية.

وقام فى مقابله مذهب آخر يمثل أقصى «الجماعية» وهو مذهب «مزدك» الذى دعا إلى شيوعية الأموال والنساء ، وتبعه كثير من الغوغاء ، الذين عاثوا فى الأرض فساداً ، وضجت منهم البلاد والعباد.

وقد جاءت الأديان السماوية لتقيم التوازن فى الحياة ، والقسط بين الناس ، كما قرر ذلك القرآن الكريم[1] ، ولكن أتباعها سرعان ما حرّفوها وبدّلوا كلمات الله ، ففقدت بذلك وظيفتها فى الحياة ، حين فقدت مزيتها الأولى وهى: ربانية المصدر.

لهذا ، لم تُقَدِّم الأديان السابقة قبل الإسلام حلاً لهذه المشكلة ، فقد كان اليهود الذين تفرّقوا فى الأرض يؤيدون الفردية ، بتفكيرهم القائم على الأنانية: ﴿ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ﴾[2] كما سجل عليهم القرآن العزيز.

وجاءت المسيحية أيضاً تهتم بنجاة الفرد قبل كل شيء ، تاركة شأن المجتمع لقيصر ، أو على الأقل ، هذا ما يفهم من ظاهر ما يحكيه الإنجيل عن المسيح. حين قال: «أعط ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله » !!

وإذا طوينا كتاب التاريخ وتأملنا صفحات الواقع ، فماذا نرى؟

إن عالمنا اليوم يقوم فيه صراع ضخم بين المذهب الفردي ، والمذهب الجماعي. فالرأسمالية تقوم على تقديس الفردية ، واعتبار الفرد هو المحور الأساسي ، فهي تدلله بإعطاء الحقوق الكثيرة ، التي تكاد تكون مطلقة ، فله حرية التملك ، وحرية القول ، وحرية التصرف ، وحرية التمتع ، ولو أدت هذه الحريات إلى إضرار نفسه ،

---

(١) في قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾. (الحديد: ٢٥).

(٢) النساء: ١٦١

وإضرار غيره ، ما دام يستعمل حقه في «الحرية الشخصية» فهو يتملك المال بالاحتكار والحيل والربا ، وينفقه في اللهو والخمر والفجور ، ويمسكه عن الفقراء والمساكين والمعوزين ، ولا سلطان لأحد عليه ، لأنه «هو حر».

والمذاهب الاشتراكية - وبخاصة المتطرفة منها كالماركسية - تقوم على الحط من قيمة الفرد والتقليل من حقوقه ، والإكثار من واجباته ، واعتبار المجتمع هو الغاية ، وهو الأصل. وما الأفراد إلا أجزاء أو تروس صغيرة في تلك «الآلة» الجبارة ، التي هي المجتمع ، والمجتمع في الحقيقة هو الدولة ، والدولة في الحقيقة هي الحزب الحاكم ، وإن شئت قلت: هي اللجنة العليا للحزب ، وربما كانت هي زعيم الحزب فحسب ، هي الدكتاتور!!

إن الفرد ليس له حق التملك إلا في بعض الأمتعة ، والمنقولات ، وليس له حق المعارضة ، ولا حق التوجيه لسياسة بلده وأمته ، وإذا حدثته نفسه بالنقد العلني أو الخفي ، فإن السجون والمنافي وحبال المشانق له بالمرصاد!

ذلك هو شأن فلسفات البشر ومذاهب البشر ، والديانات التي حرفّها البشر ، وموقفها من الفردية والجماعية ، فماذا كان موقف الإسلام؟

لقد كان موقفه فريداً حقاً ، لم يمل مع هؤلاء ولا هؤلاء ، ولم يتطرف إلى اليمين ولا إلى اليسار.

إن شارع هذا الإسلام هو خالق هذا الإنسان ، فمن المحال أن يُشَرِّع هذا الخالق من الأحكام والنظم ما يعطل فطرة الإنسان أو يصادمها. وقد خلقه سبحانه على طبيعة مزدوجة: فردية واجتماعية في آن واحد. فالفردية جزء أصيل في كيانه. ولهذا يحب ذاته ، ويميل إلى إثباتها وإبرازها ، ويرغب في الاستقلال بشئونه الخاصة.

ومع هذا نرى فيه نزعة فطرية إلى الاجتماع بغيره ، ولهذا عد السجن الانفرادي عقوبة قاسية للإنسان ، ولو كان يتمتع داخله بما لذ وطاب من الطعام والشراب.

والنظام الصالح هو الذي يراعي هذين الجانبين: الفردية والجماعية ، ولا يطغى

أحدهما على الآخر. فلا عجب أن جاء الإسلام -وهو دين الفطرة- نظاماً وسطاً عدلاً، لا يجور على الفرد لحساب المجتمع، ولا يحيف على المجتمع من أجل الفرد. لا يدلل الفرد بكثرة الحقوق التي تُمنح له، ولا يرهقه بكثرة الواجبات التي تُلقى عليه. وإنما يكلفه من الواجبات في حدود وسعه، دون حرج ولا إعنات، ويُقرر له من الحقوق ما يكافئ واجباته، ويلبي حاجته، ويحفظ كرامته، ويصون إنسانيته.

١- من هنا قرر الإسلام حُرمة الدم، فحفظ للفرد «حق الحياة» وأعلن القرآن أن: ﴿ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً، وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً ﴾[١].

وأوجبت الشريعة في قتل العمد القصاص، إلا أن يعفو أولياء المقتول، أو يقبلوا بدلاً، وأوجبت في قتل الخطأ الدية والكفارة.

٢- وقرر حرمة العِرض، فصان للفرد «حق الكرامة» فلا يجوز أن يُهان في حضرته، أو يُؤذى في غيبته، بأي كلمة أو إشارة تسوؤه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ ﴾[٢]. ﴿ وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً، أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً ﴾[٣].

٣- وقرر حُرمة المال، فصان للفرد «حق التملك» فلا يحل أخذ ماله إلا بطيب نفس منه، ولا يجوز للدولة، ولا لفرد آخر نهب ماله وأخذه بغير حق. قال النبي ﷺ في حجة الوداع: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا»[٤].

٤- وقرر حُرمة البيت، فصان بذلك للفرد «حق الاستقلال الشخصي»،

---

(١) المائدة: ٣٢
(٢) الحجرات: ١١
(٣) الحجرات: ١٢
(٤) رواه مسلم.

فلا يجوز لأحد أن يتجسس عليه أو يقتحم عليه بيته بغير إذنه ، قال تعالى: ﴿ لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بيُوتكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ﴾[1] وقال : ﴿ وَلا تَجَسَّسُوا ﴾[2] .

٥- وقرر للفرد «حرية الاعتقاد» فلا يجوز أن يُكْرَه على ترك دينه ، واعتناق دين آخر: ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ، قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾[3] ﴿ أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾[4] .

٦- وقرر للفرد «حرية النقد» فمن حق كل فرد أن يعارض ما يراه من عوج ، وما يلاحظه من تقصير ، بل من واجبه ذلك إذا لم يقم غيره به ، وهو ما سمّاه الإسلام «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر».

٧- وقرر «حرية الرأي والفكر» فمن حق كل إنسان ، بل من واجبه أن يفكر وينظر. فقد أمر الإسلام الناس أن يتفكروا. وما دام التفكير حقاً -أو واجباً- لكل البشر ، فمن حق كل مفكر أن يخطئ ، ولا لوم عليه في ذلك. إن الإسلام لا يحرم المجتهد من المثوبة والأجر ، وإن أخطأ إصابة الحقيقة. ففي الحديث: «المجتهد إذا أخطأ فله أجر ، وإن أصاب فله أجران»[5] .

وليس في الدنيا دين ولا نظام يشجع على استعمال الفكر ويرحب بنتائجه -أياً كانت- مثل هذا الإسلام ، الذي يُثيب على الاجتهاد الخطأ.

ثم تتعايش هذه الأفكار والاجتهادات المختلفة جنباً إلى جنب ، دون ضيق ولا تبرم ، كما رأينا ذلك في عهد الصحابة ومن تبعهم بإحسان.

وفي ظل هذه الحرية الفكرية ظهرت المدارس والمشارب المختلفة : في الفقه والتفسير والكلام وغيرها ، من غير نكير ، إلا ما توجبه المناقشة العلمية.

٨- وقرر الإسلام «المسئولية الفردية». وأكدها تأكيداً بليغاً في كتابه فقال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾[6] . ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾[7] . ﴿ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾[8]

---

(١) النور: ٢٧ (٢) الحجرات: ١٢ (٣) البقرة: ٢٥٦
(٤) يونس: ٩٩ (٥) متفق عليه. (٦) المدثر: ٣٨
(٧) البقرة: ٢٨٦ (٨) الإسراء: ١٥

وهذه الآيات تطبق على الإنسان في الدنيا وفي الآخرة ، فهو في الحياتين لا يحمل وزر غيره.

ومع هذه الحقوق والحريات التي منحها الإسلام للفرد ، فقد فرض عليه للمجتمع واجبات تكافئها ، وقيد هذه الحقوق والحريات الفردية ، بأن تكون في حدود مصلحة الجماعة ، وألا يكون فيها مضرة للغير ، وليس للفرد أن يستخدم حقه فيما يؤذي الجماعة ويضرها ، إذ لا ضرر ولا ضرار في الإسلام ، أي لا يضر الإنسان نفسه ولا يضار غيره. كما أن حق الفرد إذا تعارض مع حقوق الجماعة ، فإن حق الجماعة أولى بالتقديم.

(أ) فالحياة التي صانها الإسلام للفرد ، إذا اقتضى المجتمع المسلم بذلها لحمايته وجب عليه أن يقدمها راضي النفس ، قرير العين ، معتقداً أن الموت هنا هو عين الحياة ، وكذلك إذا اعتدى على حق نفس أخرى كقاتل العمد ، أو على حق المجتمع في الأمن والاستقرار ، كقاطع الطريق ، أو خرج على دينه وفارق الجماعة كالمرتد - فقدت حياته ما لها من عصمة.

(ب) وحق التملك مقيد بأن يأخذ المال من حِلِّه ، وينفقه من محله ، ولا يبخل به إذا طلبته الجماعة ، فملكية الفرد للمال ليست مطلقة كما ينادي أنصار «المذهب الحر» بل هي مقيدة بحدود الله وحقوق المجتمع ، حتى أن انتزاع هذا الملك من صاحبه يجوز للمصلحة العامة. على أن يُعَوَّض عنه ثمن المثل ، ذلك أن المال مال الله ، وهو مستخلف فيه ، وبعبارة أخرى: هو وكيل الجماعة في رعايته وتثميره وإنفاقه ، فإذا أساء التصرف في المال ، كان من حق الجماعة أن تغل يده ، وتحجر عليه ، كما أن للجماعة عليه حقوقاً في هذا المال ، بعضها دوري ثابت كالزكاة بأنواعها ، وبعضها غير دوري ، كما في الحديث: «إن في المال حقاً سوى الزكاة»[1] وبعضها يفرضه ولي الأمر عند الحاجة.

---

(١) رواه الترمذي وابن ماجه.

(جـ) والحريات والحقوق كلها مقيدة برعاية أخلاق المجتمع وعقائده ومُثُله العليا ، فليس معنى حرية الاعتقاد أو الرأي ، إباحة الطعن على الإسلام وأهله ، وإذاعة الكفر بالله ورسوله وكتابه ، والتشكيك في القيم العليا ، ونشر الخلاعة والفجور ، فإن حرية الإفساد لا يقرها عقل ولا شرع.

(د) ومع المسئولية الفردية التي أكدها الإسلام ، نراه قد أكد كذلك مسئولية الفرد عن الجماعة ، فكل فرد في المجتمع المسلم راع في مجال من المجالات ، كما في الحديث الصحيح: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»[1] فكما أن الإمام راع مسئول عن الأمة فإن الرجل في بيته راع مسئول عن الأسرة. والمرأة راعية في بيت زوجها ، والخادم راع في مال مخدومه ، وكل على ثغرة من ثغر الإسلام ، فلا يجوز له إهمالها .. وفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، تقتضي مسئولية المسلم عن المجتمع ، وتوجب عليه مراقبة أحواله ، وتقويم عوجه إن اعوجّ بكل ما استطاع ، بيده أولاً ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان.

إن النصيحة لكافة المسلمين خاصتهم وعامتهم ، ركن ركين من الإسلام ، ومن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم.

وليس لمسلم أن يعتزل الحياة والناس ويقول: نفسي نفسي! ويدع نار الفساد تلتهم الأخضر واليابس من حوله ، فإن هذه النار إذا تُركت وشأنها ، لم تلبث أن تحرقه هو ، وتحرق كل ما يحرص عليه. ولهذا يقول القرآن: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾[2] وفي الحديث: «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده».

(هـ) ومن معاني الجماعة في الإسلام ما عُرف في الشريعة باسم «فروض الكفاية» فكل علم أو صناعة أو حرفة أو نظام أو مؤسسة ، تحتاج إليها الجماعة

---

(١) متفق عليه من حديث ابن عمر. (٢) الأنفال: ٢٥

المسلمة في دينها أو دنياها ، فتحقيقها فرض كفاية على المسلمين ، على معنى أنه إذا قام بها عدد كاف فقد ارتفع الحرج ، وسقط الإثم عن باقي الجماعة ، إلا أثمت الجماعة كلها ، واستحقت عقوبة الله.

(و) والمسلمون مسئولون مسئولية تضامنية عن تنفيذ شريعة الإسلام ، وإقامة حدوده ، ومن هنا كان خطاب التكليف في القرآن إلى الجماعة. وتكرر قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾[1] بهذه الصيغة الجماعية ليؤكد وجوب التكافل بين الجماعة في تنفيذ ما أمر الله به ، واجتناب ما نهى عنه. خوطبت الجماعة كلها بمثل قوله تعالى: ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾[2]، ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾[3] وإن كان الذي يقوم على هذه الحدود هو الدولة والحُكّام ، لأن الجماعة كلها مسئولة عن إقامتها ، مؤاخذة بعقاب الله إذا عطلتها.

(ز) حتى العبادة التي هي صلة بين العبد وربه ، أبى الإسلام إلا أن يُضفي عليها روحاً جماعية ، وصبغة جماعية ، فدعا إلى صلاة الجماعة ورَغَّبَ فيها ، حتى جعلها أفضل من صلاة المسلم وحده ، بسبع وعشرين درجة ، وكلما كان عدد الجماعة أكبر ، كان ثواب الله عليها أعظم. بل هَمَّ الرسول أن يحرق على قوم بيوتهم ، لتخلفهم عن الجماعة في المسجد ، ولم يُرَخِّص لأعمى ، يسمع الأذان ، أن يُصَلِّي في بيته ويترك صلاة الجماعة ، وقال: «لا صلاة لمنفرد خلف الصف»[4] كراهية منه للشذوذ والانفراد ، ولو في المظهر. وإذا صلى المسلم منفرداً في خلوة لم تزل الجماعة في وجدانه وضميره ، فهو إذا ناجى الله ناجاه بصيغة الجمع ، وإذا دعاه دعاه باسم الجميع: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾[5] .

كما شرع صلاة الجمعة في كل أسبوع مرة. وصلاة العيد في كل عام مرتين. وفرض الحج في العمر مرة على كل مسلم. وكلها شعائر لا بد أن تؤدى في صورة جماعية.

---

(١) ذكر هذا النداء في القرآن كثيراً. (٢) المائدة: ٣٨
(٣) النور: ٢ (٤) رواه أبو داوود. (٥) الفاتحة: ٥ ـ ٦

(ح) وفي مجال الآداب والتقاليد ، حَثَّ الإسلام على جملة من الآداب الاجتماعية ، أراد بها أن يخرج المسلم من الفردية والانعزالية ، التي قد تروق للانطوائيين من الناس ، فتحية الإسلام ، والمصافحة عند اللقاء ، وتشميت العاطس ، والتزاور والتهادي ، وعيادة المريض ، وتعزية المصاب ، وصلة الأرحام ، وإحسان الجوار ، وإكرام الضيف ، وحسن الصحبة في السفر والحضر ، والبر باليتامى والمساكين وابن السبيل ، وغير ذلك من الآداب والواجبات ، هي التي جعلت الشعور الجماعي ، والتفكير الجماعي ، والسلوك الجماعي ، جزءاً لا يتجزأ من حياة المسلم.

(ط) وفي مجال الأخلاق ، حَثَّ الإسلام على المحبة والإخاء والإيثار ، وأمر بالتعاون على البر والتقوى ، ودعا إلى توحيد الكلمة وجمع الصف ، كما دعا إلى التراحم والتسامح. وإلى البذل والتضحية ، واحترام النظام ، والطاعة لأولي الأمر في المعروف.

وبجوار ذلك حَذَّرَ من الحسد والبغضاء والحقد، والفُرقة والتنازع ، وسائر الرذائل التي تنشأ من الأنانية والغلو في حب الذات وحب الشهوات.

وبهذا كله . نعلم كيف أقام الإسلام - بالتشريع والتربية - الموازين القسط بين الفرد والمجتمع ، أو بين الفردية والجماعية في حياة الإنسان . كما نتبين أن نظام الإسلام لا يُعد في المذاهب الفردية، كما لا يحسب في المذاهب الجماعية، ذلك لأنه أخذ من كل منهما خير ما فيه، كما تنزه عن شر ما فيه، فقد اعترف بالفرد وبالمجتمع، وقرر لكل منهما حقوقه بالعدل، وألزمه واجبات تقابلها بالمعروف. وهذه هي الوسطية، وإن شئت قلت: هو التوازن الذي اختص به هذا الإسلام.

* * *

الفصل الخامس

الوَاقِعيَّـة

وهذه خصيصة أخرى من الخصائص العامة للإسلام، وهى «الواقعية».

● ماذا نريد بالواقعية :

لسنا نعني بالواقعية ما عناه بعض الفلاسفة الغربيين من «الماديين» أو «الوضعيين» من إنكار كل ما وراء الحس ، وما بعد الطبيعة ، واعتبار «الواقع» هو الأشياء المحسة، والمادة المتحيزة، وما عدا ذلك - مما أثبته الوحى أو العقل أو الفطرة - لا يُعد واقعاً موجوداً: فلا إله عندهم للكون، ولا روح للإنسان، وليس وراء هذا العالم المشهود غيب أو عالم غير منظور، ولا بعد هذه الحياة الدنيا حياة ! لأن هذه كلها لا يثبتها الواقع المشاهد الملموس.

هذا المفهوم للواقعية لا نعنيه قطعاً ، لمصادمته للوحى وللفطره وللعقل. وكذلك لا نعنى بالواقعية قبول الواقع على علاته ، والخضوع له على ما فيه من قذارة وهبوط، دون محاولة للارتفاع به، وبذل الجهد في تنظيفه وترقيته.

كلا، إنما نعني بـ«الواقعية»: مراعاة واقع الكون من حيث هو حقيقة واقعة، ووجود مشاهد، ولكنه يدل على حقيقة أكبر منه، ووجود أسبق وأبقى من وجوده، هو وجود الواجب لذاته، وهو وجود اللّه الذي خلق كل شيء فقدَّره تقديراً.

ومراعاة واقع الحياة من حيث هي مرحلة حافلة بالخير والشر، تنتهي بالموت، وتمهد لحياة أخرى بعد الموت، تُوَفَّى فيها كل نفس ما كسبت، وتخلد فيما عملت.

ومراعاة واقع الإنسان من حيث هو مخلوق مزدوج الطبيعة، فهو نفحة من روح اللّه في غلاف من الطين، ففيه العنصر السماوي والعنصر الأرضي ،

ومن حيث هو ذكر أو أنثى لكل منهما تكوينه ونزعاته ووظيفته، ومن حيث هو عضو في مجتمع، لا يستطيع أن يعيش وحده، ولا أن يفنى تماماً في المجتمع، ولهذا تصطرع في نفسه عوامل الأنانية والغيرية.

ومن هنا لم ينس الإسلام - في توجيهاته الفكرية، وفي تعليماته الأخلاقية، وفي تشريعاته القانونية - واقع الكون وواقع الحياة، وواقع هذا الإنسان بكل ظروفه وملابساته. لأن الذي يُشَرِّع للإنسان ويُوجهه ويُعلمه هو الذي خلق الكون والحياة وهو الذي خلق الإنسان، فهو أعلم بما يُصلحه وما يُفسده، وما يرقى به إلى درجة الملاك، وما يهبط به إلى حضيض البهائم: ﴿ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾؟ [1].

والواقعية بهذا المعنى ليست نقيضاً للنزعة المثالية المعتدلة في الفلسفة والأخلاق. فإن هذه النزعة مبنية على فطرة الإنسان وتطلعها إلى الترقي، وشوقها إلى المثل الأعلى.

فهي إذن واقعية مثالية ، أو مثالية واقعية. فقد سلمت من إفراط غلاة المثاليين، ومن تفريط الواقعيين من البشر.

* * *

• موقف المذاهب والفلسفات الأرضية :

وهذا بخلاف الفلسفات والمذاهب و«الأيديولوجيات» الأرضية الوضعية كلها. فقد وضعها بشر محدودو القدرة والمعرفة، تنقصهم الإحاطة التامة بواقع الكون وواقع الحياة وواقع الإنسان، الإحاطة بحاجاته كلها، وبدوافعه كلها، وبطاقاته كلها، وبتطوراته كلها .. الإنسان في كل مكان، وفي كل زمان، وفي كل حال.

فهم حين يضعون منهجاً أو «نظام حياة» للإنسان، يضعونه متأثرين بالواقع للإنسان في بيئة معينة في عصر معين، غافلين عما كان عليه إنسان الأمس، وما يكون عليه إنسان الغد، بل ما عليه إنسان الحاضر في بيئته أو بيئات

(١) الملك: ١٤

أخرى، لم يتح لهم الاطلاع عليها. فضلاً عن الغفلة عن واقع الكون الكبير الذي يعيشون فوق أرضه، وتحت سمائه، والذي يعرفون منه شيئاً ويجهلون أشياء، مما يبصرون وما لا يبصرون.

هذا إذا افترضنا فيهم النزاهة التامة والتجرد الكامل، والبعد عن كل تأثر بمؤثرات وراثية أو بيئية، وعدم الخضوع لأي ضغوط نفسية أو خارجية. وهيهات هيات !

ومن ثَمَّ تأتي هذه الفلسفات أو الأنظمة أو المذاهب أو الأيديولوجيات، قاصرة في نظرتها لواقع الإنسان والحياة وفي رعايتها له. ولهذا تجد فيها كثيراً من الأوهام والتخيلات التي لا يقوم عليها الواقع المشاهد.

خذ مثلاً الشيوعية .. لقد بنت فلسفتها على أساس إقامة مساواة اقتصادية بين الناس جميعاً، بحيث لا يأخذ أحد في المجتمع الشيوعي أكثر من حاجته، وفقاً لمبدئها القائل: «من كُلٌ حسب قدرته، ولكُلٌ حسب حاجته».

وقد استولى الشيوعيون على الحكم في روسيا منذ أكثر من نصف قرن (أكتوبر ١٩١٧) ومع هذا لم يتحقق هذا الحلم، ولم يقتربوا منه، بل بالعكس ما يزيدهم الواقع ومرور الأيام عنه إلا بُعداً، لأنهم بين حين وآخر، يعترفون بشيء من الملكية للأفراد في صورة من الصور.

ومن المقرر المعروف أن تباين «الدخول» في الاتحاد السوفييتي أمر لا ينكره السوفييت أنفسهم، فأين العمال والفلاحون وصغار الموظفين من الفنانين والمهندسين وأعضاء الحزب وأشباههم من المحظوظين المقربين ؟!

ففكرة «المساواة الاقتصادية» - التي ضحى الشيوعيون من أجلها بالحريات الفردية - فكرة وهمية لا تستند إلى الواقع .. ولهذا خسر الناس الحرية ولم يكسبوا المساواة !

وأبعد من ذلك عن الواقع ما نادى به الشيوعيون من زوال فكرة الدولة وما يتبعها من شرطة وسجون ومحاكم وعقوبات .. الخ. وكل هذه أوهام لم تتحقق من قبل، ولن تتحقق من بعد، ما دام الإنسان هو الإنسان.

وإذا كان دعاة المذهب الجماعي «الشيوعي» قد غفلوا عن الواقع في فلسفتهم ، وركضوا وراء الأوهام والتخيلات ، فإن دعاة «المذهب الفردي» لم يسلموا مما سقط فيه إخوانهم - أو خصومهم - الجماعيون. ولهذا سخر بعض المفكرين الغربيين من الديمقراطية فقال: إنها نظام لا يتحقق إلا إذا حكم الآلهة !!

* * *

● موقف الأديان الوضعية والمرحلية:

ومثل المذاهب والفلسفات الأرضية: الديانات الوضعية كالبوذية والكونفشيوسية وغيرها، وكذلك الأديان السماوية التي شرعها الله لمرحلة محدودة وقوم معينين، وعلاجاً لأوضاع وتطرفات خاصة، ولم يردها رسالة عامة خالدة، لكل البشر، في كل الأزمان، وفي شتى البيئات، فجاءت تحمل طابع زمنها ومرحلتها .. كما أن الله لم يتكفل بحفظها وبقائها، فامتدت إليها يد التغيير والتحريف اللفظي والمعنوي: اللفظي بحذف بعض كلمات الله ووضع كلمات البشر مكانها، أو تركها إلى غير بدل .. والمعنوي بتفسير كلام الله على غير ما أراد بإنزاله .. وكلاهما تحريف للكلم عن مواضعه.

والديانة المسيحية مثال بارز لما نقول، فقد جاءت علاجاً وقتياً لحالة خاصة تتمثل في تكالب اليهود على المادة، وبُعدهم عن روح التدين الحق، وعن فضائل المتدينين المثلى، هذا إلى طغيان الرومان واستغراقهم في متاع الحياة الأدنى .

فعالجت الإغراق في الماديات بإغراق مقابل في الروحانيات، وحاولت أن ترفع الهابطين من وحل الواقع إلى التحليق في سماء المثالية، وكثيراً ما يكون علاج التطرف بتطرف عكسي، ولكن هذا في العلاج الوقتي المحدود، لا العلاج الدائم الشامل. وهذا سر اشتمال المسيحية - وهي دين سماوي الأصل - على تعاليم مثالية لا تصلح للتطبيق على جماهير البشر في كل زمان ومكان، وعلى تعاليم

أخرى لا توافق العقل ولا تلائم الفطرة، دلالة على أنها مما دخل عليه التحريف، وخالطته أوهام البشر، وأهواء البشر، وشطحات البشر.

* * *

● ميزة الإسلام:

أما الإسلام فهو كلمات الله الباقية لكافة الخلق، وهو الهداية العامة الخالدة للأحمر والأسود، ورحمة الله الشاملة للعالمين، وهو الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. ولهذا ضَمَّنَه الله من التعاليم ما يليق بحال البشر أين كانوا، ومتى كانوا، وكيف كانوا.

ولا غرو، أن راعى الإسلام الواقع في كل ما دعا إليه الناس من عقائد وعبادات وأخلاق وتشريعات.

- واقعية العقيدة الإسلامية:

جاء الإسلام بعقيدة واقعية، لأنها تصف حقائق قائمة في الوجود، لا أوهاماً متخيلة في العقول، حقائق يقبلها العقل، وتستريح إليها النفس، وتستجيب لها الفطرة السليمة.

فالعقيدة الإسلامية تدعو إلى الإيمان بإله واحد دلّ على نفسه بآياته التكوينية، في الأنفس والآفاق، وآياته التنزيلية، مما أوحى به إلى رسله. فهو ليس كإله الأساطير الذي تتحدث عنه أقاصيص اليونان، وحكايات الرومان، وغيرهم من الشعوب.

وقد وصف القرآن هذا الإله الواحد بأوصاف، ونعته بأسماء، وهي أسماء وصفات تقنع عقول الفلاسفة كما ترضى عواطف العامة معاً. تجمع بين الجلال والجمال، والقوة والرحمة، وهي أيضاً أسماء وصفات مستقة مع عمله سبحانه في الكون، وصلته بالخلق، فهو الرحمن الرحيم، الملك القدوس السلام، المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر، الخالق البارىء، المصور، العليم الحكيم، البر الكريم، العفو الغفور، الحليم الشكور، الرزاق الوهاب، الرؤوف التواب، ذو الجلال والإكرام.

وهي تدعو إلى الإيمان برسول بعثه الله، ليختم به النبوات، ويتمم به مكارم الأخلاق، رسول هو بشر مثلنا، لا يتميز عن الناس إلا بالوحي: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ .. ﴾[1] ليس إلهاً ولا ابن إله ولا مَلَكاً. إنما هو إنسان يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، عاش ومات، كما يعيش الناس ويموتون، باع واشترى، وصادق وعادى، وسالم وحارب، وتزوج وأنجب .. كان يرضى ويسخط، ويفرح ويحزن، ويحب ويكره. دل على صدقه سيرته الزاكية، ودعوته الهادية، وتأييد الله إياه، ونصره على أعدائه، وأثره في أصحابه، وفي العالم من حوله، وكتابه الذي تحدى به المعارضين فعجزوا عن الإتيان بسورة من مثله، وأعلن أنه محفوظ من الله، فلم يزل محفوظاً إلى اليوم، لم يُبَدَّلْ فيه كلمة ولا حرف.

هذا الكتاب الإلهي هو القرآن المكتوب في المصاحف، المتلو بالألسنة، المحفوظ في الصدور، الذي يخاطب في الناس عقولهم وقلوبهم معاً، ويستثير فيهم عوامل الرغبة والرهب جميعاً، فهو بشير ونذير، يقرن الوعد بالوعيد، والترغيب بالترهيب، ويُشَوِّق إلى الجنة ويُخَوِّف من النار، فقد علم مُنَزِّله تعالى، أن الإنسان لا يُحركه إلى الخير، ولا يُبعده عن الشر، إلا شوق يحفزه ويدفعه، أو خشية تحجزه وتمنعه، وليس كالشوق إلى مثوبة الله حافز، ولا كالخوف من عذابه حاجز.

وتدعو إلى الإيمان بحياة أخرى بعد هذه الحياة، يجزي فيها كل مُكَلَّفٍ بما عمل من خير أو شر، ثواباً وعقاباً، نعيماً وجحيماً، جنة وناراً.

وفي إيمان هذه العقيدة بالخلود ما يُغَذِّي رغبة الإنسان في طول البقاء ، وما يطابق شعوره بخلود النفس ، الذي تكاد تتفق عليه كل الأديان والفلسفات في الشرق والغرب من المصريين ، إلى الهنود، إلى اليونان ، إلى غيرهم من الأمم والشعوب.

---

(١) الكهف: ١١٠.

وفي الإيمان بالجزاء الإلهي العادل على الخير والشر في الدنيا، ثواباً وعقاباً في الأخرى، ما يغذي الإحساس الفطري الأصيل بضرورة القصاص من الظالم الفاجر الذي أفلت من يد العدالة الدنيوية، والمثوبة لمن فعل الخير ودعا إليه ولم يجز إلا بالتنكر والاضطهاد.. وعدم التسوية بين الأخيار والأشرار، والأبرار والفجار، والمصلحين والمفسدين: ﴿ أَمْ حَسِبَ الذينَ اجتَرَحُوا السَّيئات أن نَجْعَلَهُمْ كالَّذينَ آمَنُوا وَعَملوا الصالحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ ما يَحْكُمُونَ * وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَواتِ والأَرْضَ بِالحَقِّ وَلِتُجزَى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ وَهُم لا يُظلَمُونَ ﴾[1].

وفي الإيمان بالجنة والنار وما فيهما من نعيم وعذاب، حسي ومعنوي، مطابقة لواقع الإنسان، من حيث هو جسم وروح، لكل منهما مطالبه وحاجاته، ومن حيث أن فى الناس من لا يكفيه نعيم الروح أو عذابها وحدها مجردة عن الجسم. كما أن منهم من لا يقنعه نعيم الجسم أو عذابه بمعزل عن الروح. لهذا كان فى الجنة الطعام والشراب والحور العين، ورضوان من الله أكبر.. وكان فى النار سلاسل وأغلال، وزقوم وغسلين، وطعام من ضريع، لا يُسمن ولا يُغني من جوع. ولهم فوق ذلك من الخزي والهوان ما هو أشد وأنكى.

* * *

- واقعية العبادات الإسلامية:

وجاء الإسلام بعبادات واقعية، لأنه عرف ظمأ الكائن الروحي في الإنسان إلى الاتصال بالله، ففرض عليه من العبادات ما يروي ظمأه، ويُشبع نهمه، ويملأ فراغ نفسه، ولكنه راعى الطاقة المحدودة للإنسان، فلم يكلفه ما يعنته ويحرجه:

﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾[2].

(أ) لقد راعى واقع الحياة وظروفها الأسرية والاجتماعية والاقتصادية، وما تفرضه على الإنسان من طلب المعيشة، والسعي في مناكب الأرض الذلول، فلم يطلب من المسلم الانقطاع للعبادة، كالرهبان في الأديار، بل لم يسمح له بهذا

---

(١) الجاثية: ٢١ـ٢٢ (٢) الحج: ٧٨

الانقطاع لو أراد، وإنما كَلَّفَ المسلم عبادات محدودة، تصله بربه، ولا تقطعه عن مجتمعه، يعمر بها آخرته، ولا تخرب من ورائها دنياه، لم يرد منهم أن تكون حياتهم كلها تحليقاً عالياً في أجواء الروحانية الخالصة، بل قال الرسول لبعض أصحابه: «ساعة وساعة»[1] .

(ب) وعرف الإسلام طبيعة الملل في الإنسان، فنوَّعها ولوَّنها، بين عبادات بدنية، كالصلاة والصيام، وأخرى مالية كالزكاة والصدقات، وثالثة جامعة بينهما كالحج والعمرة، وجعل بعضها يومياً كالصلاة، وبعضها سنوياً أو موسمياً كالصيام والزكاة، وبعضها مرة في العمر كالحج. ثم فتح الباب لمن أراد مزيداً من الخير والقرب من الله، فشرع التطوع بنوافل العبادات: ﴿ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ ﴾[2] .

(جـ) وراعى الإسلام الظروف الطارئة للإنسان كالسفر والمرض ونحوهما، فشرع الرخص والتخفيفات التي يحبها الله، وذلك مثل صلاة المريض قاعداً أو مضطجعاً على جنب، حسب استطاعته، وتيمم الجريح إذا كان استعمال الماء للغسل أو الوضوء يضره، وفطر المريض في رمضان، مع وجوب القضاء، وفطر الحامل والمرضع إذا خافتا على أنفسهما أو ولديهما، وفطر الشيخ الكبير والمرأة العجوز مع الفدية: إطعام مسكين عن كل يوم.

ومثل ذلك قصر الصلاة الرباعية للمسافر. والجمع بين صلاتي الظهر والعصر أو بين المغرب والعشاء تقديماً أو تأخيراً، وشرعية الفطر للمسافر في الصيام .. وهذه الرخص كلها رعاية لواقع الناس وتقدير لظروفهم المتغيرة، وتيسير من الله عليهم، كما قال في آية الصوم: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾[3] .

---

(١) رواه مسلم. (٢) البقرة: ١٨٤ (٣) البقرة: ١٨٥

- واقعية الأخلاق الإسلامية:

وجاء الإسلام بأخلاق واقعية، راعت الطاقة المتوسطة المقدورة لجماهير الناس فاعترفت بالضعف البشري، وبالدوافع البشرية، وبالحاجات البشرية المادية والنفسية.

(أ) لم يوجب الإسلام على من يريد الدخول في الإسلام أن يتخلى عن ثروته وأمور معيشته كما يحكي الإنجيل عن المسيح أنه قال لمن أراد اتباعه: «بع ما لك واتبعني» ! ولا قال القرآن ما قال الإنجيل: «إن الغني لا يدخل ملكوت السموات حتى يدخل الجمل في سَمِ الخياط» !

بل راعى الإسلام حاجة الفرد والمجتمع إلى المال، فاعتبره قواماً للحياة، وأمر بتنميته والمحافظة عليه، وامتن القرآن بنعمة الغنى والمال في غير موضع، وقال الله لرسوله: ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى ﴾(١) . وقال الرسول: «ما نفعني مال كمال أبي بكر»(٢) وقال لعمرو بن العاص: «نِعْمَ المال الصالح للرجل الصالح»(٣) ..

(ب) ولم يجيء في القرآن ولا السنّة ما جاء في الإنجيل من قول المسيح: «أحبوا أعداءكم .. باركوا لاعنيكم .. من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر .. ومن سرق قميصك فأعطه إزارك».

فقد يجوز هذا في مرحلة محدودة، ولعلاج ظرف خاص، ولكنه لا يصلح توجيهاً عاماً خالداً، لكل الناس، في كل عصر، وفي كل بيئة ، وفي كل حال، فإن مطالبة الإنسان العادي بمحبة عدوه ومباركة لاعنه، قد يكون شيئاً فوق ما يحتمله. ولهذا اكتفى الإسلام بمطالبته بالعدل مع عدوه: ﴿ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى ألاَّ تَعْدِلُوا ، اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾(٤) .

---

(١) الضحى : ٨

(٢) رواه أحمد عن أبي هريرة، وإسناده صحيح كما في التيسير للمناوي.

(٣) رواه أحمد في مسنده والطبراني في الكبير بإسناد صحيح.

(٤) المائدة : ٨

كما أن إدارة الخد الأيسر لمن ضرب الخد الأيمن، أمر يشق على النفوس، بل يتعذر على كثير من الناس أن يفعلوه، وربما جرأ الفجرة الأشرار على الصالحين الأخيار. وقد يتعين في بعض الأحوال، ومع بعض الناس، أن يعاقبوا بمثل ما اعتدوا، ولا يُعفى عنهم فيتبجحوا ويزدادوا بغياً وطغياناً. وقديماً قال شاعر عربي:

لئن كنتُ مُحتاجاً إلى الحلم إنني إلى الجهل في بعض الأحايين أحوجُ
ولي فرسٌ للحلم بالحلم مُلَجَّمٌ ولي فرسٌ للجهلِ بالجهلِ مُسَرَّجُ
فمن رام تَقويمي فإنّي مُقَوَّمٌ ومَنْ رام تَعْويجي فإني مُعَوَّجُ
وما كنتُ أرضى الجهلَ خِدنا وصاحباً ولكنني أرضى به حينَ أحرَجُ

ولهذا تجلت واقعية الإسلام حين شرع مقابلة السيئة بمثلها بلا حيف ولا عدوان، فأقر بذلك مرتبة العدل، ودرء العدوان، ولكنه حث على العفو والصبر والمغفرة للمسيء، على أن يكون ذلك مَكْرَمَةً يُرَغَّبُ فيها، لا فريضة يُلزَم بها. وهذا واضح في مثل قوله تعالى: ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا، فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، إنَّه لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾[1]، ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾[2].

(جـ) ومن واقعية الأخلاق الإسلامية: أنها أقرت التفاوت الفطري والعملي بين الناس، فليس كل الناس في درجة واحدة من حيث قوة الإيمان، والالتزام بما أمر الله به من أوامر، والانتهاء عما نهى عنه من نواه، والتقيد بالمثل العليا.

فهناك مرتبة الإسلام، ومرتبة الإيمان، ومرتبة الإحسان، وهي أعلاهن، كما أشار إلى ذلك حديث جبريل المشهور، ولكل مرتبة أهلها.

وهناك الظالم لنفسه، والمقتصد، والسابق بالخيرات، كما أرشد إلى ذلك القرآن الكريم.

فالظالم لنفسه هو: المقصر، التارك لبعض الواجبات، المرتكب لبعض المحرمات.

(١) الشورى: ٤٠. (٢) النحل: ١٢٦.

والمقتصد هو: المقتصر على فعل الواجبات ، وإن ترك المندوبات ، وعلى ترك المحرمات ، وإن فعل المكروهات.

والسابق هو: الذي يزيد على فعل الواجبات ، أداء السنن والمستحبات ، وعلى ترك المحرمات ، ترك المشبهات والمكروهات. بل ربما ترك بعض الحلال خشية الوقوع فيما يحرم أو يكره.

وإلى هؤلاء يشير قوله تعالى في سورة فاطر: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ، فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِه وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّه، ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾[1] فالآية الكريمة تجعل هؤلاء الأصناف الثلاثة - على تفاوت مراتبهم - من الأمة التي اصطفاها الله من عباده، وأورثها الكتاب.

(د) ومما يكمل هذا المعنى: أن الأخلاق الإسلامية لم تفترض في أهل التقوى أن يكونوا براء من كل عيب، معصومين من كل ذنب، كأنما هم ملائكة أولو أجنحة، بل قدرت أن الإنسان مكون من طين وروح، فإذا كانت الروح تعلو به تارة، فإن الطين يهبط به طوراً. ومزية المتقين إنما هي في التوبة والرجوع إلى الله، كما وصفهم الله بقوله: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهَ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[2] .

(هـ) ومن واقعية الأخلاق الإسلامية: أنها راعت الظروف الاستثنائية كالحرب، فأباحت من أجلها ما لا يُباح في ظروف السلم، كهدم المباني أو تحريق الأشجار ونحوها، ومثل ذلك الكذب لتضليل العدو عن حقيقة أوضاع الجيش الإسلامي وعُدده وعتاده وخططه، فإن الحرب - كما جاء في الحديث - خدعة.

---

(١) فاطر: ٣٢ (٢) آل عمران: ١٣٥

- واقعية التربية الإسلامية :

والتربية الإسلامية كذلك تربية واقعية تتعامل مع الإنسان كما هو: لحماً ودماً، وفكراً وشعوراً، وانفعالاً ونزوعاً، وروحاً وتحليقاً.

ولما رأى بعض الصحابة - واسمه حنظلة - أنه يكون مع أسرته وأهله في حال تغاير الحال التي يكون عليها مع النبي ﷺ ، من حيث الصفاء والشفافية والشعور بخشية الله تعالى ومراقبته، فرأى هذا لوناً من النفاق، وخرج يعدو في الطريق وهو يقول عن نفسه: نافق حنظلة، حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ ، وشرح له ما يحس به من تباين حاله عنده عن حاله في البيت، فأجابه الرسول بقوله: «إنكم لو بقيتم على الحال التي تكونون عليها عندي لصافحتكم الملائكة في الطرقات، ولكن يا حنظلة، ساعة وساعة»[1] ومن هنا جاء المثل العامي الذي يقول: «ساعة لقلبك، وساعة لربك».

وعلى هذه الحياة الواقعية المتوازنة يُربي الإسلام المسلم، فلا يدعه يغرق في اللهو إلى رأسه، فلا يبقى له شيء لربه، كما لا يدعه يغلو في التعبد فلا يبقى له شيء لقلبه.

ومع أن الإسلام لا يقر بأن أحداً يُولد ملوثاً بالخطيئة، نراه يعترف بأثر البيئة، وخطرها، وبخاصة البيئة الأسرية، حتى أنها لتشكل عقيدة الطفل واتجاهه الديني الأولي. وفي الحديث: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»[2] ..

ولهذا حَمَّلَ الإسلام الآباء تبعة توجيه أولادهم وحسن تربيتهم. كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾[3] .

وقال ﷺ : «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته .... والرجل في أهل بيته راع وهو مسئول عن رعيته»[4] .

---

(١) رواه مسلم. (٢) رواه البخاري.
(٣) التحريم: ٦ (٤) متفق عليه.

ويهتم الإسلام بسن الطفولة، لأنها أكثر قابلية للتعلم والتأثر والمحكاة، وهنا يأمر الآباء والمربين بتدريب الأطفال على الطاعات وأداء الفرائض وفعل الخيرات، متى بلغوا سن التمييز، وقد حددها الحديث النبوي بالسابعة، كما أمر بأخذهم بالحزم والشدة إذا قاربوا المراهقة، وذلك أن أتموا العاشرة، وفي هذا يقول عليه الصلاة والسلام: «مروهم بالصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر».

والضرب هنا ليس مقصوداً لذاته، وإنما المراد به إشعار الولد بأهمية ما يُؤمر به، وجدية الأب في أمره به، وحرصه على تنفيذ الأمر وعدم التهاون فيه. فإن بعض الآباء يأمر الطفل من طرف لسانه، بحيث لا يشعر الطفل منه أنه حريص على الامتثال، فلهذا جاء الأمر بالضرب للإشعار بأن الأمر جِدٌّ لا هزل، وفعل لا قول.

والضرب المطلوب: أن يُؤلم ويُوجع، ولكنه لا يُشوه ولا يجرح، ولا يُؤذى إيذاءً شديداً. والإسلام يقرر هذا للضرورة أو للحاجة، ولا يُحَلِّق مع المحلقين في عالم الخيال، الذين ينادون بإلغاء الضرب نهائياً من دنيا التربية، في البيت، أو في المدرسة. هذه مثالية لا تصلح لكل البيئات، ولا لكل الأفراد، ولا لكل الأحوال.

وخير الآباء والمربين من لا يحتاج إلى الضرب. كما جاء في الحديث في مخاطبة الأزواج: «ولن يضرب خياركم»، وقد صح أن النبي ﷺ ما ضرب بيده شيئاً قط، لا صبياً، ولا امرأة، ولا جارية، ولا عبداً، ولا دابة. وهذا أفق رفيع، لا يتسامى إليه كل الناس.

- واقعية الشريعة الإسلامية :

وجاء الإسلام كذلك بشريعة واقعية، لم تغفل الواقع في كل ما أحلت وحرّمت. ولم تهمل هذا الواقع في كل ما وضعت من أنظمة وقوانين للفرد، وللأسرة، وللمجتمع، وللدولة، وللإنسانية.

- في التحليل والتحريم:

فمن مظاهر هذه الواقعية في مجال الحلال والحرام - وهو ما يتعلق غالباً بشئون الفرد، رجلاً أو امرأة:

١- أن شريعة الإسلام لم تُحَرِّم شيئاً يحتاج إليه الإنسان في واقع حياته، كما لم تبح له شيئاً يضره في الواقع.

ومن ثَمَّ أنكر القرآن تحريم الزينة والطيبات، معلناً إباحتها لبني الإنسان جميعاً بشرط القصد والاعتدال وعدم الإسراف في استعمالها: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا ، إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾؟[١] .

٢- وراعت الشريعة فطرة البشر في الميل إلى اللهو والترويح عن النفس، فرخصت في أنواع من اللهو كالسباق وألعاب الفروسية وغيرها، إذا لم تقترن بقمار ولا بحرام، ولم تَصُد عن ذكر الله وعن الصلاة، وخصوصاً في المناسبات السارة، كالأعراس والأعياد. وقد غَنَّتْ جاريتان عند عائشة في بيت النبي ﷺ فانتهرهما أبو بكر، فقال النبي ﷺ : «دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد»[٢] وقال يومئذ: «لتعلم اليهود أن في ديننا فُسحة .. وأني بُعثت بحنيفية سمحة»![٣] وأذن للحبشة أن يلعبوا في مسجده بالحراب، وسمح لزوجه عائشة أن تنظر إليهم حتى اكتفت.

وقد راعت الشريعة فطرة المرأة وواقعها في حب الزينة وعمق الرغبة في التجمل، فأباحت لها بعض ما حرِّمت على الرجال كالتحلي بالذهب ولبس الحرير.

٣- ومن واقعية الشريعة: أنها قَدَّرت الضرورات - التي تَعرض للإنسان وتضغط عليه - حق قدرها، فَرَخَّصَت في تناول المحرمات على قدر ما تُوجب الضرورة. وقرر فقهاء الشريعة: أن الضرورات تبيح المحظورات، استناداً إلى

---

(١) الأعراف: ٣١ـ٣٢ (٢) رواه الشيخان. (٣) رواه أحمد في مسنده.

ما جاء في القرآن عند ذكر الأطعمة المحرمة من مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ، فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[1] .

٤- ومن واقعية الشريعة أنها عرفت ضعف الإنسان أمام كثير من المحرمات، فَسَدَّت الباب إليها بالكلية، ولهذا حرَّمت قليلها وكثيرها، كما في الخمر، لأن القليل يجر إلى الكثير، كما أنها عَدَّتْ ما يُوصل إلى الحرام حراماً، سداً للذريعة، وإقراراً بواقع الكثير من البشر، الذين لا يملكون أنفسهم إذا فُتِحَ لهم طريق إلى الحرام. ومن هنا كان تحريم الخلوة بالمرأة الأجنبيةِ، إغلاقاً لباب قد تهب منه رياح الشر، فلا يُستطاع صدها. ومثل ذلك النظر بشهوة إلى الجنس الآخر، فإن العين رسول القلب، والنظرة المتشهية بريد الفتنة، وقديماً قال الشاعر:

كـل الحـوادث مبـداها من النظـر ومعظم النار من مستصغر الشرر!

وحديثاً قال شوقي:

نظرة، فابتسامة ، فسلام فكـلام ، فموعد ، فلقـاء!

- في تشريعات الزواج والأسرة:

٥- ومن واقعية الشريعةالإسلامية: أنها راعت قوة الدوافع الجنسية لدى الإنسان فلم تطرحها دبر الأذن، ولم تنظر إليها باستخفاف، ولا باستقذار، كما فعلت بعض الملل والنحل، ولم ترض للإنسان أن يُقاد من غرائزه وحدها، كما فعلت بعض الفلسفات.. فشرعت إشباع الدافع الجنـسي بطريقة نظيفة، تضمن بقاء الإنسان، وكرامة الإنسان، وارتفاع الإنسان عن الحيوان، وذلك بشرعية «نظام الزواج» وقد أشار القرآن إلى ذلك بعد ما ذكر ما حرَّم الله من النساء، وما أحلَّه وراء ذلك بشرطه، ثم قال: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُم وَيَهدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيكُمْ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُم وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيلاً عَظِيماً * يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ، وَخُلِقَ الإنسَانُ ضَعِيفاً ﴾[2] .

---

(١) البقرة : ١٧٣

(٢) النساء : ٢٦-٢٨

فالمفهوم من وصف الإنسان بالضعف في هذا المقام: ضعفه أمام الغريزة الجنسية.

- تعدد الزوجات:

٦- وانطلاقاً من هذه النظرة الواقعية للحياة والإنسان، كانتْ إباحة تعدد الزوجات كما شرعه الإسلام.

فما دام في الزوجات من يعتريها المرض ويطول، ومن تمتد بها الدورة الشهرية إلى ثلث الشهر أو أكثر، ومن ترغب عن الرجل، ولا تقبل عليه إلا بصعوبة، وما دام الرجال لا يستطيعون التحكم في غرائزهم، فلماذا لا نتيح لهم طريق الزواج الحلال في العلانية والنور، بدل البحث عن الحرام في الخفاء والظلام؟!

وإذا كان من النساء من ابتُليت بالعقم، وفي الرجال من يكون قوي الرغبة في الإنجاب، فلماذا لا نتيح له تحقيق رغبته في الولد بالزواج من امرأة أخرى ولود، بدل كسر قلب الأولى بالطلاق، أو تحطيم رغبة الرجل بتحريم الزواج الثاني عليه.

وإذا كان عدد الصالحات للزواج من النساء أكثر من عدد القادرين عليه من الرجال، بصفة عامة، وبعد حرب بصفة خاصة، فليس أمام العدد الزائد إلا واحد من ثلاثة احتمالات:

(١) أن تقضي الفتاة عمرها في بيت أهلها عانساً، محرومة من حقها في إشباع عاطفة الزوجية وعاطفة الأمومة، وهي عواطف فطرية غرسها الله في كيانها، لا تملك لها دفعاً.

(٢) أو البحث عن متنفس غير مشروع من وراء ظهر الأسرة والمجتمع والأخلاق.

(٣) أو الزواج من رجل متزوج، قادر على إحصانها، واثق من العدل بينها وبين ضرتها.

أما الاحتمال الأول، ففيه ظلم كبير لعدد من النساء، بغير جرم اقترفنه، فإنهن لم يجئن إلى الحياة برضاهن.

والاحتمال الثاني جُرم في حق المرأة، وفي حق المجتمع، وفي حق الأخلاق، وهو - للأسف - ما سار عليه الغرب، فقد حرَّم تعدد الزوجات وأباح تعدد الصديقات والعشيقات. أي أن الواقع فرض عليهم التعدد. ولكنه تعدد لا أخلاقي ولا إنساني، لأن الرجل يقضي من ورائه وطره وشهوته، دون أن يلتزم بأي واجب، أو يتحمل أية تبعة، تأتي نتيجة لهذا التعدد.

أما الاحتمال الثالث، فهو وحده الحل العادل، والنظيف، والإنساني والأخلاقي، وهو الذي جاء به الإسلام.

- الطلاق:

٧- ومن واقعية الشريعة: إباحتها للطلاق عند تعذر الوفاق بين الزوجين. هذا مع تعظيم الإسلام لشأن العلاقة الزوجية واعتبار هذا الرباط: ﴿ مِيثَاقاً غَلِيظاً ﴾[(١)] وهو نفس التعبير الذي استخدم في شأن النبوة. واعتبار الأصل في الطلاق هو الحظر والتحريم، كما تدل على ذلك الدلائل من القرآن والسنة، قال الله تعالى في شأن النساء الناشزات: ﴿ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً ﴾[(٢)] واعتبر القرآن التفريق بين المرء وزوجه من أعمال السحرة الكفرة[(٣)] . وجاء في الحديث: «أبغض الحلال إلى الله الطلاق»[(٤)] .

ومع هذا، أثبت الواقع أن من الزواج ما لا يصحبه التوفيق، وقد أمر الإسلام الأزواج بالصبر والتريث وعدم الاستجابة لعاطفة الكراهية إن أحسوا بها: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً ﴾[(٥)] كما أمر الأزواج أن يعالجوا المرأة الناشز بكل

---

(١) في قوله تعالى في سورة النساء: ﴿ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً ﴾ (النساء:٢١)، كما قال عن الأنبياء في سورة الأحزاب: ﴿ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً ﴾(الأحزاب: ٧) .

(٢) النساء: ٣٤

(٣) في قوله تعالى: ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴾ (البقرة : ١٠٢).

(٤) رواه أبو داوود. (٥) النساء: ١٩

الوسائل، حتى تعود إلى الموافقة والطاعة، وأمر المجتمع أن يتدخل للتحكيم والإصلاح عن طريق «مجلس عائلي» كما قال تعالى: ﴿ فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أهلِهِ وحَكَماً مِن أَهلِهَا إن يُرِيدا إِصْلاحاً يُوفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ﴾(١) .

ومع هذا قد تستحكم النفرة، ويتفاقم النزاع، وتخفق كل وسائل الإصلاح والتحكيم والتوفيق. فهنا يكون الطلاق هو العلاج رغم مرارته، وآخر الدواء الكي. وما أصدق ما قيل: «إن لم يكن وفاق ففراق» وإلا كان الأمر كما قال الحكيم: «إن من أعظم البلايا مصاحبة من لا يوافقك ولا يفارقك» وكما قال المتنبي:

ومن نكَدِ الدنيا على الحرِّ أن يَرى ... عَدُواً لـه ما مِن صداقتـه بُدٌّ !

ولقد أرغم الواقع المسيحية المعاصرة على الاعتراف بحق الطلاق، برغم التحريم الغليظ في الإنجيل، وبرغم الحملات المسعورة التي طالما شنتها قوى التبشير دهراً طويلاً على الإسلام، الذي أباح الطلاق. فإذا هم يضطرون إضطراراً لإباحته، إلى حد التوسع والإسراف المرذول، وإذا آخر القلاع المسيحية المتشددة في هذا الجانب تسقط أخيراً، وتعلن إباحة الطلاق وذلك في روما الكاثوليكية، التي لا يجيز مذهبها الديني الطلاق لعلة ما، ولو كانت الخيانة الزوجية السافرة: الزنا.

وانتصرت شريعة الخالق على أوهام الخلق.

- في التشريعات الاجتماعية إباحة التملك الفردي:

٨- ومن واقعية الشريعة في المجال الاجتماعي والاقتصادي: أنها اعترفت بالدافع الفطري الواقعي الأصيل في نفس الإنسان: واقع حب التملك، فأقرت مبدأ الملكية الفردية وما يترتب عليه من حق التصرف في الملك، وحق الإرث له. ولكنها لم تنس واقعاً آخر، هو مصلحة المجتمع وحقوقه، وحاجات الفئات

---

(١) النساء: ٣٥

الضعيفة من أبنائه . فلهذا قيدت هذه الملكية بقيود شتى: في اكتساب المال، وفي تنميته، وفي الاستمتاع به، وفي التصرف فيه، وأوجبت فيه حقوقاً لله وللناس، الزكاة أولها، وليست هي آخرها، كما يتوهم كثيرون.

لقد أثبتت التجارب، وشهد الواقع الملموس: أن الحافز الفردي، له دوره الفعال في ترقية الحياة، وتطوير الوسائل وتحسين الإنتاج، وتنمية القدرة على الابتكار والإبداع، وصقل المواهب، حتى اضطر الماركسيون في روسيا وفي غيرها - تحت رطأة الواقع المجرب - أن يتنازلوا عن أجزاء من نظرياتهم الجامدة، ويتراجعوا عنها مقهورين. فيسمحوا ببعض التملك، وبشيء من حوافز الربح.. وانتصرت فطرة الله أيضاً على أوهام الناس.

- شرعية الحدود والقصاص والتعزير:

٩- ومن واقعية الشريعة: أنها عملت بكل قوة على تطهير المجتمع من أسباب الجريمة، وتربية الأفراد على حياة الاستقامة ولكنها مع هذا لم تكتف بالوازع الأخلاقي، وإن حرصت عليه كل الحرص. ولم تقتصر على التربية وحدها، وإن كانت تراها فريضة وضرورة دينية واجتماعية، ولكن في الناس من لا يرتدع إلا بعقوبة زاجرة، ولا تكفيه الموعظة الحسنة، ولا التوجيه الرشيد، ولهذا كان لا بد من سوط السلطان، بجوار صوت القرآن، حتى جاء عن عثمان رضي الله عنه: إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن!

ومن هنا أوجبت الشريعة العقوبات من الحدود والقصاص والتعازير. ولم تذهب إلى ما يذهب إليه الخياليون من الناس الذين ينادون بإلغاء عقوبة الإعدام إشفاقاً على القاتل المسكين!! دون أن ينظروا إلى مصيبة المقتول وأهله وما جرَّ عليهم من ويلات وأحزان. ثم إلى أمن المجتمع كله من ناحية أخرى!! أو الذين يعطلون «حد السرقة» بزعم الرحمة بالمجرم «السارق» الذي لم يرحم نفسه ولا غيره، حيث انتهك الحرمات، وسطا على الأموال. وهدد أمن الجماعة، ولم يُبال - في

سبيل تحقيق مأربه، والحرص على الإفلات من قبضة العدالة - أن يسفك دم البرآء، وأن يقتل النساء والأطفال!

يقول تعالى في شأن القصاص: ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[1] . وفي شأن السرقة: ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[2] .

* * *

• من دلائل الواقعية في التشريع:

ومن دلائل الواقعية في الشريعة الإسلامية جملة أمور عامة، نلمحها في أصولها وقواعدها واتجاهاتها الأساسية. من هذه القواعد أو المبادئ:

١- التيسير ورفع الحرج.

٢- مراعاة سنّة التدرج.

٣- النزول عن المثل الأعلى إلى الواقع الأدنى للضرورة.

- التيسير ورفع الحرج:

أما التيسير، فهو روح يسري في جسم الشريعة كلها، كما تسري العصارة في أغصان الشجرة الحية. وهذا التيسير مبني على رعاية ضعف الإنسان، وكثرة أعبائه، وتعدد مشاغله، وضغط الحياة ومتطلباتها عليه. وشارع هذا الدين رؤوف رحيم، لا يريد بعباده عنتاً ولا رهقاً، إنما يريد لهم الخير والسعادة وصلاح الحال والمآل، في المعاش والمعاد.

كما أن هذا الدين لم يجيء لطبقة خاصة، أو لإقليم محدود، أو لعصر معين، بل جاء عاماً لكل الناس، في كل الأرض، وفي كل الأزمان والأجيال، وإن نظاماً يتسم بهذا التعميم وهذه السعة، لابد أن يتجه إلى التيسير والتخفيف، ليتسع لكل الناس، وإن اختلف بهم المكان والزمان والحال.

---

(١) البقرة ١٧٩ (٢) المائدة ٣٨

وهذا ما يحسه ويلمسه كل من عرف هذا الدين.

فالقرآن ميسر للذكر، والعقيدة ميسرة للفهم، كما أن الشريعة ميسرة للتنفيذ والتطبيق. ليس فيها تكليف واحد يتجاوز طاقة المكلفين، كيف وقد أعلن القرآن هذه الحقيقة في أكثر من آية فقال: ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَهَا ﴾[1] ﴿ لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إلاَّ وُسْعَهَا ﴾[2]، ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إلاَّ مَا آتَاهَا ﴾[3] كما علم المؤمنين أن يدعوا ربهم فيقولوا: ﴿ رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾[4] وقد ورد في الصحيح: أن الله استجاب لهم.

وقد نفى القرآن كل حرج عن هذه الشريعة، كما نفى عنها العنت والعسر، وأثبت لها التخفيف واليسر. قال تعالى وهو يحدثنا عن رُخَص الصيام، من الفطر للمريض والمسافر: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾[5].

وقال سبحانه في ختام آية الطهارة بعد أن رَخَّصَ في التيمم لمن لم يجد الماء: ﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[6].

وقال تعالى في أواخر سورة الحج: ﴿ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾[7].

وفي سورة النساء بعد إباحة الزواج بالإماء لمن عجز عن الحرائر: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ ﴾[8].

وفي سورة البقرة بعد أن شرع العفو في القتل لمن طابت به نفسه: ﴿ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾[9].

وجاءت الأحاديث النبوية تؤكد هذا الاتجاه القرآني إلى التيسير نقرأ فيها:

«بعثت بحنيفية سمحة»[10]، «إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين»،

---

(1) البقرة: ٢٨٦ (2) البقرة: ٢٣٣ (3) الطلاق: ٧
(4) البقرة: ٢٨٦ (5) البقرة: ١٨٥ (6) المائدة: ٦
(7) الحج: ٧٨ (8) النساء: ٢٨ (9) البقرة: ١٧٨
(10) رواه أحمد.

«يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا» قاله لأبي موسى ومعاذ حين أرسلهما إلى اليمن.

وقد كانت سمة الرسول المميزة له في كتب أهل الكتاب هي: سمة الميسر ورافع الآصار والأغلال التي أرهقت أهل الأديان السابقة، كما قال تعالى: ﴿ يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُم فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾[1].

ومن أدعية القرآن التي علّمها للمؤمنين: ﴿ رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ﴾[2].

ولا غرو أن شرع الإسلام الرُّخَص عند وجود أسبابها. وذلك كالترخيص في التيمم لمن خاف التضرر باستعمال الماء لجرح أو لبرد شديد، ونحو ذلك لقوله تعالى: ﴿ وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً ﴾[3]، ﴿ ولا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾[4].

وكذلك الترخيص في الصلاة قاعداً لمن تضرر بالصلاة قائماً، والصلاة بالإيماء مضطجعاً، مستلقياً لمن تؤذيه الصلاة قاعداً.

ومثل ذلك الترخيص في الإفطار للحامل والمرضع إذا خافتا على أنفسهما أو ولديهما. وكذلك لمن كان مريضاً أو على سفر. ومثله الترخيص للمسافر في القصر والجمع في الصلاة.

وجاء في الحديث: «إن الله يحب أن تُؤتى رخصه كما يكره أن تُؤتى معصيته»[5].

---

(١) الأعراف: ١٥٧ (٢) البقرة: ٢٨٦ (٣) النساء: ٢٩
(٤) البقرة: ١٩٥ (٥) رواه أحمد.

وأنكر النبي ﷺ، على من شدد على نفسه، وصام في السفر، مع شعوره بشدة المشقة، وحاجته إلى الفطر، فقال في مثله: «ليس من البر الصيام في السفر»[1].

ومن هنا أصبح من القواعد الفقهية الأساسية المقررة لدى المذاهب الإسلامية كافة، هذه القاعدة الجليلة: «المشقة تجلب التيسير». وهي أصل له فروع كثيرة وفيرة في شتى أبواب الفقه. وقد ذكر العلامة ابن نجيم الحنفي في كتابه «الأشباه والنظائر» أمثلة عديدة مما تقرر في مذهب الحنفية، تفريعاً على هذه القاعدة، أو تأكيداً لها، لا يتسع المجال هنا لإثباتها، فليرجع إليها من شاء التوسع والتفصيل[2].

وهناك أشياء عديدة اعتبرتها الشريعة من أسباب التيسير والتخفيف، منها: المرض، والسفر، والإكراه، والخطأ، والنسيان، وعموم البلوى، ولكل منها أحكام فصلتها كتب الشريعة.

* * *

● مراعاة سنّة التدرج:

ومن تيسير الإسلام على البشر: أنه راعى معهم سنّة التدرج فيما شرعه لهم، إيجاباً أو تحريماً.

فتجده حين فرض الفرائض كالصلاة والصيام والزكاة، فرضها على مراحل ودرجات حتى انتهت إلى الصورة الأخيرة.

فالصلاة فُرضت أول ما فُرضَت ركعتين ركعتين، ثم أقرت في السفر على هذا العدد، وزيدت في الحضر إلى أربع، أعني الظهر والعصر والعشاء.

والصيام فُرِضَ أولاً على التخيير، من شاء صام، ومن شاء أفطر وفدى، أي أطعم مسكيناً عن كل يوم يفطره كما روى ذلك البخاري عن سلمة بن الأكوع،

---

(١) رواه البخاري.

(٢) راجع: الأشباه والنظائر ص٣٧ وما بعدها.

تفسيراً لقوله تعالى: ﴿ وَعلى الَّذينَ يُطيقُونَهُ فديَةٌ طَعَامُ مسْكِين، فَمَنْ تَطوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيرٌ لَهُ، وأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[1]. ثم أصبح الصيام فرضاً لازماً لكل صحيح مقيم لا عذر له: ﴿ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾[2].

والزكاة فُرضت أولاً بمكة مطلقة غير محددة ولا مقيدة بنصاب ومقادير وحول، بل تُركت لضمائر المؤمنين، وحاجات الجماعة والأفراد. حتى فُرضت الزكاة ذات النصب والمقادير في المدينة.

والمحرمات كذلك، لم يأت تحريمها دفعة واحدة، فقد علم الله سبحانه مدى سلطانها على الأنفس وتغلغلها في الحياة الفردية والاجتماعية.

فليس من الحكمة فطام الناس عنها بأمر مباشر يصدر لهم. إنما الحكمة إعدادهم نفسياً وذهنياً لتقبلها، وأخذهم بقانون التدرج في تحريمها. حتى إذا جاء الأمر الحاسم كانوا سراعاً إلى تنفيذه قائلين: سمعنا وأطعنا.

ولعل أوضح مثل معروف في ذلك هو تحريم الخمر على مراحل معروفة في تاريخ التشريع الإسلامي. حتى إذا نزلت الآيات الحاسمة في النهي عنها من سورة المائدة، وفي ختامها: ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُون ﴾؟[3] قال المؤمنون في قوة وتصميم: قد انتهينا يارب.

ولعل رعاية الإسلام للتدرج، هي التي جعلته يُبقي على نظام «الرق» الذي كان نظاماً سائداً في العالم كله عند ظهور الإسلام. وكان إلغاؤه يؤدي إلى زلزلة في الحياة الاجتماعية والاقتصادية. فكانت الحكمة في تضييق روافده بل ردمها كلها ما وُجد إلى ذلك سبيل، وتوسيع مصارفه إلى أقصى حد، فيكون ذلك بمثابة إلغاء للرق بطريق التدرج.

وهذه السُنَّة الإلهية في رعاية التدرج، ينبغي أن تُتبع في سياسة الناس، وعندما يُراد تطبيق نظام الإسلام في الحياة، واستئناف حياة إسلامية متكاملة.

---

(١) البقرة ١٨٤ (٢) البقرة ١٨٥ (٣) المائدة: ٩١

فإذا أردنا أن نقيم «مجتمعاً إسلامياً حقيقياً» فلا نتوهم أن ذلك يتحقق بجرة قلم. أو بقرار يصدر من ملك أو رئيس، أو مجلس قيادة أو برلمان.

إنما يتحقق ذلك بطريق التدرج، أعني بالإعداد والتهيئة الفكرية والنفسية، والأخلاقية والاجتماعية.

وهو نفس المنهاج الذي سلكه النبي ﷺ لتغيير الحياة الجاهلية، إلى حياة إسلامية، فقد ظل ثلاثة عشر عاماً في مكة، كانت مهمته فيها تنحصر في تربية الجيل المؤمن، الذي يستطيع فيما بعد أن يحمل عبء الدعوة، وتكاليف الجهاد لحمايتها ونشرها في الآفاق.

ولهذا لم تكن المرحله المكية مرحلة تشريع وتقنين، بل مرحلة تربية وتكوين.

وكان القرآن نفسه فيها يعنى - قبل كل شيء - بتصحيح العقيدة وتثبيتها ومد أشعتها فى النفس والحياة، أخلاقاً وأعمالا صالحة، قبل أن يعنى بالتشريعات والتفصيلات.

* * *

● النزول عن المثل الأعلى الى الواقع الأدنى:

ومن دلائل الواقعية فى الشريعة: أنها - مع حرصها البالغ على الوصول إلى المثل الأعلى، والوجه الأكمل فى تطبيق أحكامها - لا تغمض عينيها عن الواقع العملى الذى يعيشه الناس، محلقة فى مثالية لا وجود لها. بل نجدها تنزل الى أرض الواقع لتكيف أحكامها الفرعية تبعاً له، حتى لا تهدر مصالح العباد، وتعطل مسيرة الحياة.

ولذلك أمثلة كثيرة:

منها: أن الواجب هو عزل ولى الأمر الفاجر الجائر، ولكن الفقهاء أجازوا الإبقاء عليه اذا كان خلعه وعزله سيؤدى إلى فتنة أكبر، ارتكابا لأخف الضررين، وتفويتاً لأدنى المصلحتين. ولهذا كان من قواعدهم التى أصّلوها: الضرر يُزال، ولكنهم قَيّدوها بقاعدة · الضرر لا يُزال بالضرر، وقاعدة: الضرر الأدنى لا يُزال بالضرر الأعلى.

ويدخل فى هذا: تغيير المنكر بالقوة إذا أدى إلى منكر أكبر منه.

ومنها: أن الأصل فى الشريعة أن تكون الإمامة - أى رئاسة الدولة - بالاختيار والبيعة، تطبيقاً لمبدأ الشورى. ومع هذا أجازت الشريعة إمامة المتغلب بالقوة، منعاً للفتنة، وسداً لباب الفوضى، وحتى لا تتعطل أمور الناس. وقد قيل: إمام غشوم خير من فتنة تدوم.

ومنها: أن الأصل فى كل من الإمام والقاضى أن يكون فقيهاً مجتهداً قادراً بنفسه على استنباط الأحكام من أدلتها. ولكن لما غلب التقليد، وسادت المذهبية الضيقة، أجازوا تولية المقلد فى منصبى الإمامة والقضاء.

ومن ذلك ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية من صفات يجب أن تتوافر فى كل من يلى منصباً أو ولاية فى دولة الإسلام، حيث ذكر[1] : أن الولاية لها ركنان: القوة والأمانة كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ ﴾[2] .

قال: والقوة فى كل ولاية بحسبها. فالقوة فى إمارة الحرب ترجع إلى شجاعة القلب، وإلى الخبرة بالحروب والمخادعة فيها - فإن الحرب خدعة، وإلى القدرة على أنواع القتال..

والقوة فى الحكم ترجع إلى العمل بالعدل الذى دل عليه الكتاب والسنة وإلى القدرة على تنفيذ الأحكام.

والأمانة ترجع إلى خشية الله، وألا يُشترى بآياته ثمناً قليلاً وترك خشية الناس. وهذه الخصال الثلاث التى اتخذها الله على كل حاكم على الناس، فى قوله تعالى: ﴿ فَلا تَخْشَوا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتِى ثَمَناً قَلِيلاً، وَمَن لَم يَحْكُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِك هُمُ الكَافِرُونَ ﴾[3] .

هذا هو الوالى أو الموظف الذى تطمح إليه الشريعة الإسلامية، وتهدف إليه التربية الإسلامية، ولكن هل يتوافر القوى الأمين لكل منصب دائما؟؟

---

(١) في كتابه السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية ص١٤. ١٥.
(٢) القصص : ٢٦ (٣) المائدة : ٤٤

هنا ينزل الامام ابن تيمية الى الواقع فيقول:

«اجتماع القوة والأمانة فى الناس قليل، ولهذا كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول: « اللّهم أشكو إليك جلد الفاجر، وعجز الثقة » فالواجب فى كل ولاية الأصلح بحسبها، فإذا تعين رجلان أحدهما أعظم أمانة، والآخر أعظم قوة، قُدِّمَ أنفعهما لتلك الولاية، وأقلهما ضررا فيها، فيقدم فى إمارة الحروب الرجل القوى الشجاع، وإن كان فيه فجور فيها، على الرجل الضعيف العاجز، وإن كان أميناً، كما سُئِلَ الامام أحمد عن الرجلين يكونان أميرين فى الغزو، وأحدهما قوى فاجر والآخر صالح ضعيف، مع أيهما يُغزى؟ فقال: أما الفاجر القوى، فقوته للمسلمين وفجوره على نفسه، وأما الصالح الضعيف، فصلاحه لنفسه، وضعفه على المسلمين، فيُغزى مع القوى الفاجر، وقد قال النبى ﷺ : «إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر» ورُوي: «بأقوام لا أخلاق لهم» فإن لم يكن فاجراً، كان أولى بإمارة الحرب ممن هو أصلح منه فى الدين، إذا لم يَسُدْ مسده»[1] .

ومما ذكره ابن تيمية هنا: أن بعض العلماء، سُئل: إذا لم يوجد من يُولى القضاء، إلا عالم فاسق، أو جاهل دَيِّن[2] فأيهما يُقدم؟

فأجاب العالم: إن كانت الحاجة الى الدين أكثر لغلبة الفساد، قُدِّمَ الدِّين، وإن كانت الحاجة إلى العلم أكثر، لخفاء الحكومات (القضايا المعروضة) قُدِّمَ العالم.

قال: وأكثر العلماء يُقَدِّمون ذا الدين[3] .

ومن الجميل هنا: أن نجد شيخ الإسلام يقرر هنا أمراً على غاية من الأهمية، وهو أن النزول عن المثالية المنشودة إلى حكم الواقع الموجود، ليس معناه الاستسلام للواقع الهابط والرضا به، والسكوت عليه، بل ينبغى أن تظل الأعين رانية والأعناق مشرئبة، والعزائم مشدودة لتحويل الواقع إلي ما هو أمثل وأفضل، فالوضع الطارىء للضرورة لايجوز أن يأخذ صفة الاستمرار، وطابع

---

(١) السياسة الشرعية ص١٦ ١٧. (٢) بفتح الدال وتشديد الياء.

(٣) المصدر السابق ص ٢.

الثبات والدوام، بل يجب التخطيط والإعداد المدروس للانتقال إلى الوضع الطبيعي والمنطقي للأمة المسلمة، ولو بطريق التدريج.

وفي هذا يقول الشيخ:

«ومع أنه يجوز تولية غير الأهل للضرورة إذا كان أصلح الموجود، فيجب مع ذلك السعي في إصلاح الأحوال، حتى يكمل في الناس ما لا بد لهم منه، من أمور الولايات والإمارات ونحوها، كما يجب على المعسر السعي في وفاء دينه، وإن كان في الحال لا يُطلب منه إلا ما يقدر عليه»[1].

وثمة أمور أخرى، وأمثلة عديدة، نلمس فيها واقعية الشريعة، من ذلك ما قرره المحقق ابن القيم في قوله:

«إذا لم يجد السلطان من يُوليه، إلا قاضياً عارياً عن شروط القضاء، لم يعطل البلد عن قاض، وولى الأمثل فالأمثل.

ونظير هذا: لو كان الفسق هو الغالب على أهل البلد، وإن لم نقبل شهادة بعضهم على بعض وشهادته له، لتعطلت الحقوق وضاعت، قبل شهادة الأمثل فالأمثل.

ونظير هذا: لو غلب الحرام والشبه حتى لم يجد الحلال المحض، فإنه يتناول الأمثل فالأمثل.

ونظير هذا: لو شهد بعض النساء على بعض بحق في بدن، أو مال، أو عرض وهن منفردات بحيث لا رجل معهن، كالحمَّامات والأعراس، قُبِلَ شهادة الأمثل فالأمثل منهن قطعاً، ولا يضيع الله ورسوله حق المظلوم ويعطل إقامة دينه في مثل هذه الصور أبداً، بل نبَّه الله على قبول شهادة الكفار على المسلمين في السفر في الوصية في آخر سورة نزلت، ولم ينسخها شيء البتة، ولا نَسخ هذا الحكم كتاب ولا سنة، ولا اجتمعت الأمة على خلافه، ولا يليق بالشريعة سواه، فإن الشريعة شُرعت لتحصيل مصالح العباد بحسب الإمكان.

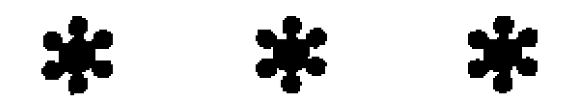
---

(١) المصدر نفسه ص: ٢١.

وأى مصلحة لهم فى تعطيل حقوقهم إذا لم يحضر أسباب تلك العقود شاهدان حران، ذكران، عدلان، بل إذا قلتم: تُقبل شهادة النساء حيث لا رجل، ويُنَفَّذ حكم الفاسق إذا خلا الزمان عن قاض عادل عالم، فكيف لا تُقبل شهادة النساء إذا خلا جمعهن عن رجل، أو شهادة العبيد. إذا خلا جمعهم عن حر، أو شهادة الكفار بعضهم على بعض إذا خلا جمعهم عن مسلم »؟(١).

هذا هو الإسلام، وهذه هى واقعيته فى كل مجال من المجالات: لا يكلف الناس شططاً، ولايرهقهم عسراً، ولا يجعل عليهم حرجاً، يحاول أن يرقى بهم ليصعدوا ويرتفعوا، ولكنه لا يهملهم إذا هبطوا. إنه يريدهم أصحاء أقوياء، ولكنهم إذا مرضوا عالجهم وساعدهم حتى يشفوا وينهضوا.

إنه منهج الفطرة، منهج الله، الذى يتعانق فيه الواقع والمثال.



(١) انظر: الفواكه العديدة في المسائل المفيدة في الفقه الحنبلي. تأليف: العلامة أحمد بن محمد المنقور. جـ٢ ص١٨٢-١٨٣.

الفصل السادس

الوُضُوحُ

الوضوح هو إحدى الخصائص العامة للإسلام ، سواء فيما يتعلق بالأصول والقواعد ، أم بالمصادر والمنابع ، أم بالأهداف والغايات ، أم بالمناهج والوسائل.

وسنحاول بيان ذلك بإيجاز فيما يلى:

أولاً – وضوح الأصول والقواعد الإسلامية:

أول مظاهر الوضوح فى الإسلام: أن أصوله ودعائمه الكبرى واضحة بينة ، لا لزعمائه وقادة الفكر والدعوة إليه فقط ، ولا لخاصة المثقفين من أتباعه وأنصاره فحسب ، بل لجمهرة المؤمنين به أياً كانوا ، يستوى فى ذلك الأصول الاعتقادية ، والشعائر التعبدية ، وأمهات الفضائل الخُلقية ، والأحكام التشريعية.

• وضوح الأصول الاعتقادية:

وأول ما يبدو هذا الوضوح فى الأصول الاعتقادية فى الإسلام من الإيمان بالله ورسالاته ، وبالدار الآخرة.

(أ) عقيدة التوحيد:

فتوحيد الله تعالى – وهو أصل الأصول – لا يجهله مسلم ، أياً كان جنسه ، أو لونه ، أو طبقته ، أو حظه من التعلم ، فقد عُرف من كلمة التوحيد وأولى الشهادتين «لا إله إلا الله» أن لا مكان فى الإسلام لتأليه بشر أو حجر ، أو شىء فى الأرض أو فى السماء ، بل لله مَنْ فى السموات ومن فى الأرض ، وما فى السموات وما فى الأرض. ولهذا كانت رسالة محمد ﷺ إلى ملوك الأرض وزعمائها: ﴿ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾[1] .

---

(١) آل عمران: ٦٤

إن قضية التثنية فى الألوهية - إله الخير والنور وإله الشر والظلمة - وقضية التثليث فى الوثنيات القديمة أو فى المسيحية المتأثرة بها «الأب والابن والروح القدس» لا تتمتع واحدة منها بالوضوح لدى المؤمنين بها . ولهذا تعتمد على الإيمان بغير برهان: «اعتقد وأنت أعمى». أو «أغمض عينيك ثم اتبعنى»!

بخلاف قضية التوحيد فهى تستند إلى العقل ، وتعتمد على البرهان ، يقول القرآن للمشركين: ﴿ أإلَهٌ مَعَ اللَّهِ، قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾[1] .

ويقيم الأدلة على الوحدانية بمثل قوله: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾[2] . ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إلَهٍ ، إذاً لَذَهَبَ كُلُّ إلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[3] .

فالتوحيد فى حد ذاته قضية واضحة فى ضمير كل مسلم ، ودليلها أيضاً واضح فى فكره ، كما أن أثرها كذلك واضح فى حياته. كيف لا وهو يستقبل الحياة بالتوحيد « حيث يُسَن أن يُؤذِّن أبوه أو وليه فى أذنيه» كما يودع الحياة بالتوحيد «حيث يُسَن أن يُلقن المحتضر: لا إله إلا اللّه».

(ب) عقيدة الجزاء الأخروى:

والإيمان بالجزاء فى اليوم الآخر ، وأن الدنيا مزرعة الآخرة ، وأنها دار ممر ومتاع إلى حين ، وأن الآخرة هى دار القرار ، ودار الجزاء ، فيها تُوفى كل نفس ما كسبت وتُجزى بما عملت: ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾[4] .

والإيمان: بأن هناك داراً لمثوبة الأبرار ، فيها - من النعيم المادى والروحى - ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر: ﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[5] وهذه هى الجنة.

---

(١) النمل: ٦٤ — (٢) الأنبياء: ٢٢ — (٣) المؤمنون: ٩١

(٤) الزلزلة: ٧-٨ — (٥) السجدة: ١٧

وداراً أخرى لعقوبة الفجار ، فيها - من العذاب الحسى والمعنوى - ما لا يقدر قدره الا الله ، وهذه هى النار ، التى أعدت للكافرين ، وحذَّرَ الله منها عباده المؤمنين: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾(1) .

ومعنى هذا: أن مصير كل إنسان ليس بيد كاهن أو قديس ، إنما مصير الناس بأيديهم أنفسهم ، حسبما تشهد لهم صحائفهم ، وتحكم لهم أو عليهم موازينهم: ﴿ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾(2) .

هذا الإيمان أصل أصيل لا يخفى على مسلم فى شرق أو غرب.

(جـ) الإيمان برسالات السماء:

والإيمان برسالات السماء كلها ، وما أنزل الله من كتب ، وما بعث من رسل ، يهدون إلى الحق ، ويدعون إلى الخير ، ويأخذون بأيدى الناس إلى الله ، ويدلونهم على طريق مرضاته ، ويضعون لهم قواعد العدل ، وضوابط السلوك ، لتستبين لهم الغاية ، ويتضح لهم السبيل ، ولا يكون لأحد عذر فى الضلال والانحراف: ﴿ رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾(3) ، ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾(4) .

وقد بعث الله فى كل أمة رسولاً هادياً ، وختمهم بمحمد ﷺ الذى بعثه الله ليتمم به مكارم الأخلاق ، وجعل أمته خير أمة أخرجت للناس ، وميَّزَ رسالته بالعموم والخلود والصلاحية لكل زمان ومكان ، وأنزل عليه كتاباً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.. هذا أصل ثالث لا ريب فيه ، ولا خلاف عليه.

---

(1) التحريم: ٦.
(2) المؤمنون: ١٠٢ ، ١٠٣.
(3) النساء: ١٦٥.
(4) الحديد: ٢٥.

هذا الإيمان برسل الله كافة ، ركن من أركان العقيدة الإسلامية ، لا يجهله مسلم ، شأنه شأن الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ، وباليوم الآخر.

وقضية النبوة والرسالة فى ذهن المسلم وشعوره واضحة متميزة تماماً عن قضية الربوبية والألوهية. فالرسل ليسوا إلا بشراً مثلنا ميَّزهم الله بالوحى ، وليسوا آلهـة ولا أبناء آلهـة: ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ، كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامِ ﴾![1] . ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، أَفَئِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴾؟[2] . ﴿ قَالَتْ لَهُم رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾[3] .

هذا الوضوح المشرق فى العقيدة الإسلامية بالنظر إلى الأنبياء عامة والى محمد خاصة ، يقابله غموض مطبق فى العقائد الأخرى ، وأبرزها: المسيحية التى لم يتضح لأتباعها حقيقة المسيح: ما هى؟ حتى أنهم عقدوا المجامع تلو المجامع للبحث فى طبيعة المسيح ما هى؟ أهو إله؟ أم ابن إله؟ أم بشر خالص؟ أم بشر حل فيه الإله؟ أم جزء من أقانيم ثلاثة يتكون منها الإله: هي الآب والابن والروح القدس؟ .. والروح القدس نفسه اختلفوا فيه ما هو وما علاقته بالأقنومين الآخرين؟ وأم المسيح التي ولدته ما هي أيضاً؟ وما نصيبها من اللاهوت والناسوت أو الإلهية والبشرية؟

كل هذه الأسئلة وغيرها كانت مجالاً للبحث والجدل والاختلاف والتفرق ، بحيث نشأت حولها فرق وطوائف يُكَفِّر بعضها بعضاً ، ويلعن بعضها بعضاً ، حتى أصبحت وكأنها أديان متباعدة لا نحَل في دين واحد.

* * *

(١) المائدة: ٧٥ (٢) آل عمران: ١٤٤ (٣) إبراهيم: ١١

• وضوح الشعائر التعبدية:

ومن مظاهر الوضوح في الإسلام أن أركانه العملية ، وشعائره التعبدية واضحة للخاص والعام ، ويكاد كل المسلمين - حتى صبيانهم - يحفظون الحديث النبوي المشهور المتفق عليه: «بُنِيَ الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً».

فالصلاة ، وهي الفريضة اليومية - معروفة بعددها - خمس صلوات في اليوم والليلة - ومواقيتها وأعداد ركعاتها ، وأركانها ، وشروطها. ومجمل هيئاتها من بدء افتتاحها بالتكبير إلى اختتامها بالتسليم. ثم ما وراء هذه الفرائض من نوافل ومكملات في الليل والنهار ، وما شُرِعَ لها من أذان متميز ، وجماعة يزداد ثوابها كلما كثر أفرادها ، لتعمر بها بيوت أذِنَ الله أن تُرفع ويُذكر فيها اسمه.

والزكاة - وهي العبادة المالية الاجتماعية - معروفة إجمالياً لكافة المسلمين ، فهي تؤخذ من أغنيائهم لترد على فقرائهم. فلا تجب إلا على من يملك النصاب بشروطه ، وهي طُهرة للنفس والمال. وهي تجب في المال بحسب نوعه ، ما بين العشر ونصف العُشر. وهي تجب في كل حَوْلٍ مرة في غير الزروع والثمار التي تجب زكاتها عند الحصاد.

وصيام رمضان - وهو الفريضة السنوية الدورية - معلوم لكل الأمة الإسلامية ، زمنه معلوم ، فهو شهر قمري محدود البداية والنهاية ، ووقت الصيام كل يوم معلوم ، من تبين الفجر إلى غروب الشمس. ونوع الصيام معلوم ، فهو إمساك عن الأكل والشرب ومباشرة النساء (أي: عن شهوتي البطن والفرج).

وآداب الصيام ومكملاته معلومة: من تعجيل الفطور وتأخير السحور ، والكف عن اللغو والرفث ، والحرص على قيام الليل ، والإكثار من الطاعات ، والإحسان إلى الناس.

والشعيرة الرابعة حج البيت ، وهي فريضة العمر - واضحة معلومة إجمالاً

لجماهير المسلمين ، لا يجهل أحد فيهم ركنية هذه الفريضة للدين ، وأن مكانها مكة المكرمة. وأن الحاج لابد له من الإحرام والطواف ببيت الله الحرام ، والسعي بين الصفا والمروة. والوقوف بعرفات ، والمبيت بمزدلفة ومنى ، ورمى الجمار والحلق أو التقصير.

فهذه الفرائض الدينية ، والشعائر التعبدية ، واضحة تمام الوضوح فى ذهن المسلم بتركيز وإجمال ، فإذا أراد التفصيل. فما عليه إلا أن يحضر بعض الدروس ، أو يقرأ شيئا من الكتب ، أو يسأل أهل الذكر! وكل ذلك ميسور غير معسور.

وقبل ذلك كله لا يجهل مسلم أن العبادة هى المهمة الأولى للإنسان فى الحياة: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُون ﴾[1] ، وأن روح العبادة هو النية والإخلاص لا مجرد الشكل والرسم: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾[2] .

* * *

- **الأصول الأخلاقية:**

ومن الأصول الإسلامية الواضحة: ما يتعلق بالجانب الأخلاقى ، فأمهات الفضائل التى أمر الشرع بها ، وحَثَّ عليها ، معروفة غير منكورة ، وأمهات الرذائل التى حَذَّر الشرع منها ، ونهى عنها ، معلومة غير مجهولة.

لا يجهل مسلم أن الله يأمر بالعدل والإحسان بالوالدين وبذي القُربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجُنب والصاحب بالجَنب وابن السبيل.

ولا يجهل مسلم أن الإسلام يبارك فضائل الصدق والأمانة والوفاء والصبر والعفاف والحياء والسخاء والشجاعة والحلم والإيثار والتعاون على البر والتقوى.

ولا يجهل مسلم أن الله ينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، ولا يحب الفساد ، ولا يحب الخائنين ، وأن آية المنافق إذا حَدَّثَ كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان ، وأن من الكبائر الموبقات: أكل الربا وأكل مال اليتيم.

---

(١) الذاريات : ٥٦ (٢) البينة : ٥

ولا يجهل مسلم شناعة الجرائم التى فرض الله الحدود عقوبة عليها ، مثل قتل النفس عمداً ، والسعى فى الأرض فساداً بقطع الطريق وترويع الآمنين ، والسرقة ، والزنا ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات. وشرب الخمر.

وقبل ذلك كله ، لا يجهل مسلم قيمة العنصر الأخلاقى فى الحياة ، ومنزلته فى الإسلام ، حتى أن العبادات الإسلامية تهدف إلى ثمرات أخلاقية ، فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، والزكاة التى تؤخذ من الأغنياء تطهرهم وتزكيهم ، والصوم تربية للإرادة وتعليم للصبر: ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾[1] والحج تدريب على التحمل والبذل.

حتى أن الرسول الكريم ﷺ ليعلن عن أهمية الأخلاق فى رسالته فيقول: «إنما بُعِثتُ لأتمم مكارم الأخلاق».

* * *

- وضوح الآداب:

ويتبع الأخلاق الآداب فى وضوحها: أدب الأكل والشرب ، أدب النوم والتيقظ ، أدب اللباس والزينة ، أدب الجلوس ، أدب المشى ، أدب الزيارة والاستئذان ، أدب التحية واللقاء ، أدب الحديث ، إلى غير ذلك من الآداب.

فأسس هذه الآداب ، وأصولها الهامة واضحة معلومة.

فكل مسلم يعلم أنه يُسَنُّ له عند الأكل أن يأكل بيمينه ، ويبدأ باسم الله ، ويختم بالحمد لله.

وأنه ينبغى أن ينام على ذِكر الله ، ويستيقظ على ذِكر الله.

وأنه لا يجوز للرجل لبس الحرير ، ولا أن يلبس لبسة المرأة ، ولا للمرأة أن تلبس لبسة الرجل. ومن هنا يستطيع المسلمان أن يتعارفا بكل يسر إذا التقيا دون أن يُعَرِّف كل منهما بنفسه ، ويستطيع غير المسلم أن يعرف المسلمين من غيرهم لأول وهلة ، بمجرد إلقاء التحية «السلام عليكم» أو ردها «وعليكم السلام» أو الأكل باليمين ، أو «الحمد لله» عند العطاس ، أو تشميت العاطس ، ونحو ذلك مما يكشف عن شخصية المسلم.



(١) البقرة: ١٨٧

● وضوح الشرائع الإسلامية:

ومن مظاهر الوضوح في الإسلام وضوح شرائعه وقوانينه ، أعني الأساسية القطعية منها ، سواء في المجال الفردي أو الأسري أم الاجتماعي.

فكل مسلم يعلم بوضوح أنه يحرم عليه أكل الميتة والدم ولحم الخنزير ، وما أُهِلَ لغير الله به. كما يحرم عليه شرب الخمر ولعب الميسر.

وكل مسلم يعلم أنه لا يحل له الزواج من أمه أو بنته أو إحدى محارمه من النسب أو الرضاع أو المصاهرة.

ويعلم أنه يحل له الطلاق والمراجعة مرتين ، ثم لا تحل له المطلقة من بعد حتى تنكح زوجاً غيره. وأن كل امرأة لا بد أن تعتد إذا فارقت زوجها بطلاق أو وفاة.

وكل مسلم يعلم أن الله قد أحل البيع وحرَّم الربا ، وأنه شرع القصاص من القاتل المتعمد ، كما شرع الحدود والعقوبات المقدرة بالنص في مواضع معروفة على جرائم معلومة ، هي السرقة والزنا والقذف وقطع الطريق والسُكر.

وكل مسلم يعلم أن تحرير أرض الإسلام من الأعداء فريضة ، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب ، وأن من حكم بغير ما أنزل الله يُوصف بالكفر والظلم والفسوق.

* * *

ثانياً – وضوح مصادره:

ومن مظاهر الوضوح في النظام الإسلامي أن له مصادر محدده بينة ، تُستقى منها فلسفته النظرية ، وتشريعاته العملية.

فالمصدر الأول هو كتاب الله: القرآن ، الذي: ﴿ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾[1] .

ومن خصائص هذا القرآن أنه «كتاب مبين» حتى أن مُنَزِّله – سبحانه – سمَّاه «نوراً» و «هُدى للناس» و «فُرقاناً» و «برهاناً» و«بيِّنة». وما ذلك إلا لشدة بيانه ووضوحه. قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً ﴾[2] وخاطب أهل الكتاب بقوله: ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ

(١) هود : ١ (٢) النساء : ١٧٤

مِنَ اللَّهِ نُورٌ وكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾[1]

وخاطب الرسول المُنَزَّل عليه هذا القرآن بقوله: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾[2] .

واذا كان فى هذا الكتاب آيات متشابهات تحتمل اكثر من فهم ، بحكم طبيعة اللغة وتنوع دلالات الألفاظ فيها بين الحقيقة والمجاز بأنواعه ، وبمقتضى طبيعة البشر وما جُبلوا عليه من تفاوت فى الفهم والاستنباط ، وبموجب طبيعة الإسلام الذى يحث على الاجتهاد واستعمال العقول ، ولا يضيق بالخلاف إذا لم يؤد الى عصبية أو تفرق - فإن هذه الآيات ليست شيئاً كثيراً إذا قيست إلى الآيات المحكمات (الواضحات الدلالة أو القاطعات) فهن - كما ذكر القرآن نفسه: «أم الكتاب» أى أصله ومعظمه ، وإليها تُرد المتشبهات فيُصَدِّق بعض الكتاب بعضاً ، ولا يُضرب بعضه ببعض ، شأن الذين يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله.

ومن نعمة الله، أن ليس في الدنيا كتاب توفرت على فهمه وتفسيره كبار العقول في مختلف الأعصار والأمصار، من شتى الثقافات والمعارف، مثلما يَسَّرَ الله للقرآن العظيم.

والمصدر الثانى: سنة محمد ﷺ .

ونعني بها ما ثبت عن النبى ﷺ من قول أو فعل أو تقرير. فهذه السنة هى الشرح النظرى ، والتطبيق العملى ، للقرآن الكريم. فأعظم تفسير لكتاب الله يتجلى فى سيرة رسول الله ﷺ وفى حياته الحافلة ، وسنته الشاملة ، حتى تستطيع أن تقول عنه: إنه قرآن متحرك يمشى على قدمين ! قالت فيه زوجه عائشة: «كان خُلُقُهُ القرآن».

وحسبنا قوله تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[3] .

وقوله سبحانه: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴾[4] .

---

(١) المائدة: ١٥ ، ١٦ — (٢) النحل: ٨٩
(٣) النحل: ٤٤ — (٤) الأحزاب: ٢١

ومما يلحق بهذه السنة المحمدية: سنة الخلفاء الراشدين المهديين بعد محمد ﷺ الذين نشأوا في حجر النبوة ، ونهلوا من معين الرسالة ، وكانوا في حياتهم امتداداً لرسولهم ومعلمهم ﷺ ، فما أثر عنهم مما اتفقوا عليه جميعهم ، أو عن طائفة ، ولم ينكره عليهم أصحابهم ، فهو سنه بها يُقتدى فيُهتدى ، كما جاء في الحديث: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عَضُّوا عليها بالنواجذ».

وما عدا ذلك فكل واحد يُؤخذ من كلامه ويُترك ، لا عصمة لمجتهد ، وإن علا كعبه في العلم والتقوى. وهو - على أى الحالين - أصاب أو أخطأ - غير محروم من الأجر ، إن أصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر. وقد عَقَّبَ القرآن على حكم داوود وسليمان في غنم القوم بقوله: ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ، وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً ﴾[1] فاختص بالفهم أحدهما ، ووصف بالحكم والعلم كليهما.

* * *

ثالثاً - وضوح الأهداف والغايات:

ومن مظاهر الوضوح في نظام الإسلام: وضوح الأهداف والغايات. فغاية الإسلام كله واضحة أمام عيني كل مسلم ، يكفى أن يقرأ المسلم هذه الآية من كتاب ربه ، فيعرف بإجمال وتركيز تلك الغاية الكريمة ، حيث يقول تعالى مخاطباً رسوله في شأن القرآن: ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾[2] .

غاية الإسلام بإجمال هي إخراج الناس من الظلمات إلى النور ، وفَسِّر الظلمات بما شئت من الجهل، أو الشرك ، أو الشك، أو الظلم ، أو الحقد .. أو غير ذلك ، فلا حرج عليك ، فكلها ظلمات ، تظلم بها النفس ، وتظلم بها الحياة معاً.

وفَسِّر النور بما شئت من العلم، أو التوحيد، أو اليقين، أو العدل، أو الحب .. أو غير ذلك ، فلا حرج عليك ، فكله نور ، تضيء به النفس ، وتضيء به الحياة أيضاً.

ورحم الله ربعى بن عامر الأعرابى المسلم الذى وعى هذه الغاية وتمثلها فى ضميره ثم عَبَّر عنها أمام القائد الفارسي رستم فأوجز وأبلغ ، وأحسن كل الإحسان ، حين

---

(١) الأنبياء : ٧٩ (٢) إبراهيم : ١

سأله رستم: من أنتم؟ فأجابه بقوله: نحن قوم ابتعثنا الله لنُخرج من شاء من عبادة العباد إلي عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جَور الأديان إلى عدل الإسلام.

ويكفى أن يكون المسلم على شيء من الفقه في دينه ، ليعلم أنه يهدف إلى تكوين الفرد الصالح ، والأسرة الصالحة ، والأمة الصالحة.

* * *

- تكوين الفرد الصالح:

والفرد هو اللَّبنة ، التى يتكون منها البناء الاجتماعى كله ، ولهذا اشتدت عناية الإسلام به فى كل مراحل حياته ، ولم يبخل عليه بالتشريع ولا التوجيه لأنه هو أساس الأسرة والمجتمع.

فإذا صلح الأفراد صلحت الأسر ، وإذا صلحت الأسر صلحت الجماعات والأمم.

وصلاح الإنسان الفرد فى نظر الإسلام لا يتم إلا بأمور أربعة اعتبرها القرآن شروط النجاة من الخسران والهلاك فى الدنيا والآخرة ، وهى التى تضمنتها سورة وجيزة من أقصر سور القرآن ، يحفظها الصغار والكبار ، والمتعلمون والأميون ، وهى سورة العصر ، التى يقول الله فيها: ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾[1] .

فالشرط الأول لصلاح الفرد - وهو الذى يمثل أساس البناء كله - هو الإيمان ، الذى يصح به تصور الإنسان لنفسه وللكون وللحياة ، ولرب الكون والحياة والإنسان ، فإن هذا التصور إذا فسد فسدت الحياة كلها من ورائه ، فسد العمل ، وفسد الخُلق ، وفسدت العلاقات.

إن صحة هذا التصور هى التى تُعَرِّف الإنسان بسر وجوده ، وغاية حياته ، وما وراء حياته ، فيؤمن أنه ليس ذرة تافهة ، ولا هباءة ضائعة ، وإنما هو مخلوق مُكَرَّمٌ يعيش لغاية كُبرى هى: خلافة الله فى الدنيا ، ورضوانه وجنته فى الآخرة.

---

(١) سورة العصر.

والشرط الثانى: هو عمل الصالحات ، فهذا هو ثمرة الإيمان ، ومظهره العملى ، فالإيمان ليس مجرد إدراك ذهنى أو انفعال عاطفى ، إنما هو حقيقة مشتركة من المعرفه والانفعال والنزوع ، تدفع بالإنسان إلى عمل الخير وترك الشر.

ولم يحدد القرآن «الصالحات» بشىء معين ، أو صورة خاصة ، بل تركها هكذا لتشمل كل ما يصلح به الإنسان بدنياً ونفسياً ، فردياً واجتماعياً، وكل ما تصلح به الحياة ، مادياً وروحياً ، حضارياً واخلاقياً ، من عبادات ومعاملات وآداب وأخلاق.

والشرط الثالث: هو التواصى بالحق ، وصيغة «التواصى» تدل على تفاعل من طرفين. ومعنى هذا أن يُوصى المؤمن غيره بالحق ، ويقبل منه الوصية بالحق ، وهذا يعطينا أن القرآن لا يتصور المؤمن إلا فى مجتمع يأخذ منه ويعطيه ، ولايتصوره راهباً فى صومعة ، أو منقطعاً فى فلاة.

وبهذا لا يكتفى القرآن من المسلم أن يكون صالحاً فى نفسه: سليم العقيدة صحيح العبادة ، حسن المعاشرة ، ثم يدع الحق مغلوباً ، والباطل غالباً ، والمعروف ضائعاً ، والمنكر ظاهراً قاهراً ، وهو لا يُحَرِّك ساكناً ، ولا ينطق صامتاً ، ولا يبذل جهداً ، إن المسلم لابد أن يعيش جندياً للحق ، يؤمن به ويحبه ، وينصره ويدعو اليه ، وهذا أساس فرضية الأمربالمعروف والنهى عن المنكر فى الإسلام.

والشرط الرابع: لازم للشرط الثالث ، وهو التواصى بالصبر ، فإن الذى يحمل رساله الحق ، يحتاج حتماً إلى الصبر ، يُوصى به نفسه ، ويُوصى به غيره ، ويُوصيه به مثله ، ممن آمن بمثل ما آمن به ، صاحب الحق لابد ان يُؤْذَى ، فلا بد أن يُوطن نفسه على الصبر ، ولهذا قال لقمان لابنه وهو يعظه: ﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ ، إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾[1] .

وهذه الأمور الأربعة - التى يصلح بها الفرد - واضحة بحمد الله ، وضوح «سورة العصر» لدى كل مسلم.

---

(١) لقمان: ١٧

ليس الفردَ الصالح فى الإسلام إذن هو الذى يعتزل الحياة فى صومعة ، يُعَمِّر الآخرة بخراب الدنيا ، ولكنه الذى يعمل للحياتين ، ويجمع بين الحسنيين: ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً ﴾[1] .

فمن التفت إلى الآخرة وحدها ، ولم يُعط للدنيا حقها ، وقد استخلفه اللّه فيها وأمره بعمارتها: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[2] ، ﴿ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾[3] فقد جار على دنياه ، وظلم نفسه حقها. وقد جاء في الحديث: «إن لبدنك عليك حقاً ، وإن لأهلك عليك حقا..» وقال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾[4] .

ومن جعل الدنيا أكبر همه ومبلغ علمه ، ومحور تفكيره وشعوره وسلوكه ، فقد ظلم آخرته وبخس نفسه ، وغفل عن مصيره ، بل عن سر وجوده ، وحق عليه قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾[5] .

ولا ريب أن غايات الناس تختلف اختلافاً كبيراً ، وتتفاوت تفاوتاً بيناً ، بحسب ما تهبط بهم شهواتهم الدنيا ، أو ترتقى بهم خصائصهم العليا.

ولو تُرِكَ الناس لغرائزهم وحدها لنزلت بهم إلى حضيض الأنعام ، أو كانوا أضل سبيلا. ولكن مهمة الدين أن يرقى بهم الى أفق الملائكة.. وأن يصل بهم صعوداً – على مدارج التقوى – إلى جنات ونَهَرْ ، فى مقعد صدق عنْدَ مليك مقتدر ، ورضوان من اللّه أكبر ، يقول اللّه تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ، ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ * قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ ، لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾[6] .

* * *

(١) البقرة: ٢٠١ — (٢) البقرة: ٣٠ — (٣) هود: ٦١
(٤) الأعراف: ٣٢ — (٥) النازعات: ٣٧-٣٩ — (٦) آل عمران: ١٤ـــ ١٥

- **تكوين الأسرة الصالحة:**

ويهدف الإسلام كذلك إلى تكوين الأسرة الصالحة السعيدة.

والأسرة الصالحة هى التى تظللها المعانى التى جعلها القرآن الكريم أهداف الحياة الزوجية وثمراتها. وهى السكون النفسي والمودة والرحمة. قال تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاته أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾[1] .

وقال تعالى فى تصوير العلاقة بين الأزواج والزوجات: ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ﴾[2] وكلمة اللّباس هذه تحمل من معانى الوقاية والستر والزينة والدفء والقرب والالتصاق ما لا يخفى.

والأسرة الصالحة هى التى تقوم على الدعائم الآتية:

١- أن يتم الزواج على التراضى دون ضغط ولا إكراه ولا غش من طرف لآخر.

٢- تبادل الحقوق والواجبات بين الزوجين بالمعروف: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾[3] .

٣- إيجاب المعاشرة بالمعروف دائماً ، وخاصة عند الإحساس بعاطفة الكراهية أو النفرة.

قال تعالى: ﴿ وعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً ﴾[4] .

٤- تكليف الزوج القوامة والإشراف والمسئولية عن الأسرة: ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾[5] ، ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾[6] .

---

(١) الروم: ٢١. (٢) البقرة: ١٨٧. (٣) البقرة: ٢٢٨.
(٤) النساء: ١٩. (٥) البقرة: ٢٢٨. (٦) النساء: ٣٤.

٥- تكليف الزوجة الإشراف والمسئولية عن البيت من الداخل: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته.... والرجل فى أهل بيته راع وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها وهى مسئولة عن رعيتها»(١) .

٦- وجوب الرعاية من الأبوين لأولادهم ، والعدل بينهم: «رحم الله والداً أعان ولده على بره» ، «اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم».

٧- وجوب بر الوالدين والإحسان بهم عامة ، وبالأم خاصة: ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾(٢) .

* * *

• تكوين المجتمع الصالح:

ويهدف الاسلام إلى تكوين المجتمع الصالح ، كما هدف إلى الفرد الصالح ، والأسرة الصالحة ، وهما لا شك أساس متين لصلاح المجتمع المنشود.

والمجتمع الصالح هو الذى يرتبط أفراده وأسره بقيم الإسلام العليا ، ومبادئه المثلى ، ويجعلها رسالة حياته ، ومحور وجوده.

وأهم القيم الإسلامية فى هذا المقام هى:

(أ) التجمع على العقيدة: فالمجتمع الإسلامى ليس مجتمعاً قومياً أو إقليمياً ، وإنما هو مجتمع عقائدى ، مجتمع فكرة وعقيدة ، وعقيدته هى الإسلام ، فهو الأساس «الأيديولوجى» لهذا المجتمع.

قد يكون أبناء هذا المجتمع من أجناس مختلفة ، أو ألوان مختلفة ، أو أوطان مختلفة ، أو ألسنة مختلفة ، أو طبقات مختلفة ، ولكن هذا الاختلاف كله يذوب وينصهر أمام وحدة العقيدة ، أمام «لا إله إلا الله - محمد رسول الله». أمام الإيمان المشترك الذى يضم الجميع فى رحاب أخوته: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾(٣) .

---

(١) متفق عليه. (٢) لقمان : ١٤ (٣) الحجرات : ١٠

فإذا أردنا أن نصف هذا المجتمع بصفة فذة تميزه عما سواه ، لم نجد إلا أن نقول: إنه «مجتمع مؤمن» أو هو «مجتمع المؤمنين» أولئك الذين وصفهم الله تعالى في مطلع سورة البقرة بقوله: ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[1] .

والإيمان الإسلامي ليس مجرد شعار أو دعوى ، أو تعصب على الآخرين ، وإنما هو حقيقة تستقر في النفس ، ينبثق عنها سلوك ، ويُصَدِّقها عمل إيجابي.

ومن هنا جاء الاهتمام بقيمة أخرى من القيم التي يقوم عليها المجتمع الصالح الذي يهدف الإسلام إلى تحقيقه وهي:

(ب) «احترام العمل الصالح» بل تقديسه - سواء أكانت صبغته دينية كالصلاة والصيام والحج والعمرة ، والذكر والتلاوة والدعاء.. أم دنيوية ، كالسعي في طلب الرزق ، وعمارة الأرض ، ومنفعة الناس ، والإحسان إليهم ، هو كذلك أصل مقرر معروف ، اعتبره القرآن ركناً في كل دين ، مقروناً بالإيمان بالله واليوم الآخر. قال تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّه وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[2] .

وقرن القرآن العمل بالإيمان في أكثر من سبعين آية ، في مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴾[3] .

ولا ريب أن إقامة شعائر الله ، وأداء فرائضه الكبرى - من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان وحج البيت هي أول ما ينطبق عليه معنى العمل الصالح.

---

(١) البقرة : ٣ - ٥.   (٢) البقرة : ٦٢.   (٣) الكهف : ٣٠.

فليس هناك عمل أصلح للمخلوق من معرفة خالقه ، وعبادة ربه ، واخلاص الدين له ، شكراً لنعمته ، ووفاء بحق ربوبيته.

•(جـ) والدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، أصل بين من أصول هذا الدين ، فليس يكفى - فى منطق الإسلام - أن يكون المرء صالحاً فى خاصة نفسه ، غافلا عن فساد غيره ، بل الصالح عنده حقاً ، من أصلح نفسه ، وحاول إصلاح غيره ، ولو بالدعوة والأمر والنهي. كما قال تعالى: ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[1] . وبهذه الخصيصة ترجحت الأمة على سائر الأمم: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾[2].

ومن هنا سجّل القرآن لعنة الله لبنى إسرائيل - على لسان داوود وعيسى ابن مريم - لسكوتهم عن المنكر ، وعدم تناهيهم عنه: ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾[3].

(د) والجهاد فى سبيل الله - حماية للحق ، وتثبيتاً للخير ، وتأميناً للدعوة ، ومنعاً للفتنة ، وصداً للمغيرين ، وتأديباً للناكثين ، وإنقاذاً للمستضعفين - أصل الإسلام لاينكره مسلم ، ولا يجهل منزلته وفضله ، وما أعد الله لأهله ، فضلاً عن مشروعيته ، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ، أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ، فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ * إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[4] . وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا ﴾[5] . ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ

---

(١) آل عمران: ١٠٤ (٢) آل عمران: ١١٠ (٣) المائدة: ٧٨ - ٧٩
(٤) التوبة: ٣٨ - ٣٩ (٥) النساء: ٧١

قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ ﴾[1] .

(هـ) وتثبيت الفضائل الخُلُقية كلها في شتى جوانب الحياة ونشرها وحمايتها من العدل والإحسان والبر والصلة والتعاون على البر والتقوى واحترام النظام ، والصدق والعفاف ، ورعاية الأمانة والوفاء بالعهد ، والإخلاص في السر والعلانية ، وقول الحق في الغضب والرضا ، والقصد في الفقر والغنى ، والصبر في البأساء والضراء وحين البأس ، وكف اليدين واللسان عن إيذاء الناس ، وطهارة القلب من الغل والحسد والرياء والنفاق ، وحب الدنيا ، وسائر أمراض النفوس - كلها من الركائز المعنوية التي لا يقوم مجتمع مسلم إلا عليها.

* * *

رابعاً - وضوح المناهج والطرق:

ويتميز الإسلام كذلك بوضوح مناهجه وطرقه التي وضعها للوصول إلى غاياته المثلى وأهدافه العليا:

(أ) من عبادات وشعائر تُغَذِّي الروح ، وتُزَكِّي النفس ، وتُرَبِّي الإرادة ، وتُوَحِّد الاتجاه ، وتُدَرِّب الإنسان على كمال العبودية لربه الأعلى ، الذي خلق فسوى ، والذي قَدَّرَ فهدى.

وهي عبادات محددة لا تقبل الابتداع ، ميسرة لا تقبل التزمت ، معتدلة لا تقبل التطرف ، عميقة تهتم بالجوهر قبل المظهر.

وعلى رأس هذه العبادات الشعائر الكبرى من الصلاة والزكاة والصيام والحج. وقد نَوَّعَ الإسلام فيها ، فبعضها بدني كالصلاة والصيام ، وبعضها مالي كالزكاة ، وبعضها يجمع بينهما كالحج والعُمرة.

---

(١) الأنفال: ٦٠.

ومن هذه العبادات ما يتكرر كل يوم كالصلاة ، ومنها ما يتكرر كل سنة كالصيام والزكاة ، ومنها ما لا يُفرض في العمر إلا مرة واحدة كالحج.

ومن هذه العبادات ما هو فعل إيجابي كالصلاة والزكاة والحج ، ومنها ما هو مجرد ترك وكف وامتناع ، مثل الصيام الذي هو كف عن الاستجابة لشهوتي البطن والفرج ، امتثالاً لأمر الله تعالى.

وكلها لا بد فيه من النية الخالصة ، لأنها روح العمل وسره: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إلا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾[1] ، «إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئٍ ما نوى»[2] .

ومن هذه العبادات فرائض لازمة لكل مسلم ومسلمة ، لا يُقبل التفريط فيها بحال إلا من عذر يُقَدِّره الشرع.

ومنها نوافل هي بمنزلة الربح لرأس المال ، من استزاد منها كان خيراً له ، ومن تكاسل عنها فلا إثم عليه. وهي ميدان المتنافسين في الخيرات ، والمتسابقين في الباقيات الصالحات.

إن هذه العبادات غايات في نفسها ، ولكنها - مع ذلك - وسائل فذة للتربية الروحية والأخلاقية والاجتماعية ، ومناهج ربانية لتدريب المسلم على السلوك الأمثل والحياة المُثلى.

(ب) ومن أخلاق وفضائل تقاوم الأنانية ، وتُربِّي روح الغيرية ، وتعني بزكاة الفرد ، وتماسك المجتمع ، تُزكِّي نوازع الخير ، وتُقلِّم أظافر الشر.. وهي أخلاق فطرية ، واقعية ، مفهومة معللّة ، شاملة ، متوازنة ، يجتمع العقل والنقل على تحسين ما حسَّنته ، وتقبيح ما قبَّحته.

(جـ) ومن آداب وتقاليد ، تُربِّي الأذواق ، وتحمي الأخلاق ، وتُجَمِّل الحياة ، وتصنع وحدة المظهر مع المخبر ، وتصون المجتمع من عبث المتحللين ، وتزمت المتزمتين.

---

(١) البينة: ٥

(٢) متفق عليه.

وهي آداب تصحب المسلم في حياته كلها: في مأكله ومشربه ، وملبسه ومركبه ، ويقظته ونومه ، وسفره وحضره ، وخلوته وجلوته.

وهي آداب تحرص على ربط المسلم بالله تعالى في كل أحواله وكل أحيانه ، فهو ينام على ذكر الله ، ويستيقظ على ذكر الله ، ويبدأ الأكل باسم الله ، ويختمه بحمد الله ، وكذلك لبسه الثوب ، وركوبه الدابة ، وسفره وعودته. وهو إذا هنّأ أو عزّى ، أو شمّت عاطساً أو رد على مُشَمِّت ، أو سافر أو وَدَّع مسافراً ، أو غير ذلك ، لم ينس الله تعالى ، بل رطب لسانه بذكره ، حامداً أو داعياً أو مسمياً أو مُثنياً عليه تعالى بما هو أهله.

ولهذا نستطيع أن نُميز المسلمين من غيرهم لأول وهلة ، حين نراهم يلتقون فيحيي بعضهم بعضاً بإلقاء السلام ، ويجتمعون على المائدة ، فيأكلون باليمين ويبدأون باسم الله ، ويختمون بالحمد لله ، وهكذا..

(د) ومن نظم وتشريعات للفرد وللأسرة وللجماعة.

فهي ترسم للفرد طريقه ، وتحدد له سلوكه ، وتبين له الحلال من الحرام.

وهي للأسرة دعائم وركائز ، تمنعها أن تميد ، وتحفظها أن تنهار: توضح ما لكل طرف من الحقوق ، وما عليه من الواجبات ، وتحرص على بقاء هذه المؤسسة الجليلة واستمرارها في أداء رسالتها ، ما لم يصبح اثم بقائها أكبر من نفعه ، فالخير في الافتراق بعد محاولة الإصلاح ، وآخر العلاج الكيّ.

وهي للجماعة ضوابط وموازين ، مهمتها أن تُقيم العدل ، وتردع عن الشر. وتحمي الإخاء ، وتمنع التنازع ، وتصون الحقوق ، وتحفظ على الناس أديانهم ودماءهم وأموالهم وأعراضهم وعقولهم ونسلهم ، وهي الضروريات التي لا تقوم الحياة إلا بها ، كما تحفظ عليهم حاجيات الحياة وكمالياتها أيضاً ، كل بحسب منزلته.

ومن حسن حظ المسلمين أن قامت على خدمة هذه المناهج وتجليتها ، وبيان أحكامها وحكمتها ، علوم ومعارف شتى في محيط الثقافة الإسلامية الرحب ، من تفسير وحديث وفقه وأصول وأخلاق وآداب وتصوف..

ومهما يكن من اختلاف «أهل الذكر» في فروعها وجزئياتها ، فإن أصولها الكلية ، وقواعدها الأساسية ، بيّنة كالصبح ، واضحة كالشمس ، لا يختلف فيها اثنان ، ولا ينتطح فيها عنزان ، كما يقال.

* * *

• اعتراض مردود:

سيقول بعض الناس: إذا كان الإسلام بهذا الوضوح ، فما بال هذه الفرق التي ظهرت باسمه عبر التاريخ؟ وما بال هذا الانقسام القائم بين سنة وشيعة؟ وما سر هذا الاختلاف بين السلفية والصوفية؟ وبين المذهبيين واللامذهبيين؟

ولا أجهل أن هناك أناساً من المبشرين والمستشرقين ومن يدور في فلكهم يجهدون جهدهم ، لتضخيم هذا المعنى وتكبيره ، بحيث يخيل إليك من كتاباتهم أن هذا الدين ليس واحداً ، كما أنزله الله ، بل ثمت مائة إسلام وإسلام ، فلكل بلد إسلام ، ولكل عصر إسلام ، ولكل مذهب إسلام .. وهكذا.

والذي أستطيع أن أوكده بكل قوة: أنه لا يوجد في العالم كله «أيديولوجية» دينية ولا وضعية تملك من الوضوح والوحدة ما يملكه هذا الإسلام.

إن الإسلام الذي ندعو إليه ونصفه بالوضوح ، ليس إسلام فرقة من الفرق ، ولا بلد من البلدان ، ولا مذهب من المذاهب ، إنه إسلام القرآن والسنّة. إسلام الصحابة ومن تبعهم بإحسان ، الإسلام الأول قبل أن تظهر الفرق والنحل والبدع والأهواء المحدثة التي فرّقت الناس شيعاً.

ولقد سمعت من أحد كبار الشيعة العقلاء الحريصين على وحدة الأمة ، كلمة جديرة بأن تُسجل وتُنشر. قال: هل كان هناك سنّة وشيعة عندما أكمل الله الدين لهذه الأمة ، وأتم عليها النعمة ، ونزل قوله تعالي: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِيناً ﴾[1] .

---

(١) المائدة: ٣

وكان جواب الحاضرين طبعاً: لا.

إذن جاء الخلاف بعد ذلك في تفسير قضايا تاريخية !

وكان الجواب: نعم بكل تأكيد.

وهنا قال الرجل العاقل: فلنغض الطرف عما حدث بعد قوله تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ... ﴾ وليسعنا كتاب الله ، ففيه كل الكفاية.

وهذا كلام صحيح ، فإن منبع الخلاف بين السنة والشيعة هو موضوع الخلافه ، ومن أحق بها بعد رسول الله ﷺ فهو خلاف على أمور انتهت تاريخياً ، وأفضى المختلفون فيها إلى ربهم ، ومردهم إلى الله.

أما الشيء الباقي وراء هذا كله ، فهو القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ومن نِعم الله على الأمة الإسلامية أن الله تعالى قد خصهم بما لم يخص به أمة من قبلهم ، وذلك أنه تعالى تولى بنفسه حفظ كتابهم المجيد الذي هو دستور حياتهم ، والمصدر الأول لتشريعهم وتوجيههم ، وهو القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[1] .

وقد أثبتت القرون المتتابعة صدق هذا الوعد الإلهي - وبقي هذا القرآن كما أنزله الله ، وتلقاه محمد ﷺ وحفظه أصحابه ، وبلّغوه لمن بعدهم ، محفوظاً في الصدور ، متلواً بالألسنة ، مكتوباً في المصاحف ، لم تضع منه كلمة ، ولم تتغير فيه جملة .. على حين حُرِّفت وبُدِّلت - أو ضاعت بالكلية - كل الكتب السماوية التي نزلت من قبل ، ولم يضمن الله لها الحفظ، لأنها كانت كتباً مرحلية لدعوة خاصة ، ليس لها صفة العالمية لكل الناس ، ولا صفة الخلود إلى أن تقوم الساعة ، كما هو شأن دعوة الإسلام.

كما أن سنّة محمد ﷺ قد حُفِظت منتقاة مغربلة ، لتكون التبيان النظري والعملي لهذا القرآن .

---

(١) الحجر: ٩

وإذا كان تاريخ الإسلام قد حفظ أسماء فرق كثيرة قد ظهرت في مجتمعه ، فإنه قد سجل كذلك انقراض معظمها من المجتمع الإسلامي ، فقد لفظها جمهور المسلمين ، ولم يبق لها مكان بينهم ، ولم يمض زمان على من بقي منهم حتى ذابوا في مجموع الأمة. ولئن بقيت بعض الفئات المتطرفة ، إن الإسلام لا يتحمل وزرها ، ولا تُحسب انحرافاتها وشذوذها عليه ، وعلى أمته الكبرى.

ولقد حدَّد الإسلام المرجع الذي يحتكم إليه المسلمون إذا اختلفوا ، وذلك في قوله تعالي: ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾[1] .

وقد أجمع المسلمون منذ الصدر الأول على أن الرد إلى الله في الآية يعني الرد إلى كتابه ، والرد إلى رسوله يعني الرد إلى سنته.

وقد وضع المسلمون علماً خاصاً في تفسير النصوص والاستنباط منها ، هو علم «أصول الفقه» ليعينهم على وحدة الفهم. ولا أنكر أن كثيراً من مسائل الأصول نفسها مختلف فيها ، ولكن الأمور الأساسية متفق عليها ، وما عداها فإن الإسلام نفسه لم يُحَرِّج على أبنائه الاختلاف في شأنها..

على أن هنا علاجاً عملياً آخر ، للتقليل من خطر الاختلاف ، وهو ما قرره علماء المسلمين من أن رأي الإمام يرفع الخلاف في المسائل الخلافية.

فمتى وُجِدَ للمسلمين إمام شرعي تمت إمامته بالاختيار والشورى والبيعة. كان رأيه في مسائل الخلاف العملية هو القول الفصل. أما المسائل النظرية فلكل رأيه وحسابه على الله.

* * *

• الأيدلوجيات الحديثة وغموضها:

ومن العجيب أن الذين يحاولون التنقص من هذه الخصيصة من خصائص الإسلام ، بالتهويل والتضخيم في أمر الاختلاف الذي حدث في تاريخ المسلمين ،

---

(١) النساء: ٥٩

وإلصاق كل فئة شاذة مارقة بصميم الأمة المسلمة ، هؤلاء يتعامون عن الغموض البين ، والاختلاف البارز ، الذي يراه ويلمسه كل دارس للأيديولوجيات الوضعية المعاصرة التي أصبحت «أصنام» هذا العصر ، وغدا هؤلاء وأمثالهم من الكتاب «الكهنة» الجدد لهذه الأوثان.

إن هذه الأيديولوجيات الحديثة البراقة ، تفتقر إلى مجرد تعريف دقيق - أو كما يقول المناطقة: جامع مانع - يحدد مدلولها ، ويوضح طبيعتها ومفاهيمها الأساسية فإن هذا التعريف المجرد مفقود. ولهذا يختلفون حولها في كل شيء ، حتى في معناها: ما هو؟

خذ مثلاً : الديمقراطية ..

فنحن لا نكاد نجد في القرن العشرين أيديولوجية اجتماعية ، ولا تنظيمية سياسية ، من الليبرالية ، إلى الاشتراكية ، إلى الشيوعية ، أو حتى الفاشيستية أو النازية ، إلا وتدعي كل منها أنها هي «الديمقراطية» الحقة ، وأن ما عداها ديمقراطية زائفة ، وبات الناس حائرين ، أي هذه الديمقراطيات هو الأصيل ، وأيها المدعي؟

ولا يخرج من هذا الغموض وهذه البلبلة الاحتكام إلى معايير خُلُقية أو روحية ، لأن الجميع يدَّعون الحرص على الحرية والمساواة وكرامة الإنسان.

ولا الاحتكام إلى «معايير اجتماعية وضعية» لأن كل فئة ستقدم لنفسها معياراً تبرر به منهجها وأسلوبها ، فمفكرو الديمقراطية الغربية يعتمدون المعيار السياسي ، ويميزون ديمقراطيتهم بالحرية السياسية. على حين يعتمد الماركسيون المعيار الاقتصادي ، فيميزون ديمقراطيتهم بالحرية الاجتماعية والاقتصادية.

ويتحدى الصينيون المعيارين معاً خلال ما يسمونه «الديمقراطية الجديدة».

ويتحداها أيضاً الثوريون الآسيويون والإفريقيون من خلال ما يدعونه «الديمقراطية الاشتراكية»[1] .

---

(١) الإسلام وتحديات العصر ص١٢٩ ، ١٣٠. ط. ثانية.

بل وجدنا من يجمع بين الضدين ، خلال ما يسمونه «الدكتاتورية الديمقراطية»[1] .

وخذ مثلاً آخر: الاشتراكية ، التي فُتِنَ بها الكثيرون من قومنا ، وباتوا يدعون إليها باللسان والقلم .. ما هي الاشتراكية؟ ما مدلولها؟ ما أهدافها؟ ما أصولها؟ وما مصادرها؟

إنك تبحث عن جواب لهذه الأسئلة فلا تجد إلا الغموض والاختلاف البين حولها ، بين مؤسسيها ودعاتها.

يقول الأستاذ ثاوني: إن الاشتراكية كغيرها من التعبيرات المختلفة للقوى السياسية المركبة ، كلمة لا تختلف في مدلولها من جيل إلى جيل فحسب ، بل من حقبة إلى حقبة[2] .

ويؤكد الأستاذ «كول» التناقض في فهم العقيدة الاشتراكية بين بلد وآخر ، وبين جيل وما بعده ، ويزيد عليه فيقول: «ولم يكن التباين في العقيدة نتيجة اختلاف الزمن فحسب ، بل كان هناك تناقض بين الصور المختلفة التي وجِدَت في عصر واحد»[3] .

ونقرأ في كتاب «هذه هي الاشتراكية» للكاتبين الفرنسيين : جورج بورجان ، وبيار رامبير ، هذه العبارات نقلاً عن مكسيم لوروا في كتابه «رادة الاشتراكية الفرنسية» يقول: «لا شك في أن هناك اشتراكيات متعددة ، فاشتراكية بابون ، تختلف أكبر الاختلاف عن اشتراكية برودون ، واشتراكيتا سان سيمون وبرودون تتميزان عن اشتراكية بلانكي ، وهذه كلها لا تتمشى مع أفكار لويس بلان ، وكابيه ، وفورييه ، وبيكور. وإنك لا تجد داخل كل فرقة أو شعبة إلا خصومات عنيفة ، تحفل بالأسى والمرارة»![4] .

---

(١) القومية والمذاهب السياسية ص٣١٧.
(٢ ، ٣) الاشتراكية والقومية للدكتور يوسف عز الدين ص٧٤.
(٤) هذه هي الاشتراكية: ترجمة محمد عيتاني - بيروت ص١٢.

ومعنوم ان هذه الاشتراكيات كلها غير اشتراكية «كارل ماركس» الذي يصف كل هذه الاشتراكيات وما ماثلها بأنها «خيالية» ويختص مذهبه وحده باسم «الاشتراكية العلمية».

ويرغم قرب العهد بماركس (المتوفى ١٨٨٢) وخلفائه: إنجلز (١٨٨٦) ولينين (١٩٢٤) مؤسس الدولة الاشتراكية الماركسية الأولى ، نرى الهوة تتسع بين تجربتين رئيسيتين في روسيا والصين ، يتنسب كل منهما إلى «ماركس» ذاته.

وليس أفضل من أن نستشهد هنا بقول لأحد الماركسيين المعروفين ، وهو مكسيم رودنسون ، الكاتب اليهودي الفرنسي اليساري الذي يقول:

«الحقيقة أن هناك «ماركسيات» كثيرة بالعشرات والمئات: ولقد قال ماركس أشياء كثيرة ، ومن اليسير أن نجد في تراثه ما نبرر به أية فكرة !! إن هذا التراث كالكتاب المقدس (أسفار التوراة ، والأناجيل وملحقاتها) حتى الشيطان يستطيع أن يجد فيه نصوصاً تؤيد ضلالته»!![1] .

هذه هي الايديولوجيات البشرية .. في غموضها .. واختلافها .. وذلك هو الإسلام في وضوحه .. ووحدته.

وشتان بين ما شرعه الله .. وما وضعه الناس..

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ * وَلا الظُّلُمَاتُ وَلاَ النُّورُ ﴾[2] .

* * *

---

(١) الإسلام والرأسمالية ص٢٤.

(٢) فاطر: ١٩ ـ ٢٠.

الفصل السابع

الجمع بين الثبات والمرونة

يكاد الذين يكتبون عن الإسلام ورسالته وحضارته ، في عصرنا ينقسمون إلى فئتين متقابلتين: فئة تُبرز جانب المرونة و«التطور» في أحكام الإسلام وتعاليمه ، حتى تحسبها عجينة لينة قابلة لما شاء الناس من خلق وتشكيل ، بلا حدود ولا قيود.

وفي الشّق الآخر فئة تُبرز جانب الثبات والخلود في تشريعه وتوجيهه ، حتى يخيل إليك أنك أمام صخرة صلدة ، لا تتحرك ولا تلين.

وهذا هو عيب كثير من البشر ، حين ينظرون إلى القضايا من جانب واحد ، مغفلين بقية الجوانب ، على ما يكون لها من أهمية قصوى ، فيجنحون إلى الإفراط أو التفريط.

وقليل من الكاتبين هو الذي سلم من غلو المُفْرِطين ، وتقصير المُفَرّطين[1] ، وكانت رؤيته واضحة لهذا المنهج الإلهي الفريد ، الذي قام على أساسه مجتمع رباني إنساني ، وحضارة متكاملة متوازنة.

والحقيقة أن المجتمع المسلم قد اختُص بظاهرة فذة ، تعتبر من أبرز ما يميزه عن سائر المجتمعات الأخرى. تلك هي ظاهرة التوازن ، وإن شئت قلت: ظاهرة «الوسطية» التي يشير إليها قوله تعالي: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً ﴾[2] والتي تحدثنا عنها بتفصيل من قبل.

وإن من أجلى مظاهر التوازن والوسطية التي يتميز بها «نظام الإسلام» وبالتالي يتميز بها مجتمعه عن غيره: التوازن بين الثبات والتطور ، أو الثبات والمرونة. فهو يجمع بينهما في تناسق مبدع ، واضعاً كلاً منهما في موضعه الصحيح

---

(١) المفرطين: الأولى بتسكين الفاء وجر الراء، والثانية بفتح الفاء ونصب الراء.

(٢) البقرة: ١٤٣

.. الثبات فيما يجب أن يخلد ويبقى ، والمرونة فيما ينبغي أن يتغير ويتطور.

وهذه الخصيصة البارزة لرسالة الإسلام ، لا توجد في شريعة سماوية ولا وضعية.

فالسماوية - عادة - تمثل الثبات[1] ، بل الجمود أحياناً ، حتى سجل التاريخ على كثير من رجالاتها وقوفهم في وجه الحركات العلمية والتحريرية الكبرى ، ورفضهم لكل جديد في ميدان الفكر أو التشريع أو التنظيم.

وأما الشرائع الوضعية ، فهي تمثل - عادة - المرونة المطلقة ، ولهذا نراها في تغيير دائم. ، ولا تكاد تستقر على حال ، حتى الدساتير التي هي أم القوانين ، كثيراً ما تُلغى بجرة قلم ، من حاكم متغلب ، أو مجلس للثورة ، أو برلمان منتخب ، انتخاباً صحيحاً أو زائفاً ، حتى يُصبح الناس ويُمسوا وهم غير مطمئنين إلى ثبات أي مادة ، أو قاعدة قانونية ، كانت بالأمس موضع التجلة والاحترام.

ولكن الإسلام ، الذي ختم الله به الشرائع والرسالات السماوية ، أودع الله فيه عنصر الثبات والخلود ، وعنصر المرونة والتطور ، معاً ، وهذا من روائع الإعجاز في هذا الدين ، وآية من آيات عمومه وخلوده ، وصلاحيته لكل زمان وكل مكان.

ونستطيع أن نحدد مجال الثبات ، ومجال المرونة ، في شريعة الإسلام ، ورسالته الشاملة الخالدة ، فنقول:

إنه الثبات على الأهداف والغايات ، والمرونة في الوسائل والأساليب.

الثبات على الأصول والكليات ، والمرونة في الفروع والجزئيات.

الثبات على القيم الدينية والأخلاقية ، والمرونة في الشئون الدنيوية والعلمية.

* * *

---

(١) يلاحظ أن الشرائع السماوية قبل الإسلام كانت مرحلية ، لزمن موقوت ، ولقوم مخصوصين ، فلم تكن في حاجه إلى المرونة ، التي تؤهلها للعموم والخلود ، بخلاف الإسلام ، الذي بُعث رسوله إلى الناس كافة ، وختم به النبيون.

• الثبات والتطور في الحياة والكون:

وربما سأل سائل: لماذا كان هذا هو شأن الإسلام؟ لماذا لم يودعه الله المرونة المطلقة أو الثبات المطلق؟

والجواب: إن الإسلام بهذا ، يتسق مع طبيعة الحياة الإنسانية خاصة ، ومع طبيعة الكون الكبير عامة ، فقد جاء هذا الدين مسايراً لفطرة الإنسان وفطرة الوجود.

أما طبيعة الحياة الإنسانية نفسها ، ففيها عناصر ثابتة باقية ما بقي الإنسان ، وعناصر مرنة قابلة للتغير والتطور.

فالإنسان اليوم. قد اتسعت مداركه ، وارتقت معارفه ، وازدادت قدرته على تسخير القوى الكونية من حوله ، والانتفاع بها ، حتى استطاع أن يصعد إلى القمر ، ويعيش فوق ظهره أياماً معدودة ، يكتشف مجاهيله ويحمل إلى أهل الأرض نماذج من ترابه وصخوره.

ولكن هل تغير جوهر إنسان اليوم ، عن جوهر إنسان ما قبل التاريخ ، وما بعد التاريخ؟

هل تغير جوهر الإنسان المعاصر ، الذي صعد إلى كوكب القمر ، عن الإنسان الذي لم يكن يعرف كيف يواري سوأة أخيه ، حتى عَلَّمَه الغ اب؟

كلا. إن جوهر الإنسان واحد ، وإن تطورت معارفه ، وتضاعفت مكاناته.

فالإنسان منذ عهد أبيه الأول إلى اليوم ، يأكل ويشرب ويحب الخلود ، ويضعف عزمه أمام دوافع النفس من داخله ، أو وساوس الشر من خارجه ، فيعصي ويغوي ، ثم يصحو ضميره ، ويشعر بالذنب فيرجع ويتوب ، ليبدأ صفحة بيضاء من جديد.

رأينا ذلك في قصة آدم أبي البشر ، وأكله من الشجرة التي نُهِيَ عنها ، بعد أن وسوس له الشيطان ، ودلاه بغرور ، وأوهمه أنها شجرة الخلد ، والملك الذي لا يبلى: ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾[1] .

---

(١) طه : ١٢١ ــ ١٢٢

ويوجد في بني الإنسان «الشرير» الذي يحسد أخاه فلا يتورع عن قتله طغياناً بلا ذنب جناه.

كما يوجد الإنسان «الخير» المهذب ، الذي لا يقترف الشر ، ولا يفكر فيه ، ولا يقابل السيئة بالسيئة ! وقد رأينا ذلك في قصة ابني آدم ، التي قصها الله علينا بالحق ، حين حسد أحدهما أخاه فقتله ، فأصبح من الخاسرين ، على حين أبى الآخر أن يبسط يده إليه بسوء قائلاً: ﴿ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١) .

ولا زلنا نراها في ألوف وملايين من ذرية آدم . يتمثل فيها «قابيل وهابيل» - كما يسميان - وستظل البشرية تراها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها

وإذا نظرنا إلى الكون من حولنا ، وجدناه يحوي أشياء ثابتة ، تمضي ألوف السنين وألوف الألوف وهي هي . أرض وجبال . وليل ونهار ، وشمس وقمر ، ونجوم مُسَخَّراتٌ بأمر الله ، كلٌ في فَلَكٍ يسبحون.

وفيه أيضاً عناصر جزئية متغيرة ، جزر تُنشأ ، وبحيرات تجف ، وأنهار تُحفر ، وماء يطغى على اليابسة ، ويبس يزحف على الماء ، وأرض ميتة تحيا ، وصحار قفر تخضر ، وبلاد تعمر ، وأمصار تخرب ، وزرع ينبت وينمو ، وآخر يذوى ويصبح هشيماً تذروه الرياح.

هذا هو شأن الإنسان ، وشأن الكون. ثبات وتغير في آن واحد ، ولكنه ثبات في الكليات والجوهر ، وتغير في الجزئيات والمظهر.

فاذا كان التطور قانوناً قائماً في الكون والحياة ، فالثبات قانون قائم فيهما كذلك بلا مراء.

وإذا كان في الفلاسفة من قديم ، من قال بمبدأ الصيرورة والتغير باعتباره القانون الأزلي الذي يسود الكون كله ، فإن فيهم من نادى بعكس ذلك واعتبر الثبات هو الأساس ، والأصل الكلي العام للكون كله.

---

(١) المائدة: ٢٨

والحق أن المبدأين كليهما من الثبات والتغير يعملان معاً ، في الكون والحياة ، كما هو مُشاهد وملموس.

فلا عجب أن تأتي شريعة الإسلام ، ملائمة لفطرة الإنسان وفطرة الوجود ، جامعة بين عنصر الثبات وعنصر المرونة.

وبهذه المزية يستطيع المجتمع المسلم ، أن يعيش ويستمر ويرتقي ، ثابتاً على أصوله وقيمه وغاياته ، متطوراً في معارفه وأساليبه وأدواته.

فبالثبات ، يستعصي هذا المجتمع على عوامل الانهيار والفناء ، أو الذوبان في المجتمعات الأخرى ، أو التفكك إلى عدة مجتمعات ، تتناقض في الحقيقة ، وإن ظلت داخل مجتمع واحد في الصورة. بالثبات يستقر التشريع وتتبادل الثقة ، وتُبنى المعاملات والعلاقات على دعائم مكينة ، وأسس راسخة ، لا تعصف بها الأهواء والتقلبات السياسية والاجتماعية ما بين يوم وآخر. وبالمرونة ، يستطيع هذا المجتمع أن يُكيف نفسه وعلاقاته حسب تغير الزمن ، وتغير أوضاع الحياة ، دون أن يفقد خصائصه ومقوماته الذاتية.

ولكن ما هي مظاهر الثبات والمرونة في شريعة الإسلام؟ وما دلائل ذلك؟ هذا ما نبينه في الصفحات التالية إن شاء الله.

* * *

• دلائل الثبات والمرونة في مصادر الإسلام وأحكامه:

إن للثبات والمرونة مظاهر ودلائل شتى ، نجدها في مصادر الإسلام ، وشريعته وتاريخه.

يتجلى هذا الثبات في «المصادر الأصلية النصية القطعية للتشريع» من كتاب الله ، وسنّة رسوله ، فالقرآن هو الأصل والدستور ، والسنّة هي الشرح النظري ، والبيان العملي للقرآن وكلاهما مصدر إلهي معصوم ، لا يسع مسلماً أن يعرض عنه: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾[1] ،

---

(١) النور: ٥٤

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾[١] .

وتتجلى المرونة في «المصادر الاجتهادية» التي اختلف فقهاء الأمة في مدى الاحتجاج بها ما بين موسع ومضيق ومقل ومكثر ، مثل: الإجماع ، والقياس ، والاستحسان ، والمصالح المرسلة ، وأقوال الصحابة ، وشرع من قبلنا ، وغير ذلك من مآخذ الاجتهاد ، وطرائق الاستنباط.

وفي أحكام الشريعة[٢] نجدها تنقسم إلى قسمين بارزين:

قسم يمثل الثبات والخلود.

وقسم يمثل المرونة والتطور.

نجد الثبات يتمثل في العقائد الأساسية الخمس ، من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وهي التي ذكرها القرآن في غير موضع كقوله: ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾[٣] ، ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً ﴾[٤] .

وفي الأركان العملية الخمسة من الشهادتين وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت الحرام وهي التي صح عن الرسول ﷺ أن الإسلام بني عليها.

وفي المحرمات اليقينية من السحر وقتل النفس والزنا وأكل الربا وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات والتولي يوم الزحف والغصب والسرقة والغيبة والنميمة وغيرها مما يثبت بقطعي القرآن والسنّة ..

---

(١) النور: ٥١

(٢) نريد بالشريعة هنا ما هو أعم من الجانب القانوني) في رسالة الإسلام بل المراد: ما بعث الله به محمداً ﷺ من عقائد وعبادات ومعاملات وأخلاق وغيرها كما عرفها بذلك التهانوي في كتابه : «كشف اصطلاحات العلوم والفنون».

(٣) البقرة: ١٧٧

(٤) النساء: ١٣٦

وفي أمهات الفضائل من الصدق والأمانة والعفة والصبر والوفاء بالعهد والحياء وغيرها من مكارم الأخلاق التي اعتبرها القرآن والسنّة من شعَبِ الإيمان.

وفي شرائع الإسلام القطعية في شئون الزواج والطلاق والميراث والحدود ، والقصاص ، ونحوها من نظم الإسلام التي ثبتت بنصوص قطعية الثبوت قطعية الدلالة فهذه الأمُور ثابتة ، تزول الجبال ولا تزول. نزل بها القرآن ، وتواترت بها الأحاديث ، وأجمعت عليها الأمة ، فليس من حق مجمع من المجامع ولا من حق مؤتمر من المؤتمرات ، ولا من حق خليفة من الخلفاء ، أو رئيس من الرؤساء. أن يلغي أو يعطل شيئاً منها ، لأنها كليات الدين وقواعده وأسسه أو كما قال الشاطبي: «كلية أبدية ، وضعت عليها الدنيا ، وبها قامت مصالحها فيّ الخلق ، حسبما بَيَّنَ ذلك الاستقراء.. وعلى وفاق ذلك جاءت الشريعة أيضاً ، فذلك الحكم الكلي باق إلى أن يرث اللّٰه الأرض وما عليها»[١] .

ونجد في مقابل ذلك القسم الآخر ، الذي يتمثل فيه المرونة ، وهو ما يتعلق بجزئيات الأحكام وفروعها العملية ، وخصوصاً في مجال السياسة الشرعية.

يقول الإمام ابن القيم في كتابه «إغاثة اللهفان» :

«الأحكام نوعان: نوع لا يتغير عن حالة واحدة هو عليها ، لا بحسب الأزمنة ولا الأمكنة ، ولا اجتهاد الأئمة ، كوجوب الواجبات ، وتحريم المحرمات ، والحدود المقدرة بالشرع على الجرائم ، ونحو ذلك ، فهذا لا يتطرق إليه تغيير ولا اجتهاد يخالف ما وُضِع عليه.

والنوع الثاني: ما يتغير بحسب اقتضاء المصلحة له زماناً ومكاناً وحالاً ، كمقادير التعزيرات وأجناسها وصفاتها فإن الشارع ينوع فيها حسب المصلحة وقد ضرب ابن القيم لذلك عدة أمثلة من سنّة النبي ﷺ - وسنّة خلفائه الراشدين المهديين من بعده - ثم قال :

«وهذا باب واسع ، اشتبه فيه على كثير من الناس الأحكام الثابتة اللازمة التي لا تتغير بالتعزيرات التابعة للمصالح وجوداً وعدماً»[٢] .

* * *

---

(١) الموافقات.

(٢) إغاثة اللهفان جـ١ ص٣٤٦ ، ٣٤٩.

• الثبات والمرونة في هَدى القرآن:

والذي يتدبر القرآن الكريم ، يجد في نصوصه المقدسة دلائل جمة ، على هذه الخصيصة البارزة ، من خصائص الأمة المسلمة ، وهي:

الجمع بين الثبات والمرونة جمعاً متوازناً عادلاً.

وإذا كان بالمثال يتضح المقال ، فلا بأس أن نذكر هنا بعَض الأمثلة التي توضح ما قلناه.

(أ) يتمثل الثبات في مثل قوله تعالى في وصف مجتمع المؤمنين: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾[1] ، وفي قوله لرسوله: ﴿ وشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ﴾[2] ، فلا يجوز لحاكم ، ولا لمجتمع أن يلغي الشورى من حياته السياسية والاجتماعية ، ولا يحل لسلطان أن يقود الناس رغم أنوفهم إلى ما يكرهون. بالتسلط والجبروت.

وتتمثل المرونة ، في عدم تحديد شكل معين للشورى ، يلتزم به الناس في كل زمان وكل مكان فيتضرر المجتمع بهذا التقييد الأبدي ، إذا تغيرت الظروف بتغير البيئات أو الأعصار أو الأحوال. فيستطيع المؤمنون في كل عصر أن يُنَفِّذوا ما أمر الله به من الشورى بالصورة التي تناسب حالهم وأوضاعهم ، وتلائم موقعهم من التطور ، دون أي قيد يلزمهم بشكل جامد.

(ب) يتمثل الثبات في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾[3] ، ﴿ وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعِ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾[4] . فأوجب التقيد بالعدل والالتزام بكل ما أنزل الله ، والحذر من اتباع الأهواء ، وكل هذا مما لا مجال للتساهل فيه ، فهو يمثل جانب الثبات قطعاً في مجال الحكم والقضاء. وتتمثل المرونة في عدم الالتزام بشكل معين للقضاء والتقاضي. وهل يكون من درجة أو أكثر؟ وهل يسير على أسلوب القاضي المفرد أم على أسلوب

---

(١) الشورى: ٣٨ (٢) آل عمران: ١٥٩
(٣) النساء: ٥٨ (٤) المائدة: ٤٩

المحكمة الجماعية؟ وهل يكون هناك محكمة جنايات وأخرى للمدنيات... الخ. كل هذا متروك لاجتهاد أولي الأمر ، وأهل الحل والعقد في مثل هذه الأمور ، وليس للشارع قصد فيه إلا إقامة العدل ، ورفع الظلم ، وتحقيق المصلحة ، ودرء المفسدة.

لقد اهتم الشارع بالنص على المبدأ والهدف ، ولكنه لم يعتن بالنص على الوسيلة والأسلوب وذلك ليدع الفرصة ، ويُفسح الطريق للإنسان كي يختار لنفسه الأسلوب المناسب ، والصورة الملائمة لزمنه وبيئته ، ووضعه وحالته.

(جـ) يتمثل الثبات في قوله تعالى: ﴿ لا يَتَّخذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ ﴾[1] .

وتتمثل المرونة في الاستثناء من هذا الحكم عند الضرورة إذ قالت الآية: ﴿ إلاَّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ﴾[2] ، ومثله: ﴿ إلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بالإِيمَان ﴾[3] ، ونحوه: ﴿ لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إلاَّ مَنْ ظُلِمَ ﴾[4] .

فهذه الاستثناءات وأمثالها في كتاب اللّه أعطت فسحة لمن تقهره الظروف الشخصية والاجتماعية ، فلا يقدر على الصمود والثبات على القاعدة الأصلية في السلوك. ولكن الخطر كل الخطر ، أن تتحول الاستثناءات إلى قواعد ، وتصبح هي الأصل في التفكير أو السلوك.

(د) يتمثل الثبات في قوله تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلامِ ، ذَلِكُمْ فِسْقٌ ، الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ، الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً ﴾[5] .

---

(1) آل عمران: ٢٨
(2) آل عمران: ٢٨
(3) النحل: ١٠٦
(4) النساء: ١٤٨
(5) المائدة: ٣

وتتمثل المرونة في قوله بعدها: ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[1] فقرر بذلك مبدأ « رعاية الضرورات » ولكنه لم يطلق فيه العنان لمن أراد ، بل قيده بقوله: ﴿ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ ﴾ أي: غير مائل للحرام والتوسع فيه كقوله في الآيات الأخرى: ﴿ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ ﴾[2] أي غير باغ على غيره ، ولا متعد قدر الضرورة. وهذا مقيد لمبدأ الضرورة حتى لا يسترسل الناس في الحرام باسمها. ومن ذلك أخذ مبدأ: «ما أبيح للضرورة يقدر بقدرها»[3] .

(هـ) يتمثل الثبات في التحريم البات للتخريب والإفساد في الأرض بمثل قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾[4] ، ﴿ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾[5] وهذا مبدأ عام.

وتتمثل المرونة في استثناء الظروف الحربية ومقتضيات التنكيل بالعدو ، وإجباره على التسليم بأقل الخسائر الممكنة وذلك في قوله تعالى: ﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴾[6] . وقد نزلت هذه الآية الكريمة في حصار النبي ﷺ ليهود بني النضير وقطعه بعض نخيلهم ، فشنَّع اليهود بذلك وقالوا: يا محمد .. قد كنت تنهى عن الفساد وتعيب على من يصنعه ، فما بال قطع النخيل وتحريقها؟ فكانت الآية رداً عليهم بأن ذلك بإذن من الله وليخزي الفاسقين.

(و) يتمثل الثبات في رفض القرآن الكريم للاجتهاد والرأي إذا كان في مقابلة نص محكم ، لأن رأي المخلوق لا يقابل حكم الخالق .. ولهذا أنكر الكتاب العزيز على الذين استحلوا الربا تشبيهاً له بالبيع ، مع أن الله أحلَّ هذا وحرَّم ذاك ، فلا مجال لقياس ولا نظر حينئذ. وفي ذلك يقول تعالى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ، وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾[7] .

---

(١) المائدة: ٣ (٢) البقرة: ١٧٣ والأنعام: ١٤٥ والنحل: ١١٥
(٣) الأشباه والنظائر لابن نجيم ص ٤٣. (٤) الأعراف: ٥٦
(٥) البقرة: ٦٠ ، وهود: ٨٥ (٦) الحشر: ٥ (٧) البقرة: ٢٧٥

على حين تتمثل المرونة في إقرار الاجتهاد في الأمور القضائية ونحوها مما تتفاوت في فهمه العقول ، وتختلف التقديرات. وفي هذا جاء قوله تعالى: ﴿ وَدَاوود وَسُلَيمَانَ إذْ يَحْكُمَان في الحَرْث إذْ نَفَشَتْ فيه غَنَمُ القَوْمِ وكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهدينَ * فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَان ، وَكُلاً آتَيْنَا حُكْماً وَعلْماً ﴾[1] . فخصَّ بالفهمِ أحدهما ، وهو سليمان الذي وُفِّقَ لإصابة المحز ، وأثنى على كل منهما بالحكم والعلم ، وإن أخطأ أحدهما ، لأنه تحرى واجتهد في قضية محتملة.

* * *

● الثبات والمرونة في الهَدي النبوي:

وإذا تأملنا في السنَّة المطهرة - قولاً وفعلاً وتقريراً - وجدناها حافلة بشتى الأمثلة والدلائل التي يتمثل فيها الثبات والمرونة جنباً إلى جنب.

(أ) يتمثل الثبات فى رفضه ﷺ التهاون أو التنازل فى كل ما يتصل بتبليغ الوحى أو يتعلق بكليات الدين ، وقيمه ، وأسسه العقائدية والأخلاقية.

ومهما حاول المحاولون أن يُثنوا عنانه عن شيء من ذلك بالمساومات أو التهديدات أو غير ذلك من أنواع التأثير على النفس البشرية ، فموقفه هو الرفض الحاسم ، الذى علَّمه إياه القرآن فى مواقف شتى. فحين عرض عليه المشركون ، أن يلتقوا فى منتصف الطريق ، فيقبل شيئاً من عبادتهم ويقبلوا شيئاً من عبادته ، أن يعبد آلهتهم مدة ، ويعبدوا إلهه مدة، كان الجواب الحاسم يحمله الوحى الصادق فى سورة قطعت كل المساومات وحسمت كل المفاوضات ، وهى قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدتُّمْ * وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾[2] .

ولما تلا عليهم آيات الله بينات ، منكرة عليهم شركهم وعنادهم ، ناعية ضلالهم وجحودهم. قالوا له ﷺ : ﴿ ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ ﴾[3]

---

(١) الأنبياء: ٧٨ ، ٧٩. (٢) سورة الكافرون. (٣) يونس: ١٥.

فكان الرد القاطع ، تلقيناً من الله تعالى لرسوله: ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي ، إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُمْ بِهِ ، فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ ، أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾[1] .

وهكذا تعلّم ﷺ من وحى الله: أن لا تنازل ولا تساهل فى أمور العقيدة وما يتصل بها.

ولما جاءه عُتبة بن ربيعة ، يتحدث بلسان قريش ، ويعرض عليه أموراً يحرص عليها طلأب الدنيا لعله يقبلها أو يقبل بعضها ، ويتنازل عن دعوته التى أقضت مضاجعهم ، وقال له فيما قال: إن كنت تريد يابن أخى فيما جئت من هذا الأمر - الذى فرّق جماعتنا - مالاً ، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت تريد ملكاً ملّكناك علينا ، وإن كنت تريد شرفاً سوّدناك علينا ، حتى لا نقطع أمراً دونك.

فلما فرغ من عرضه ، قال له النبى ﷺ : «أفرغت يا أبا الوليد؟ قال: فاسمع مني» .. فتلا عليه أوائل سورة فصلت إلى قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾[2] . فما أن سمعها الرجل ، حتى خُيِّلَ إِلَيْهِ أن الصاعقة تكاد تنزل عليه وعلى قومه فقال: أنشدك الله والرحم يا بن أخي أن تكف عن هذا.

ويوم حاولت قريش الضغط على عمه أبي طالب مرة بعد مرة ، ليضغط هو بدوره على ابن أخيه ، عسى أن يُثنيه عن دعوته ، أو يُخفف من حماسه وحرارته ، حتى إنهم هددوه مرة أن ينازلوه وبني هاشم وجهاً لوجه ، إلى أن يهلك أحد الفريقين ، أو يكف محمد عن الآلهة ، وتضليل الآباء ، وتسفيه الأحلام .. وضعف أبو طالب يوماً أمام هذا التهديد ، فعرض على ابن أخيه أن ينظر في مطالبهم ويسمع منهم ، وقال له: لا تُحمّلني من الأمر ما لا أطيق. وظن رسول الله ﷺ

(١) يونس: ١٥ ـ ١٦ (٢) فصلت: ١٣

من لهجة عمه أنه خاذله ، وتاركه لقريش ، فاغرورقت عيناه بدموع كانت تعبيراً عن الإصرار والثبات الفارع ، وقال كلمته التاريخية: «والله يا عم ، لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري ، على أن أترك هذا الأمر ، ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه».

ومثل ذلك موقفه من بعض قبائل العرب - بني عامر بن صعصعة[1] - حينما عرض عليهم دعوته في مكة ، في أحد مواسم الحج ، فقبلوا أن يدخلوا في دينه وينصروه ويمنعوه ، على أن يكون لهم الأمر من بعده. فرفض هذا الإيمان التجاري الرخيص، قائلاً: «الأمر إلى الله يضعه حيث شاء». فقال قائلهم: أفنهدف نحورنا للعرب دونك ، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا؟ لا حاجة لنا بأمرك. فأبوا عليه. ولم يبال ﷺ بإبائهم.

ومثل ذلك أيضاً ، موقفه ﷺ من كذاب بني حنيفة «مسيلمة بن حبيب» الذي ادّعى النبوة في قومه ، وكتب إليه ﷺ : «من مسيلمة إلى محمد رسول الله ، سلام عليك .. أما بعد ، فإني قد أشركت في الأمر معك. وإن لنا نصف الأرض. ولقريش نصف الأرض ، ولكن قريشاً قوم يعتدون».

فكتب إليه رسول الله ﷺ :

« بسم الله الرحمن الرحيم.. من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب: السلام على من اتبع الهدى .. أما بعد ، فإن الأرض لله ، يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين »[2] .

وهذا هو الثبات العقدي الصلب الذى لا يقبل غيره فى باب العقائد والمبادىء.

وفى مقابل ذلك ، نجد مرونة واسعة فى مواقف السياسة و«التكتيك» ومواجهة الأعداء ، بما يتطلبه الموقف المعين ، من حركة ووعى وتقدير لكل الجوانب والملابسات ، دون تزمت أو تشنج أو جمود.

نجده فى يوم الأحزاب مثلا يأخذ برأى «سلمان» فى حفر الخندق حول المدينة ،

---

(١) سيرة ابن هشام بتحقيق السقا والإبياري وشلبي جـ٢ ص٦٦. ط ثالثة ، دار إحياء التراث.
(٢) المرجع السابق جـ٤ ص٢٤٧.

ويشاور بعض رؤساء الأنصار فى إمكان إعطاء بعض المهاجمين مع قريش جزءاً من ثمار المدينة ، ليردهم ويفرقهم عن حلفائهم ، كسباً للوقت إلى أن يتغير الموقف.

ويقول لنعيم بن مسعود الأشجعى - وقد أسلم وأراد الانضمام إلى صفوف المسلمين - : «إنما أنت رجل واحد ، فَخَذِّل عنا ما استطعت».. فيقوم الرجل بدور له شأنه فى التفريق بين قريش وغطفان ويهود بنى قريظة.

وفي يوم الحديبية تتجلى المرونة النبوية بأروع صورها..

تتجلى فى قوله ذلك اليوم : « واللّه لا تدعونى قريش اليوم إلى خطة يسألوننى فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها ».

وفي قبوله ﷺ أن يكتب في عقد الصلح: «باسمك اللّهم»، بدل «بسم اللّه الرحمن الرحيم» وهي تسمية رفضتها قريش ..

وفى قبوله ﷺ أن يمحو كلمة «رسول اللّه» بعد اسمه الكريم ، على حين رفض «عليّ» رضى اللّه عنه أن يمحوها بعد كتابتها.

وفي قبوله من الشروط ما في ظاهره إجحاف بالمسلمين، وإن كان في عاقبته الخير كل الخير ..

والسر فى هذه المرونة هنا ، والتشدد فى المواقف السابقة: أن المواقف الأولى تتعلق بالتنازل عن العقيده والمبدأ ، فلم يقبل فيها أى مساومة أو تساهل ، ولم يتنازل قيد أنملة عن دعوته. أما المواقف الأخيرة فتتعلق بأمور جزئية ، وبسياسات وقتية ، أو بمظاهر شكلية ، فوقف فيها موقف المتساهل.

(ب) يتمثل الثبات والمرونة معاً فى موقفه ﷺ من وفد ثقيف وقد عرضوا عليه أن يدخلوا الإسلام - ولكنهم سألوه أن يدع لهم «الطاغية» - وهى «اللات» التى كانوا يعبدونها فى الجاهلية - ثلاث سنين فأبى رسول اللّه ﷺ ذلك عليهم. فما برحوا يسألونه سنة سنة ، ويأبى عليهم. حتى سألوه شهراً واحداً بعد مقدمهم فأبى عليهم إلا أن يبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة فيهدماها.

وقد كانوا سألوه مع ترك «الطاغية» أن يعفيهم من الصلاة ، وألا يكسروا

أوثانهم بأيديهم فقال رسول الله ﷺ : «أما كسر أوثانكم بأيديكم فسنعفيكم منه ، وأما الصلاة فإنه لا خير في دين لا صلاة فيه»[1] .

فهو ﷺ أمام العقائد والمبادئ لا يتنازل ولا يترخص ولا يتسامح ، كما في أمر «الطاغية» وأمر الصلاة. وأما في الكيفيات والجزئيات ففيها متسع للترخص والمسامحة كما في كسر الأوثان بأيديهم فهو أمر لا يتعلق بالمبدأ ، بل بطريقة التنفيذ.

(جـ) يتمثل الثبات في موقفه ﷺ من القرشية المخزومية التي سرقت ، ومحاولة قريش تخليصها من العقوبة عن طريق الوساطة والشفاعة وتوسلهم إلى الرسول بحبِّه وابن حِبه «أسامة بن زيد» وغضبه ﷺ في ذلك ، وقيامه بينهم خطيباً: «إنما أهلك من كان قبلكم أنهم إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها»[2] .

وتتمثل المرونة في قوله ﷺ فيما رواه أبو داوود: «لا تُقطع الأيدي في الغزو» رعاية لحال الحرب ، خشية أن يُفتن الجاني ويلحق بالكفار والعياذ بالله.

ومثل ذلك قوله: ادرأوا الحدود ما استطعتم ، ومن وجدتم له مخرجاً فَخَلُّوا سبيله ، ولأن يخطئ الإمام في العفو خير من أن يُخطئ في العقوبة»[3] .

(د) يتمثل الثبات في تشديده ﷺ في أداء فرائض الله ، وإقامة شعائره التعبدية من الصلاة والزكاة والصيام وغيرها. حتى أنه ليجعل الفارق بين الإسلام والشرك ترك الصلاة ، وحتى أنه ليعلن: أن من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله ، بل أن من تهاون في بعض شروط الصلاة - وهو يؤديها - يُعَذب في قبره ، كذلك الذي لم يكن يستبرئ من بوله. كما روى ذلك الشيخان.

ونجد أنه يهم أن يحرق على قوم بيوتهم يتخلفون عن الجماعات، ويسأله رجل أعمي ليأذن له بالصلاة في بيته فيقول له: «أتسمع النداء»؟ فيجيب: نعم. فيقول: «لا أجد لك رخصة»[4] .

وفي الصيام يروي عنه ابن عباس: «ثلاث هن عُرا الدين ، وقواعد الإسلام،

---

(١) سيرة ابن هشام بتحقيق السقا والإبياري وشلبي جـ٤ ص١٨٤ ، ١٨٥ طبعة ثالثة ، دار إحياء التراث.

(٢) رواه الشيخان. (٣) رواه الحاكم (٤) رواه مسلم.

عليهن أسس الإسلام ، من ترك واحدة منهن فهو بها كافر حلال الدم: شهادة ألا إله إلا الله ، والصلاة المكتوبة ، وصوم رمضان»[1] .

ويروى عنه أبو هريرة: «من أفطر يوماً من رمضان من غير رخصة ولا مرض ، لم يقضه عنه صوم الدهر وإن صامه»[2] .

وفي مقابل هذا التشدد ، نجد مرونة سمحة ، تتمثل في تشريع الرُخص في الصلاة والصيام ، مثل رُخص: المرض والسفر ، والخطأ والنسيان والإكراه ، وعموم البلوى .. وغير ذلك.

ومن ذلك قَصْرُ الصلاة الرباعية – بأن تُصلي اثنتين – في السفر. ومثله الجمع بين الصلاتين ، كما فعل ﷺ في غزوة تبوك وغيرها ، وكذلك الجمع في حالة المطر أو الخوف.

وأكثر من ذلك: الجمع في غير سفر ولا مطر ، كما روى ذلك ابن عباس عنه ﷺ . فلما سئل عن سبب ذلك أو حكمته ، قال: أراد ألا يحرج أمته. فالحكمة إذن هي رفع الحرج.

ومن ذلك تشريع التيمم عند فقد الماء ، أو التضرر باستعماله. ومن ذلك إباحة الفطر للمريض والمسافر وكذلك للحامل والمرضع ، والشيخ الكبير ، والمرأة العجوز ، وأمره المجاهدين إذا واجهوا العدو أن يفطروا ليكون ذلك أقوى لهم.

ومنه أمره لمن أكل أو شرب ناسياً صومه: أن يتم صومه فإنما أطعمه الله وسقاه. ومن ذلك ما رواه الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة قال: «بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ جاء رجل فقال: يا رسول الله .. هلكت. قال: ما لك؟ قال: وقعت على امرأتى وأنا صائم. فقال: هل تجد رقبة تعتقها؟ قال: لا. قال: فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟ قال: لا. قال: هل تجد إطعام ستين مسكيناً؟ قال: لا. قال: اجلس.. فأتِيَ النبى ﷺ بفرق فيه تمر ، قال: أين السائل؟ قال: أنا. قال: خذ هذا فتصدق به. فقال:أعلى أفقر منى يارسول الله؟ فوالله ما بين لابتيها – يريد الحرتين – أهل بيت أفقر من أهل بيتي. فضحك النبي ﷺ حتى بدت أنيابه ، ثم قال: أطعمه أهلك».

---

(1) رواه أبو يعلى بإسناد حسن. (2) رواه أصحاب السنن وابن خزيمة في صحيحه.

فهنا نجد النبي ﷺ راعى حال الرجل ، فتحمل عنه الإطعام كفارة لجنايته ، ثم رَخَّصَ له في النهاية أن يُطعمه أهله. وبهذا عاد يحمل بدل العقوبة مكافأة ، تقديراً لظروفه الشخصية والعائلية وبخاصة أنه جاء تائباً نادماً معترفاً بذنبه.

(هـ) يتمثل الثبات في إنكاره ﷺ على من اشترط شرطاً مخالفاً لحكم الشرع في عقد ، قال: «ما بال رجال يشترطون شروطاً ليست في كتاب الله ، فأيما شرط كان ليس في كتاب الله فهو باطل وإن كان مائة شرط»[1] .

وتتمثل المرونة في إقرار كل شرط يتفق عليه المتعاقدان أو المتعاقدون ما دام لم يخالف نصاً أو قاعدة شرعية .. وبعبارة أخرى لم يُحِلّ حراماً أو يُحَرِّم حلالاً - وفي هذا جاء الحديث: «المسلمون على شروطهم»[2] .

وفي هذا يدخل كل عقد يستحدثه المسلمون إذا لم تكن فيه مخالفة للشريعة. كما هو اتجاه الحنابلة واختيار ابن تيمية وابن القيم.

(و) يتمثل الثبات في رفض القضاء إذا كان على جهل وإن أصاب صاحبه الحق اعتباطاً. لأنه لم يأت الأمر من بابه ، وإنما هي رمية من غير رام ، ومثل ذلك القضاء بما يخالف الحق ، اتباعاً للهوى ، وحباً للدنيا. وفي هذا جاء الحديث: «قاضيان في النار ، وقاض في الجنة: فرجل عرف الحق وقضى به فذلك في الجنة. ورجل عرف الحق وقضى بغيره ، فذلك في النار ، ورجل قضى على جهل فذلك في النار».

وتتمثل المرونة في إقراره ﷺ لمعاذ على اجتهاده في القضاء بعد أن لا يجد نصاً في الكتاب ولا السنّة. وفي إقراره لأصحابه على اجتهادهم في قضية صلاة العصر في بني قريظة ، وأخذ فريق بظاهر الأمر .. وفريق بالمقصود منه ، وعدم تعنيفه لأي منهما.

---

(١) رواه البخاري في كتاب «العتق» من صحيحه عن عائشة.

(٢) رواه أحمد وأبو داوود والحاكم عن أبي هريرة ، قال ابن حجر: ضَعَّفه ابن حزم وعبد الحق وحسّنه الترمذي (الفيض جـ٦ ص٢٧٢).

وفي قوله: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر» فقرر بذلك مبدأ «الاجتهاد» لاستنباط الحكم الشرعي لكل واقعة تحدث. إما من نص أو من قياس عليه ، أو غير ذلك من اعتبار المقاصد والمصالح التي جاء بها الشرع ، كما قرر أن المجتهد في ذلك مأجور مثاب عند الله ، وإن أخطأ محز الصواب.

(ز) يتمثل الثبات في رفضه ﷺ للابتكار والاختراع وكل فنون الابتداع فيما يتعلق بالعبادات ، وصور التقرب إلى الله تعالى ، لأن الأصل في العبادات الحظر والتوقيف ، فلا يُعبد الله إلا بما شرعه وأذن به ، لا بما تستحسنه العقول ، وتسيغه الأهواء. فهذا هو باب الغلو وأصل التحريف والتزييف في الأديان.

ولا غرو أن أغلق الرسول ﷺ هذا الباب بإحكام وإصرار ، بمثل قوله فيما رواه الشيخان عن عائشة: «من أحدث في ديننا ما ليس منه فهو رد» وفيما رواه أحمد ومسلم وعلّقه البخاري عنها أيضاً: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد» وفيما رواه أحمد وأبو داوود والترمذي وقال: حسن صحيح ، من حديث العرباض بن سارية: «إياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة».

وتتمثل المرونة فى تشجيع الابتكار والاختراع فى أمور الدنيا ، مثل وسائل المواصلات التى يشير إليها قوله تعالى بعد ذكر الخيل والبغال والحمير: ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾[1] ومثل أدوات الحرب التى تدخل فى قوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾[2] ومثل صناعة السدود العظيمة التي تشير إليها قصة «ذى القرنين» فى سورة الكهف ، وسائر الصناعات الحربية والمدنية ، التى تشير إليها الآيه الكريمه ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾[3].

ولهذا رأيناه ﷺ يحفر الخندق حول المدينة فى غزوة الأحزاب ، ويستخدم المنجنيق فى غزوة الطائف ، ويحث على الإنتاج الحربى حتى يجعل صانع السهم كالمجاهد الرامى به فى استحقاق المثوبة عند الله ، ويُحذّر الأمة أن تكتفى بالزرع

---

(١) النحل: ٨ (٢) الأنفال: ٦٠. (٣) الحديد: ٢٥

وتتبع أذناب البقر. كما رأيناه يتنازل عن رأيه إلى رأى أصحابه فيما يرى أنهم أعلم به وأخبر من أمور الحياة ، التى لم ينزل الوحى ليعلمها للناس ، وإنما تُركت لعقولهم وتجاربهم ، يتعلمونها بدافع حاجتهم وحرصهم على مصالحهم ومعايشهم.

وأظهر مثل لذلك قصة «تأبير النخل وتلقيحه» حيث كان ذلك من عادة أهل المدينة ، وهم أهل نخل وزرع ، فسألهم النبي ﷺ عن صنيعهم فأخبر به ، فقال: «ما أراه يصلح». فبلغهم قوله عليه السلام وظنوه وحياً وتشريعاً ، وتركوا التلقيح ، فلم يصلح الثمر ، فلما علم بذلك النبي ﷺ قال: «إنما أنا بشر. إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر» وفي رواية: «إنما ظننت ظناً فلا تؤاخذوني بالظن ، أنتم أعلم بأمر دنياكم»[1] .

(ح) يتمثل الثبات في رفضه ﷺ الغلو في الدين ، وإخراج الإسلام عن وسطيته واعتداله إلى التطرف والتنطع ، سواء أكان في العقائد أم في العبادات أم الأخلاق أم الشرائع.

ومن ثم رأيناه ﷺ يُحَذِّر من الغلو بعبارات شديدة مؤكدة غاية التأكيد فيقول: «إياكم والغلو فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو»[2] .

ولهذا رفض الغلو في تعظيمه ، حماية لحمى التوحيد من أية شائبة للشرك ، ولما قال له بعض الناس: ما شاء الله وشئت ، قال: «بئس الخطيب أنت. قل: ما شاء الله وحده».

وقال: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم ، ولكن قولوا عبد الله ورسوله»[3] .

ولم يكن يتهاون أدنى تهاون فيما يتعلق بالتوحيد والشرك ، ومن ثم حمل على تعليق التمائم وقال: «من تعلق تميمة فلا أتم الله له ، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له». وقال: «ومن تعلق تميمة فقد أشرك».

وفي مجال السلوك يقول: «هلك المتنطعون. هلك المتنطعون. هلك المتنطعون» - والمتنطعون هم المتزمتون المتطرفون.

---

(١) رواه مسلم. (٢) رواه مسلم. (٣) متفق عليه.

ولما بلغه أن رهطاً من أصحابه اتجهوا إلى الغلو في التعبد لربهم ، على حساب حقوق أنفسهم وأهليهم ومجتمعهم ، حتى أن أحدهم عزم أن يصوم الدهر فلا يفطر ، والثاني أن يقوم الليل فلا ينام ، والثالث أن يعتزل النساء فلا يتزوج - غضب لذلك ، وأنكره بقوة وخطب فيهم قائلاً: «أما إني أتقاكم لله ، وأخشاكم له ، ولكن أصوم وأفطر ، وأقوم وأنام ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[1] .

وقد أراد بعض الصحابة أن يخصوا أنفسهم ، قطعاً لشهوة الجنس ، واستأذنوه في ذلك فلم يأذن لهم.

وتتمثل المرونة في طريقة الدعوة ، وسياسة الناس ، وتعليم الخلق ، ومخاطبة الناس على قدر عقولهم ، ولهذا أمر بالتيسير والتبشير ، ونهى عن التعسير والتنفير ، فيقول في الحديث: «يَسروا ولا تُعسروا ، وبَشروا ولا تُنفروا».

وفي حادثة الأعرابي الذي جاء بسذاجة البداوة ، يريد أن يبول في جانب من المسجد ، فهمّ به الصحابة وأفزعوه ، قال لهم ﷺ : «لا تزرموه - أي لا تقطعوا عليه بوله - وصُبوا عليه ذَنوباً من ماء ، فإنما بُعثتم ميسرين ولم تُبعثوا معسرين».

وكان من أخلاقه التي وُصِفَ بها ﷺ أنه «ما خُيِّرَ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ، ما لم يكن إثماً ، فإذا كان إثماً كان أبعد الناس عنه».

ومن ذلك أنه كان يجيب عن السؤال الواحد ، بإجابات مختلفة رعاية لحال السائلين ، وظروف كل منهم.

ومن ذلك رعايته للضعف البشري في الناس ، ومعاملتهم على أنهم آدميون خطاءون ، لا ملائكة مطهرون. ولهذا حينما جاءه حنظلة شاكياً من نفسه ، ومن تغير حاله في بيته وبين زوجه وأولاده عن حاله عند النبي ﷺ متهماً نفسه بالنفاق ، قال له: « يا حنظلة ، لو دمتم على الحال التي تكونون عليها عندي لصافحتكم الملائكة في الطرقات ، ولكن يا حنظلة .. ساعة وساعة».

---

(١) رواه البخاري.

ومن ذلك سماحه بالغناء في بيت عائشة ونهيه أبا بكر عن انتهار الجاريتين المغنيتين وقوله: «دعهما يا أبا بكر ، فإنها أيام عيد».

ومن ذلك إتاحته لعائشة أن تنظر إلى الحبشة وهم يلعبون بالحراب في مسجده ﷺ حتى تكون هي التي تنصرف ، تقديراً لعواطفها وصغر سنها ، حتى كان يُسَرِّب إليها من بنات الأنصار من يلعب معها ويسليها.

ومن مرونته ﷺ تقديره لكل وجهة نظر يبديها ذو رأي من أصحابه ، وإن خالفت رأياً له ﷺ أو أمراً صدر منه ، كما في إذنه ﷺ لأبي هريرة أن يبشر الناس ، أن «من قال لا إله إلا الله ، دخل الجنة» فلما عارض ذلك عمر خشية أن يتكل الناس أقره على وجهة نظره ، وألغى إذنه السابق لأبي هريرة ، كما في صحيح مسلم.

* * *

• الثبات والمرونة في هَدي الصحابة والراشدين:

وإذا طالعنا هدي الصحابة رضي الله عنهم - وهم تلاميذ مدرسة النبوة ، وأفقه الناس للإسلام وأحرصهم على تطبيقه ، والوقوف عند حدوده وبخاصة الخلفاء الراشدين ، الذين أمرنا أن نستن بسنتهم[١] ونعض عليه بالنواجذ - وجدنا صحائف مشرقة تتضح فيها مزية الجمع بين الثبات والمرونة بلا غلو ولا تقصير.

(أ) يتمثل الثبات في موقف «أبي بكر» رضي الله عنه ممن امتنعوا عن أداء فريضة الزكاة ، وقالوا: نصلي ولا نزكي ، ورفضه أن يُفَرِّق بين العبادة البدنية «الصلاة» والعبادة المالية «الزكاة» ، وهما قرينتان في الكتاب والسنّة. وفي هذا قال كلمته الخالدة: «والله لأقاتلنّ من فَرَّق بين الصلاة والزكاة. والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها لرسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها».

---

(١) ليس المراد بسنّة الراشدين: أقوالهم الجزئية: وآراءهم الفردية ، في الفقه أو التفسير أو ما شابه ذلك بل «منهجهم العام» في فهم روح الإسلام ، وتطبيق أحكام القرآن والسنّة أي اتباع المنهج الفكري والعملي لهم وهو كما سنرى منهج متوازن ، يقوم - فيما يقوم - على الثبات على الأصول والغايات ، والمرونة في الفروع والوسائل.

وتتمثل المرونة في موقفه من سيف الله «خالد بن الوليد» ، حين أخطأ ، فقتل مالك بن نويرة ومن معه فى حروب الردة ، ولم يسمع لغضبة عمر وأبى قتادة الأنصارى ، وثورتهما على خالد فى قتله قوماً كانوا مقرين بالإسلام.

وحين الحّ «عمر» على «أبى بكر» فى شأن خالد ، قال له: هبه ياعمر ، تأوَّل فأخطأ ، فارفع لسانك عن خالد. ولم يكف عمر هذا الجواب ، وظل يلح على أبى بكر ، فلما ضاق ذرعاً بإلحاحه قال: يا عمر ، ما كنت لأشيم (أغمد) سيفاً سلّه الله على الكافرين.

فقد يبدو أن أبا بكر كان يرى أن خطأ خالد ، قد يهون فى جانب ما له من فضائل ، وما أجرى الله على يديه من انتصارات بالأمس ، وما لا يزال يتوقع أن يتحقق على يديه من معارك الغد ، والأخطار لا زالت تحدق بالجماعة المسلمة. وقد قال الرسول ﷺ فى شأن «حاطب بن أبى بلتعة» فى فتح مكة ، حين نقل أخبار تحركات الرسول بجيشه إلى المشركين وهو عمل يعد من أعمال الخيانة: «ما يدريكم؟ لعل الله اطلع على أهل بدر ، فقال: اعملوا ما شئتم ، فقد غفرت لكم».

فدلّ هذا الموقف النبوى أن السوابق المشرفة تشفع لأصحابها. فهذا هو سر مرونة أبى بكر فى هذا الموقف ، على عكس تشدده وصلابته في قتال مانعى الزكاة.

لأن الموقف الأول ، يتصل بفريضة أساسية لا يجوز التنازل عنها ، أو المساومة عليها.

أما الآخر فيتصل بموقف جزئى محتمل للتأويل ، وفى ظروف غير عادية.

(ب) يتمثل الثبات فى موقف «عمر» رضى الله عنه من «جبلة بن الأيهم» الأمير الغسانى حين لطم رجلاً من سوقة المسلمين ، وأبى الرجل إلا أن يقتص منه ، فطلب منه عمر أن يرضيه أو يقبل القصاص ولا بد ، وفَرَّ الأمير المستكبر مرتداً ، حتى لا يقتص منه واحد من عامة الناس. ولم يبال به عمر ، لأن التفريط فى مبدأ العدل والمساواة أمام الشرع أضر من ارتداد شخص ما عن

الإسلام ، واحترام هذا المبدأ وتطبيقه أهم من كسب واحد إلى الإسلام مهما كان مركزه الاجتماعى.

وتتمثل المرونة فى تأخير «عمر» فريضة الزكاة عن أرباب الماشية من الإبل والبقر والغنم فى عام الجدب ، تيسيراً على الناس ، على أن يأخذها منهم بعد أن تتحسن ظروفهم ، وفي إيقافه قطع يد السارق فى المجاعة ، عملا بمبدأ «درء الحدود بالشبهات» وقد أخذه من السنّة النبوية.

ومثل ذلك مرونته فى موقفه من نصارى بنى تغلب ، وقد قيل له: إن القوم لهم بأس وشدة ، وهم عرب يأنفون من الجزية ، فلا تعن عليك عدوك بهم ، وخذ منهم الجزية باسم الصدقة ، وكانوا هم طلبوا أن تؤخذ منهم الصدقة مضاعفة ، على ألا تسمى جزية. وقد امتنع «عمر» عن ذلك فى أول الأمر ، ثم وافق عليه ، لما فيه من جلب المصلحة ودرء المفسدة[١] .

ورُوى عنه أنه قال: هؤلاء حمقى ، رضوا بالمعنى وأبوا الاسم[٢] .. ومثل ذلك من عمر موقفه من بعض من ارتدوا عن الإسلام لظروف خاصة ، فقد روى البهيقى فى «السنن الكبرى» بسنده عن أنس بن مالك ، قال: لما نزلنا على «تستر» فذكر حديثاً فى الفتح وفى قدومه على عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

قال عمر: يا أنس ، ما فعل الرهط الستة من بكر بن وائل ، الذين ارتدوا عن الإسلام ، فلحقوا بالمشركين ؟

قال أنس: فأخذت به فى حديث آخر - أى ليشغله عنهم .

قال: ما فعل الرهط الستة الذين ارتدوا عن الإسلام ، فلحقوا بالمشركين من بكر بن وائل؟

قال أنس: ياأمير المؤمنين ، قُتلوا فى المعركة.

قال: إنا لله ، وإنا اليه راجعون!

---

(١) انظر: الخراج ، لكل من أبي يوسف ص ١٤٣ ويحيى بن آدم ص ٦٦ ،٦٧. ط السلفية والأموال لأبي عبيد ص٥٤١.

(٢) المغني جـ٩ ، ص٣٣٦ ط العاصمة بالقاهرة.

قلت: يا أمير المؤمنين ، وهل كان سبيلهم إلا القتل؟

قال: نعم ، كنت اعرض عليهم الإسلام ، فان أبوا استودعتهم السجن[1] .

ومعنى هذا الأثر: أن «عمر» لم ير عقوبة القتل لازمة للمرتد فى كل حال ، وأنها يمكن أن تسقط أو تؤجل ، إذا قامت ضروره لإسقاطها أو تأجيلها. والضرورة هنا ، حالة الحرب ، وقرب هؤلاء المرتدين من المشركين وخوف الفتنة عليهم ، ولعل عمر قاس هذا بما جاء عن النبى ﷺ فى قوله:«لاتُقطع الأيدى فى الغزو» وذلك خشية أن تدرك السارق الحمية فيلحق بالعدو.

وهناك احتمال آخر ، وهو أن يكون رأى «عمر» أن النبى ﷺ حين قال: «من بَدَّلَ دينه فاقتلوه» قالها بوصفه إماماً للأمة ، ورئيساً للدولة ، أى أن هذا قرار من قرارات السلطة التنفيذية ، وعمل من أعمال السياسة الشرعية ، وليس فتوى وتبليغاً عن الله ، تُلزم به الأمة فى كل زمان ومكان وحال. فيكون قتل المرتد وكل من بَدَّلَ دينه، من حق الإمام ، ومن اختصاصه وصلاحية سلطته ، فاذا أمر بذلك نُفذَ ، وإلا فلا.

على نحو ما قال الحنفية والمالكية فى حديث : «من قتل قتيلاً فله سلبه» وما قال الحنفية فى حديث : «من أحيا أرضاً ميتة فهى له»[2] .

لعل الاحتمال الأول هو الأرجح ، ولعل الاحتمال الثانى هو ملحظ ما نقل عن الفقيه التابعى إبراهيم النخعى فى حبس المرتد أبداً حتى يتوب.

هذه دلائل شتى ، وأمثله متنوعة ، من نصوص الإسلام وأحكام شريعته ، وهدى كتابه ، وسنة نبيه ، وسيرة خير القرون من أجياله ، يتجلى فيها الثبات والمرونه جنباً إلى جنب ، فلا تعارض ولا اصطدام ، لأنه ثبات فيما يجب أن يبقى ويدوم ، ومرونة فيما ينبغى أن يتغير ويتطور ، ولا يجمد على حال واحدة.

* * *

---

(١) السنن الكبرى للبيهقي جـ٨ ص٢٠٧ وتلخيص الحبير للحافظ ابن حجر جـ٤ ص٥٠ والمحلى لابن حزم جـ١١ ص٢٣١ ط الإمام ، وقد ذكر ابن حزم هذا الأثر حجة لقول من قال: يستتاب المرتد أبداً دون قتل.

(٢) انظر في ذلك: الإحكام في تمييز الفتاوى من الأحكام للقرافي ص ٨٦-١٠٦ بتحقيق عبد الفتاح أبي غدة ، والفروق للقرافي أيضاً جـ١ ص٢٠٥-٢٠٩.

• الفقه الإسلامى بين الثبات والتطور:

ولا عجب بعد ما ذكرنا من هَدي القرآن ، وسنّة الرسول ، وموقف الصحابة ، من الثبات والمرونة - أن نجد الفقه الإسلامى ، بمختلف مدارسه ومذاهبه ، يسير فى نفس هذا الاتجاه ثابتاً على الأصول والكليات ، مرنا متطوراً فى الفروع والجزئيات.

إنه لا يعطى المسلم حرية مطلقة فى تنظيم حياته ولو على حساب عقائده وقيمه ومفاهيمه ، كما أنه لا يقيده فى كل شئونه بتشريعات مفصلة دائمة ، لا يستطيع الفكاك منها.

فالفقيه المسلم ، مقيد حقاً بالنصوص المحكمة الثابتة بالقرآن والسنّة ، وهى المجزوم بثبوتها ، القواطع فى دلالتها ، التى أراد الشارع الحكيم أن تلتقى عندها الأفهام ، ويرتفع عندها الخلاف ، وينعقد عندها الإجماع ، فهى أساس الوحدة الفكرية والسلوكية ، للمجتمع المسلم ، وهى للأمة كالجبال للأرض تمسكها أن تميد ، وتحميها أن تضطرب وتتزلزل ، وهذا النوع من النصوص قليل جداً بالنسبه إلى سائر النصوص.

ومع هذا التقيد الملزم ، يجد الفقيه المسلم نفسه فى حرية واسعة أمام منطقتين فسيحتين ، من مناطق الاجتهاد وإعمال الرأى والنظر.

* * *

• منطقة الفراغ التشريعى:

أما المنطقه الأولى ، فهي ما يمكن تسميته : « منطقة الفراغ التشريعى» تلك المنطقة التى تركتها النصوص - قصداً - لاجتهاد أولي الأمر والرأى ، وأهل الحل والعقد فى الأمة ، بما يحقق المصلحة العامة ، ويرعى المقاصد الشرعية ، من غير أن يقيدنا الشارع فيها بأمر أو نهى. وهي المنطقة التي يسميها بعض الفقهاء «العفو» تبعاً لما جاء في بعض الأحاديث : «ما أحل الله فى كتابه فهو حلال ، وما حرّم فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عفو ، فاقبلوا من الله عافيته ، فإن الله لم يكن لينسى شيئاً. وتلا : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾[1] .

---

(١) رواه البزار والحاكم وصححه - والآية من سوة مريم: ٦٤

وفي حديث آخر: «إن الله حَدَّ حدوداً فلا تعتدوها ، وفرض فرائض فلا تضيعوها ، وحرم أشياء فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة بكم من غير نسيان فلا تبحثوا عنها»[1] .

فالحدود التي قدَّرها الشرع ، لا يجوز اعتداؤها ، مثل تحديد الطلاق الذي تجوز بعده الرجعة بمرتين ، وتحديد عدة المطلقة بثلاثة قروء ، أو بوضع الحمل ، وتحديد أنصبة الورثة في تركة الميت ، وتحديد نصاب الزكاة ومقدار الواجب فيها ، وكذلك العقوبات المُقَدَّرة بمائة جلدة ، أو بثمانين ، أو بقطع اليد ونحوها.

فلا يجوز لمجتهد ولا سلطان أن يُغير هذه المعالم ، ويتجاوز هذه المقدرات الشرعية.

ومثل ذلك الفرائض التي أوجبها الله كالعبادات الأربع التي هي أركان الإسلام ، ومبانيه العظام ، ومثل ذلك الجهاد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وبر الوالدين ، وصلة الأرحام ، والإحسان إلى الجار ، وأداء الأمانات ، والحكم بالعدل وغيرها.

فلا يجوز لأحد أن يُسقط أو يُلغي شيئاً من هذه الفرائض ، أو يتساهل فيها. ففرضيتها ثابتة في شريعة الإسلام ، لا تقبل نسخاً ولا تجميداً ولا تطويراً، ولا يجوز أن تضيع في مجتمع مسلم.

وكذلك المحرمات اليقينية ، التي أشرنا إليها من قبل ، مثل: الشرك ، والسحر ، والقتل ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات ، والزنا وشرب الخمر ، والسرقة ، وشهادة الزور ، ونحوها.

فهذه كلها ثابتة ، لا تلين للعصور ، ولا يتهاون فيها يوماً ، فيفتي بحلها مجتهد ، أو يُرَخِّص فيها حاكم. ولا يجوز أن تُنتهك في مجتمع مسلم.

---

(١) رواه الدارقطني وحسّنه النووي في الأربعين ، ونوزع في ذلك كما في شرح هذا الحديث لابن رجب الحنبلي في كتابه «جامع العلوم والحكم».

وما عدا هذه الحدود والفرائض والمحرمات ، فهي أمور مسكوت عنها ، متروكة للاجتهاد ، رحمة بالأمة ، وتيسيراً وتوسعة عليها ، وبهذا تجد أمامها مجالاً رحباً مرناً ، تتحرك فيه بيسر وسهولة دون أن تشعر بالإثم في دينها ، أو الحرج في دنياها.

أما كيف تملأ الأمة هذا «الفراغ التشريعي» أو «منطقة العفو» التي تركتها النصوص قصداً ، كما قلنا ، فهناك طرائق ومسالك عديدة يختلف في تقديرها وفي الأخذ بها فقهاء الشريعة ما بين قابل ورافض ، ومطلق ومقيد ، ومقل ومكثر.

هناك القياس بقيوده وشروطه وإن خالف فيه بعض المعتزلة والظاهرية والإمامية.

هناك الاستحسان الذي أخذ به الحنفية والمالكية وجاء عن بعضهم: أنه تسعة أعشار العلم.

هناك الاستصلاح أو اعتبار المصلحة المرسلة وهي التي لم يجيء نص خاص من الشارع باعتبارها ولا بإلغائها ، واشتهر الأخذ بها عند المالكية وإن كانت المذاهب الأربعة كلها قد أخذت بها عند التحقيق والتطبيق ، كما يتضح ذلك بالقراءة والاستقراء لكتب كل مذهب.

هناك اعتبار العرف بقيوده وشروطه ، ولهذا كان من القواعد الكلية الشرعية: أن العادة محكمة ، وأن المعروف عرفاً كالمشروط نصاً. وقد قال أحد الناظمين في الفقه :

والعرفُ في الشرعِ له اعتبارٌ   لذا عليه الحُكمُ قد يُدار

وهناك مصادر وأدلة أخرى لاستنباط الحكم الشرعي فيما لا نص فيه. يُرجع إليها في كتب أصول الفقه.

* * *

- **منطقة النصوص المحتملة:**

والثانية: منطقة النصوص المتشابهات ، التي اقتضت حكمة الشارع أن تجعلها هكذا محتملات ، تتسع لأكثر من فهم ، وأكثر من رأي ، ما بين موسع ومضيق ، وما بين قياسي وظاهري ، وما بين متشدد ومترخص ، وما بين واقعي ومفترض.

وفي كل هذا فسحة وسعة لمن أراد الموازنة والترجيح وأخذ أقرب الآراء إلى الصواب ، وأولاها بتحقيق مقاصد الشرع ، فقد يصلح رأي لزمن ولا يصلح لآخر ، أو يصلح لبيئة ولا يصلح لأخرى ، أو يصلح لحال ولا يصلح لغيره.

وهكذا نجد في النظام الإسلامي مواضع إجماعية لم يختلف فيها اثنان من علماء الأمة وهي الأسس الثابتة ، التي يرتكز عليها بناء النظام الإسلامي ، مثل ملكية الأرض للأفراد ، وجواز استغلالها وشرعية توارثها ، فهذا مما لم يخالف في ثبوته ومشروعيته أحد من فقهاء المسلمين.

ولكن إذا جئنا إلى طريقة استغلال الأرض ، وجدنا مذاهب وأقوالاً شتى ، يستند كل منها إلى أدلة شرعية محتملة للتضعيف والترجيح.

فهناك من يقول بمنع المزارعة ، وبإباحة المؤاجرة استناداً إلى ما ورد في ذلك من آثار ، وإلى المشروعية العامة للإيجار والاستئجار في سائر الأشياء. ومنهم من عكس فأباح المزارعة لما صح من معاملة النبي لأهل خيبر على أساسها ولما فيها من المشاركة في المغنم والمغرم ، ولكنه منع المؤاجرة لما فيها من مخاطرة بالبذور والنفقة والجهد دون فائدة محققة للمستأجر مع الربح المحقق للمالك ، أما المزارعة ففيها اشتراك في الغُنم والغُرم قلّ أو كثر.

وهناك من يُجيز المزارعة والمؤاجرة جميعاً ، بشرط ألا تشتمل المزارعة على شرط فاسد ، لأنه لم يصح عنده نهي مطلق عن هذه أو تلك.

وبعضهم يُوجب في المؤاجرة أن يضع المالك من الأجرة في حالة الجوائح والآفات تصيب الزرع وفقاً لقدر الخسارة ، لما جاء في الحديث أن النبي ﷺ أمر بوضع الجوائح.

وهناك من لا يجيز المزارعة ولا المؤاجرة جميعاً. ويُوجب على المالك أحد أمرين:

إما أن يزرع أرضه بنفسه وأدواته.

وإما أن يُعيرها لغيره ليزرعها بدون مقابل. أخذاً بحديث: «من كانت له أرض فليزرعها أو يمنحها أخاه»[1].

أية مرونة ، وأية سعة ، يجدها الفقيه المسلم ، وبالتالي المجتمع المسلم ، إزاء هذه الآراء المتنوعة ، وهذه الخصوبة الفقهية المثرية؟

إن لكل رأي من هذه الآراء مستنده الفقهي ، ودليله الشرعي ، ولكل منها وجهة معتبرة.

ويمكننا أن نأخذ بما نراه أرجح وأقوى وأدنى إلى تحقيق المصلحة بالنظر إلى ظروف مجتمعنا وعصرنا ، دون أن ينكر علينا فقيه واحد ، لأن من المتفق عليه: أنه لا إنكار على مجتهد في المسائل الاجتهادية.

فهذه هي شريعة الإسلام: لو شاء الله لجعل أحكامها كلها منصوصاً عليها نصاً قطعي الثبوت قطعي الدلالة ، وبذلك لا يكون هناك مجال لاجتهاد أو استنباط، ولاختلاف المشارب وتعدد المدارس ، وتطور الآراء ، وتغير الفتوى بتغيير الزمان والمكان والحال ، وإنما هو حكم واحد ثابت مؤبد.

ولو شاء أيضاً ، لجعل النصوص الشرعية كلها ظنية الثبوت ، أو ظنية الدلالة ، أو ظنيتهما معاً ، وبذلك لا يوجد حكم واحد ثابت مقطوع به ، فضلاً عن الأمور التي لا نص فيها أصلاً. وفي هذا من البلبلة ما فيه ، وهو مناف لحكمة إرسال الرسل ، الذين أرسلهم الله بالبينات ، وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وليحكموا بين الناس فيما اختلفوا فيه ، ويهدوهم إلى صراط مستقيم.

ولكن شاء الله أن يكون من مصادر هذا الدين وأدلته ، القطعي اليقيني الذي لا يقبل النقاش ولا التغيير ، ولا يحتمل أكثر من وجه ، ولا يسع مسلماً أن

---

(١) متفق عليه.

يهمله أو يعرض عنه ، وإلا كان ذلك طعناً في إيمانه بكتاب ربه ، وسنّة نبيه: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾[1] ، ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾[2] .

كما شاء - سبحانه - أن يكون بجوارها المصادر الاجتهادية ، والأدلة الظنية ، ليتسع المجال للنظر والترجيح ، وتتعدد مآخذ الاجتهاد ، وطرائق الاستنباط ، ومدارس الفكر ، وفي ذلك كله نجد متسعاً أي متسع للتطور المحمود ، بفضل هذه المرونة العجيبة التي تضمنتها مصادر الشريعة.

* * *

* تغير الفتوى بتغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والعوائد:

ومن هنا لم يجد المحققون من فقهاء المسلمين ، في مختلف العصور أي غضاضة أو حرج في إعلان وجوب تغير الفتوى ، بتغير الأزمنة والأمكنة والأعراف والأحوال.

يقول الإمام ابن القيم في فصل تغير الفتوى واختلافها بحسب ما ذكرناه :

«هذا فصل عظيم النفع جداً ، وقد وقع بسبب الجهل به غلط عظيم على الشريعة ، أوجب من الحرج والمشقة وتكليف ما لا سبيل إليه - ما يعلم أن الشريعة الباهرة التي في أعلى رتب المصالح لا تأتي به ، فإن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد ، وهي عدل كلها ، ورحمة كلها ، ومصالح كلها ، فكل مسألة خرجت من العدل إلى الجور ، وعن الرحمة إلى ضدها ، وعن المصلحة إلى المفسدة ، وعن الحكمة إلى العبث ، فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل»[3] .

وكذلك كتب الإمام القرافي المالكي في كتابه «الإحكام» مبيناً أن استمرار الأحكام ، التي مدركها العرف والعادة - مع تغير تلك العوائد - خلاف الإجماع وجهالة في الدين.

---

(١) الأحزاب: ٣٦ (٢) النور: ٥١ (٣) أعلام الموقعين لابن القيم جـ٣.

كما عالج ذلك في كتابه «الفروق» بهذه الروح نفسها.

وفي القرن الثالث عشر الهجري ، كتب علامة متأخري الحنفية «ابن عابدين» رسالته المشهورة «نشر العرف في بناء بعض الأحكام على العرف» مستخلصاً أحكامها مما قرره علماء المذهب أنفسهم وأفتوا به في مختلف الأعصار.

وقد ذكر في هذه الرسالة النافعة: أن كثيراً من الأحكام تختلف باختلاف الزمان لتغير عرف أهله ، أو لحدوث ضرورة ، أو لفساد أهل الزمان ، بحيث لو بقي الحكم على ما كان عليه أولاً ، للزم منه المشقة والضرر بالناس ، ولخالف قواعد الشريعة المبنية على التخفيف والتيسير ودفع الضرر والفساد.

ولهذا نرى مشايخ المذهب خالفوا ما نص عليه المجتهد (إمام المذهب) في مواضع كثيرة بناها على ما كان في زمنه ، لعلمهم بأنه لو كان في زمنهم لقال بما قالوا به ، أخذاً من قواعد مذهبه[1] .

ومن أمثلة ما تغيرت فيه الفتوى والحكم بتغير البيئات والأزمان والأحوال:

ما وقع من عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه - إذ كان والياً على المدينة ، فكان يحكم للمدعي بدعواه ، إذا جاء بشاهد واحد ، وحلف اليمين ، فيعد يمين المدعي قائمة مقام الشاهد الثاني فلما ولي الخلافة ، وأقام في عاصمة الدولة بالشام لم يحكم إلا بشهادة رجلين ، أو رجل وامرأتين ، فسئل في ذلك. فقال: لقد وجدنا أهل الشام على غير ما عليه أهل المدينة[2] .

وما فعله عمر في الشام لا ينافي ما جاء عن النبي ﷺ أنه قضى بشاهد ويمين ، فإن قضاء النبي ﷺ بذلك يدل على جوازه ومشروعيته ، ولا يدل على الوجوب والإلزام. فيجوز القضاء بالشاهد الواحد مع اليمين في بعض الحالات وتركه في حالات أخرى بناء على اعتبارات صحيحة كما فعل عمر بن عبد العزيز.

---

(١) مجموعة رسائل ابن عابدين جـ٢ ص١٢٥.

(٢) انظر: أصول التشريع للأستاذ على حسب الله ص٨٤ ،٨٥ وراجع فصل اختلاف الفتوى باختلاف الأزمنة والأمكنة في أعلام الموقعين جـ٣ ص٢٧ ، وما بعدها.

كما أنه من المجازفة - وقد صح حديث الشاهد مع اليمين - أن يرد الحديث رداً مطلقاً ويمنع العمل به في أي حال من الأحوال.

ومن الأمثلة أيضاً : ما ذكره شمس الأئمة «السرخسي» أن أبا حنيفة - رحمه الله - كان يُجَوِّزُ القضاء بشهادة مستور الحال في عهد تابعي التابعين ، اكتفاء بالعدالة الظاهرة ، أما بعد هذا العصر فقد منع الصاحبان «أبو يوسف» و «محمد» القضاء بشهادته ، لانتشار الكذب بين الناس[١] .

ويقول فقهاء الحنفية في مثل هذا الخلاف بين الإمام وصاحبه: «اختلاف عصر وزمان ، لا اختلاف حجة وبرهان».

وكان أبو حنيفة في أول عهد الفرس بالإسلام ، وصعوبة نطقهم بالعربية ، يُرَخِّصُ لغير المبتدع منهم بقراءة ما لا يقبل التأويل من القرآن في الصلاة باللغة الفارسية ، فلما لانت ألسنتهم من ناحية ، وانتشر الزيغ والابتداع من ناحية أخرى ، رجع عن هذا القول[٢] .

ورووا عن العلامة الفقيه «أبي محمد بن أبي زيد القيرواني» صاحب الرسالة المشهورة في فقه المالكية ، وشيخ المذهب في وقته ، أنه اتخذ كلباً للحراسة في داره. فأنكر عليه بعضهم قائلاً: كيف تتخذه وقد كَرِّهَهُ مالك؟ فكان جوابه: لو كان مالك في زماننا لاتخذ أسداً ضارياً !

وفي كل مذهب من المذاهب المتبوعة ، يجد الباحث أمامه أمثلة عديدة تغيرت فيها الفتوى من علماء المذهب ، بتغير موجباتها ، من الأمكنة والأزمنة والأحوال والعوائد.

وليس هذا بدعاً من قائليه ، معاذ الله ! بل له أصل من هدي رسول الله ﷺ وأصحابه من بعده.

روى ابن أبي شيبة بسنده[٣] أن رجلاً جاء إلى ابن عباس فقال: ألمن قتل

---

(١) نفس المصدر السابق ونفس الملاحظة. (٢) نفس المصدر السابق ونفس الملاحظة.
(٣) قال الجاحظ في التلخيص جـ٤ ص١٨٧: رجاله ثقات.

مؤمناً توبة؟ قال: لا. إلى النار. فلما ذهب قال له جلساؤه: ما هكذا كنت تفتينا ، فما بال هذا اليوم؟ قال: إني أحسبه مغضباً يريد أن يقتل مؤمناً. فبعثوا في أثره فوجدوه كذلك.

رأى ابن عباس في عيني هذا الرجل الحقد والغضب والتوثب للقتل ، وإنما يريد فتوى تفتح له باب التوبة بعد أن يرتكب جريمته ، فقمعه وسد عليه الطريق ، حتى لا يتورط في هذه الكبيرة الموبقة ، ولو رأى في عينيه صورة امرئ نادم على ما فعل ، لفتح له باب الأمل.

وقد روى سعيد بن منصور عن سفيان قال: كان أهل العلم إذا سُئلوا عن القاتل قالوا: لا توبة له ، وإذا ابتلي رجل (أي قتل بالفعل) قالوا له: تُب[1] .

وفي هذا المعنى ما أخرجه أبو داوود عن أبي هريرة: أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن المباشرة للصائم - فَرَخَّصَ له .. وأتاه آخر فسأله عنها فنهاه ، فإذا الذي رَخَّصَ له شيخ ، وإذا الذي نهاه شاب[2] .

وأشهر من ذلك أن النبي ﷺ كان يجيب عن السؤال الواحد بأجوبة مختلفة. وذلك لاختلاف أحوال السائلين فهو يجيب كل واحد بما يناسب حاله ، ويعالج قصوره أو تقصيره.

فقد وجدنا من يسأله عن وصية جامعة فيقول له: «لا تغضب».

وآخر يقول له: «قل آمنت بالله ثم استقم».

وآخر يقول له: «كُفَّ عليك لسانك».

وهكذا يعطي كل إنسان من الدواء ما يرى أنه أشفى لمرضه ، وأصلح لأمره.

فهذا وما سبق أصل في تغيير الجواب أو الفتوى بتغير أحوال السائلين.

ومن هذا ما رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

---

(١) تلخيص الحبير جـ٤ ص١٨٧ بتعليق السيد عبد الله هاشم اليماني.
(٢) المصدر نفسه.

سُئل النبي ﷺ : «أي الأعمال أفضل؟ قال: إيمان بالله ورسوله. قيل: ثم ماذا؟ قال: جهاد في سبيل الله. قيل: ثم ماذا؟ قال: حج مبرور»[١] .

فجعل الجهاد في سبيل الله أفضل الأعمال بعد الإيمان..

وفي هذا المعنى جاءت أحاديث شتى تجيب السائلين بأن الجهاد لا يعدله عمل آخر إلا من استطاع أن يصوم الدهرفلا يفطر ، ويقوم الليل فلا ينام.

ولكن البخاري نفسه روى عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: يا رسول الله .. نرى الجهاد أفضل العمل. قال: «لكُنَّ أفضل الجهاد: حج مبرور»[٢] - زيدت كلمة «لكُنَّ» بضم الكاف وهو الأكثر على أنها خطاب تفسره ويكسرها مع مد اللام على أنها للاستدراك - والمراد واحد وهو أن الجهاد إن كان أفضل العمل فذلك في حق الرجال ، أما النساء فأفضل جهاد لهن الحج المبرور. فهنا تغيرت فتواه وجوابه ﷺ لما كان السائل امرأة. إذ الشأن في حمل السلاح أن يكون للرجال. وهذا كله - وغيره كثير - أصل في تغيير الجواب أو الفتوى بتغير أحوال السائلين فكيف إذا تغير الزمان والمكان؟

* * *

● موقف المجتمع المسلم من المجتمعات الأخرى:

بهذا كله ، يظهر لنا وجه المجتمع المسلم ، بَيِّن الملامح ، واضح القسمات مميزاً بهذه الفضيلة البارزة في حياته ، وهي: الجمع بين الثبات الذي يمنحه الاستقرار فلا يتزحزح عن مبادئه ولا يتحول عن أصوله ، وبين المرونة التي يواجه بها سير الزمن ، وسنّة التطور.

فهو يجمد في بعض الأمور كالصخر ، ويلين في بعض الأمور كالعجين ! أو كما قال شاعر الإسلام في الهند «محمد إقبال» في وصف المسلم: «يجمع بين نعومة الحرير ، وصلابة الحديد».

---

(١) تلخيص الحبير جـ٤ ص١٨٧ بتعليق السيد عبد الله هاشم اليماني.
(٢) صحيح البخاري كتاب :«الحج» باب: فضل الحج المبرور.

وعلى ضوء ما ذكرناه نستطيع أن نتبين موقف هذا المجتمع من المجتمعات الأخرى ، المخالفة له في العقيدة والوجهة والمبدأ.

إنه لا يذوب فيها ، ولا يتبع أهواءها ، ولا يقلدها ويتشبه بها فيما هو من خصائصها ، فيفقد بذلك أصالته وشخصيته المتميزة ، ويسير وراءها شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع. وهذه هي التبعية التي يرفضها الإسلام لأمته ، التي بوأها الله مكان الأستاذية للبشرية كلها.

ومع هذا لا ينعزل المجتمع المسلم عن غيره من المجتمعات. بل يستطيع أن يقتبس منها ، وينتفع بما لديها ، من معارف وخبرات ومهارات ، لا تضر بكيانه المادي والمعنوي ، لأن العلم المحض وما يتفرع عنه من مكتشفات وأجهزة وأدوات ومخترعات ، لا جنسية له ، ولا لون له.

إنه كالماء ، يأخذ لون الإناء الذي يُوضع فيه.

فعنصر الثبات يتجلى هنا في رفض المجتمع المسلم للعقائد والمبادئ والأفكار والقيم والشعارات التي تقوم عليها المجتمعات الأخرى غير المسلمة وتميزها ، لأن مصدرها غير مصدره ، ووجهتها غير وجهته ، وسُبلها غير صراطه ، فهو مجتمع متميز في المصدر والوجهة والمنهج ، بل في السِمة والشعار أيضاً.

ولهذا حرص رسول الله ﷺ على تميز المسلمين في كل شئونهم عن مخالفيهم من المشركين واليهود والنصارى ، فرفض البوق والناقوس للإعلام بالصلاة ، واختار الأذان.

ووردت عبارة «خالفوهم»[1] في أمور كثيرة ، مما يدل على أن تميز المجتمع المسلم أمر مقصود للشارع[2] .

---

(١) مثل حديث ابن عمر عند الشيخين : «خالفوا المشركين: احفوا الشوارب وأوفروا اللحى» وحديث شداد بن أوس عند أبي داوود والحاكم والبيهقي : «خالفوا اليهود ، فإنهم لا يصلون في نعالهم ولا خفافهم».

(٢) لابن تيمية كتاب قيم عالج فيه هذا الموضوع ، سماه «اقتضاء الصراط المستقيم في مخالفة أهل الجحيم» يجب أن يُقرأ.

ولهذا جاء القرآن يحذر الرسول ﷺ من اتباع أهواء الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين أو التأثر بدسائسهم ووساوسهم ، فيفتنوه عن بعض ما أنزل الله إليه. قال تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً ، وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴾[1] .

هذا في مكة. وفي المدينة قال: ﴿ وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ، وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ إلى أن قال: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[2] .

وهذا هو موقف الفرد المسلم ، والمجتمع المسلم من أحكام الكفار ، إنه يرفضها رفضاً حاسماً ولا يقبل إلا أحكام الله ، لأن من لم يقبل حكم الله ، سقط في حكم الجاهلية ، ولا ثالث لهما.

إن شعار المسلم إزاء كل ما يعرض عليه من مبادئ وأفكار ومذاهب هو هذه الكلمة الموجزة: «إن كان فيها ما في الإسلام فقد أغنانا الله بالإسلام. وإن كان فيها ما يخالف الإسلام ، فنحن لا نبيع ديننا بملك المشرق والمغرب».

وفي مقابل هذا الثبات نجد مرونة وسماحة في الناحية العملية والتطبيقية في الحياة ، مما يتصل بالطرائق والأساليب لا بالمبادئ والأهداف.

فإذا كان لدى مجتمع غير مسلم نظام حسن في تعبئة الجيوش ، أو في تنظيم المواصلات ، أو في توزيع البريد ، أو في تحسين الإنتاج ، أو في ترقية الصناعة أو الزراعة ، أو في تخطيط المدن والقرى ، أو في حفظ الصحة العامة، ومقاومة الأوبئة ، أو في تسخير القوى الكونية بسلطان العلم لمصلحة الإنسان ، أو نحو ذلك من كل ما يتعلق بالجانب العلمي (التقني) والإبداع المادي ، والتنظيم العملي ، فالإسلام يرحب به ، ويعمل على اقتباسه في مجتمعه ، بشرط ألا

(١) الجاثية: ١٨ ــ ١٩ (٢) المائدة: ٤٩ ــ ٥٠.

يصطدم بأحكام الإسلام وقد جاء الحديث: «الحكمة ضالة المؤمن ، فحيث وجدها فهو أحق بها»[1] .

لقد رأينا النبي ﷺ يخطب على جذع نخلة في أول أمره بالمدينة ، فلما كثر المسلمون ، واستقر له الأمر ، استدعى له نجار رومي ، فصنع له منبراً من ثلاث درجات ، فكان يخطب عليه في الجمعة والمناسبات ، وفي غزوة الأحزاب أشار عليه سلمان الفارسي بحفر خندق حول المدينة يحميها من الغزاة المشركين وهذا من أساليب الفرس الدفاعية ، فأعجب به ونَفَّذَهُ ، ولم يقل: هذا من أساليب المجوس لا نأخذ به.

بل رأينا الصحابة رضي الله عنهم يقتبسون بعض التنظيمات الإدارية والمالية الصالحة من الفرس أو الروم وغيرهم ، ولم يجدوا بذلك بأساً ، ما دام يحقق لهم مصلحة ، ولا يصادم نصاً ولا قاعدة ، كما في نظام الخراج ، وهو نظام فارسي الأصل ، ونظام الديوان ، وهو نظام روماني الأصل.

* * *

• المسلمون في العصور الذهبية:

ولقد استطاع المسلمون في العصور الذهبية أن يحتفظوا بشخصيتهم الإسلامية ، ثابتين على عقائدهم وشعائرهم وأخلاقهم وشريعتهم ، وأن يقتبسوا مع هذا من مدنيات الفرس والروم والهنود وغيرهم من القدماء ما ينفعهم ويلائم أوضاعهم ، وأن ينتفعوا بتراث الإغريق «العلمي» بعد أن عَرَّبوه وهَذَّبوه ، وأضافوا إليه ، وأيد ذلك فقهاؤهم وأئمة دينهم - بل ساهموا وشاركوا فيه - ولم يتوقفوا إلا فيما رأوه معارضاً لعقيدتهم وفكرتهم عن الله والوجود ، أو لمنهجهم الفكري. وذلك يتمثل في الجانب «الميتافيزيقي» من الفلسفة الإغريقية ، كما تمثل في منطق أرسطو الذي عارضه جماعة من أكابر العلماء مثل ابن الصلاح ، والنووي ، وابن تيمية الذي أَلَّفَ في نقضه على أساس عقلي وعلمي بحت ، كتابين

---

(١) رواه الترمذي عن أنس في كتاب «العلم» وابن ماجه في كتاب «الزهد» من سننهما وفي سنده كلام.

صغيراً وكبيراً. وسبق بهذا النقض العصر الحديث الذي أقام نهضته على الاستقراء ، لا على القياس الذي هو محور المنطق الأرسطي.

على أن من فقهاء المسلمين من نصر هذا المنطق وتبناه ، واجتهد أن يستدل على صحته من آيات القرآن ، مثل أبي حامد الغزالي ، الذي سماه «معيار العلوم». والمهم أن المسلمين كانوا في غاية من المرونة أمام الجانب العلمي بتعبير عصرنا. وكذلك الجانب الإداري والتنظيمي والعمراني والصناعي. ولم يجدوا أي حرج ديني في اقتباس ذلك من غيرهم ، والزيادة عليهم والتفوق فيه ما استطاعوا. بخلاف الأمور الأخرى المتصلة بالفكرة والعقيدة ، فقد رفضوا هذا الجانب من فلسفة الإغريق ، وخَطّأوا من اعتنقه وأيده من الفلاسفة المنتسبين إلى الإسلام ، بل كَفَّرهم الغزالي وغيره في مسائل معروفة خالفوا فيها المعلوم من الدين بالضرورة ، كما يتضح ذلك في كتابه «تهافت الفلاسفة» وإن رد عليه العالم الفيلسوف القاضي ابن رشد في كتابه «تهافت التهافت».

ولقد أثبت مؤرخو الحضارة الإسلامية أن المنهج العلمي الحديث الذي يتميز به الغرب قد اقتبس من المسلمين ، الذين سبقوا إلى اكتشاف هذا المنهج كاملاً قبل نهضة أوروبا بعدة قرون. وقد شهد بذلك جورج سارتون ، وغوستاف لوبون ، وبريفولت ، وغيرهم من الغربيين المنصفين[١] .

وما زال تاريخ العلم يحتفظ بأسماء لامعة لعلماء مسلمين في الطب والكيمياء والفيزياء والفلك وغيرها ، كما يحتفظ بأسماء كتب علمية ، ظلت مراجع عالمية فذة في موضوعها لعدة قرون.

* * *

• طبيعة واضحة للمجتمع المسلم:

أحسب أن طبيعة المجتمع المسلم لم تعد خافية علينا بعد ما قدمناه من أدلة

---

(١) انظر في ذلك كتاب «مناهج البحث عند مفكري الإسلام واكتشاف المنهج العلمي في العالم الإسلامي» للدكتور: علي سامي النشار .. وانظر كذلك: حضارة العرب لغوستاف لوبون فصل: مناهج العرب العلمية - ترجمة عادل زعيتر.

وأمثلة متنوعة من أوثق مصادر الإسلام ، وبعدما طالعنا من هَدي القرآن الكريم ، وهدي رسوله العظيم ، وهدي الصحابة والراشدين ، ومن تبعهم بإحسان من أئمة المسلمين وفقهائه المجتهدين.

وأحسب أنه لم يعد ثمة مجال للجدل أو التساؤل عن هذا المجتمع :

هل هو مجتمع ثابت جامد؟ أم مجتمع مرن متطور؟

فقد رأينا أنه مجتمع يلتقي فيه الثبات والتطور ، كما تلتقي فيه كل المعاني المتقابلة ، التي يظن كثير من الناس ، أن التقاءها في مجتمع واحد ضرب من المحال ، أو تحليق في سماء الخيال: كالمادية والروحية ، والواقعية والمثالية ، والعلم والإيمان ، والدين والدولة ، والحضارة والأخلاق.

المجتمع المسلم مجتمع متوازن ، ولهذا اجتمعت فيه المتقابلات ، وأخذ كل منها مكانه بالعدل ، وهذا هو وضعه بين الثبات والتطور.

إنه - كما لخصناه في مطلع هذا الفصل - الثبات على الأصول والأهداف والتطور في الفرعيات والأساليب.

المجتمع المسلم مجتمع ثابت متحرك في آن واحد.

إنه أشبه بالنهر الجاري المتدفق ، الذي لا يقف عن الحركة والتجدد والجريان ، ولكن في مجرى مرسوم ، واتجاه معلوم ، ولغاية معروفة.

وإذا كانت طبيعة هذا المجتمع قد اتضحت وتجلت في هذا التوازن المعجز ، فإن الحكمة في ذلك قد بدت ماثلة للعيان أيضاً.

وذلك لأنه إذا اتخذ الثبات المطلق ديدنه في كل الأمور ، الدينية والدنيوية ، المعنوية والمادية ، الكلية والجزئية ، الأصلية والفرعية ، وثبت على الوسائل ثباته على الأهداف ، تجمدت الحياة وتحجرت ، ولم يستفد الناس من الملاحظة والتجربة التي هي أساس العلم الكوني ، وهي أمر واقع حتمي في حياتهم ، وهذا ضد قوانين الكون ، وضد قوانين الفطرة.. فطرة الإنسان وفطرة الأشياء.

كما أنه لو اتخذ المرونة المطلقة مبدأ له ، وشعاراً لحياته ، لتطور على طول الزمن إلى مجتمع بلا قيم ولا ضوابط ، وأفلت زمامه من يد الدين ، أو يصبح الدين خاضعاً لظروفه وتابعاً لحياته يستقيم إذا استقامت ، وينحرف إذا انحرفت. والمفروض في الدين أن يحكم الحياة ، لا أن تحكمه ، وأن يخضعها لمثله وهداه لا أن تخضعه لواقعها وهبوطها.

ولو لان المجتمع المسلم في أفكاره ومفاهيمه وأخلاقه وتقاليده وشرائعه ، للتطور المطلق حسب البيئة والعصر والأحوال الطارئة ، لفقد هذا المجتمع وحدته ، وأصبح في كل قطر مجتمع مغاير للمجتمعات المنتسبة إلى الإسلام في أقطار أخرى ، فلا تُوجد الأمة الواحدة التي أرادها الله ، وإنما توجد أمم ومجتمعات متناقضة متباينة ، كما يريد أعداء الإسلام[1] .

ومن أراد أن يعرف نعمة الله على المجتمع المسلم الذي حفظ له الإسلام توازنه بين الثبات والتطور. فلينظر إلى مجتمعات أخرى - كالمجتمعات الغربية اليوم - كيف فتحت الباب على مصراعيه للتطور المطلق في كل شيء ، فلم يبق في حياتها شيء ثابت تستند إليه ، وترتكز عليه ، فلا عقيدة ولا فضيلة ولا تقليد ولا تشريع ولا أي قيمة من القيم العليا التي ورثتها الإنسانية من كتب السماء وتعلمتها على أيدي الهداة من رسل الله وورثتهم بحق.

وكانت ثمرة هذا التطرف اضطراب الحياة كلها: من قلق نفسي، إلى تخبط فكري ، إلى تحلل خُلقي ، إلى تفسخ أسري ، إلى تفكك اجتماعي.

وقد قابل هذا التطرف تطرف مضاد ، يتمثل في أولئك الشباب الذين رفضوا تطور مجتمعهم إلى ما صار إليه من مادية وآلية ، فاختاروا لأنفسهم حياة غريبة شاذة مثل «الهيبيين» ومن كان على شاكلتهم ، والتطرف لا ينتج إلا تطرفاً مثله.

* * *

---

(١) لمزيد من المعرفة بقيمة «الثبات» في نظام الإسلام ومجتمعه ، انظر خصائص التصور الإسلامي للمرحوم سيد قطب ص٨٣-١٠٦.

- **أمران يُعَرِّضَانِ المجتمع الإسلامي للخطر:**

وإنما يتعرض المجتمع الإسلامي للخطر نتيجة لأحد أمرين:

الأول: أن يجمد ما من شأنه التغير والتطور والحركة ، فتصاب الحياة بالعقم والجمود ، وتصبح كالماء الراكد الآسن الذي يجعله الركود مرتعاً للجراثيم والميكروبات.

وهذا ما حدث في عصور الانحطاط والشرود عن هَدي الإسلام الصحيح فرأينا كيف توقف الاجتهاد في الفقه وتوقف الإبداع في العلم ، والأصالة في الأدب ، والابتكار في الصناعة ، والافتنان في الحرب وغيرها .. وضُربت الحياة بالجمود والتقليد في كل شيء ، وأصبح المثل السائر الذي يعبر عن وجهة النظر السائدة : «ما ترك الأول للآخر شيئاً»!

على حين أخذت المجتمعات الأخرى الراكدة - الذي طالما تتلمذت على المجتمع الإسلامي - تستيقظ وتنهض وتتطور ، ثم تنمو وتتقدم ، ثم تزحف غازية مستعمرة ، والمسلمون في غمرة ساهون.

الثاني: أن يخضع للتطور والتغير ما من شأنه الثبات والدوام والاستقرار ، كما نرى ونسمع في عصرنا الحديث ، أن فئة من أبناء المسلمين ، يريدون خلع الأمة من دينها ، وعزلها عن تراثها كله باسم التطور.

يريدون أن يفتحوا الباب للإلحاد في العقيدة، والانسلاخ من الشريعة، والتحلل من الفضيلة.

كل ذلك باسم هذا الصنم الجديد «التطور».

إنهم يريدون أن يُطوروا الدين نفسه، لكي يلائم ما يريدون استيراده من الشرق أو الغرب ، من عقائد وأفكار، وقيم وموازين ، وأنظمة وتقاليد ، ومثل وأخلاق.

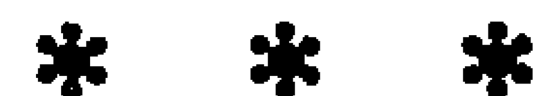
وما جعل الله الدين إلا ليمسك البشرية أن تتدحرج وتنقلب على عقبيها. لهذا أوجب أن يكون الدين هو الميزان الثابت الذي يحتكم إليه الناس إذا اختلفوا ، ويرجعون إليه إذا انحرفوا.

أما أن يصبح الدين خاضعاً لتقلبات الحياة وظروفها ، يستقيم إذا استقامت ، ويعوج إذا اعوجت ، فإنه بذلك يفقد وظيفته في حياة الإنسان.

إن الإصلاح الحقيقي: أن نتفهم جيداً ما يجب أن يتطور من شئون الحياة، فنبذل جهودنا لتطويره وتحسينه ، بمنطق الحكماء الشجعان ، لا الأغرار المقلدين.

كما نعرف ما يجب أن يبقى ثابتاً راسياً ، من القيم والأفكار والعقائد والأخلاق والآداب والشرائع التي تزول الجبال الشم ولا تزول.

بهذا الموقف الحكيم نواجه التطور ونوجهه ، فنفوز بالحسنيين ، ونربح الدنيا ولا نخسر الدين ، ونظفر برضوان الله ، وإعجاب العقلاء من الناس.



محتويات الكتاب

الفصل الثالث : الشمول
(٩٥ - ١١٤)

الفصل الرابع : الوسطية
(١١٥ - ١٤٣)

الفصل الخامس : الواقعية
(١٤٤ - ١٧٢)

الفصل السادس : الوضوح
(١٧٣ - ١٩٨)

الفصل السابع : الجمع بين الثبات والمرونة
(١٩٩ - ٢٤٠)

* *

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : ٣١٨١ / ١٩٨٩

الترقيم الدولي : ٩ - ١٧٩ - ٣٠٧ - ٩٧٧

مؤلفات فضيلة الدكتور : يوسف عبد الله القرضاوى

• فى الفقه وأصوله :

١- الحلال والحرام فى الإسلام.
٢- مئة سؤال عن الحج والعمرة والأضحية.
٣- فتاوى معاصرة (٣ جزء).

• تيسير الفقه للمسلم المعاصر

٤- نحو فقه ميسر معاصر.
٥- فقه الطهارة.
٦- فقه الصيام.
٧- فقه الجهاد.
٨- فقه الغناء والموسيقى فى ضوء القرآن والسنة.
٩- الاجتهاد فى الشريعة الإسلامية.
١٠- مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية.
١١- من فقه الدولة فى الإسلام.
١٢- الفتوى بين الانضباط والتسيب.
١٣- عوامل السعة والمرونة فى الشريعة الإسلامية.
١٤- الفقه الإسلامى بين الأصالة والتجديد.
١٥- الاجتهاد المعاصر بين الانضباط والانفراط.

• فى الاقتصاد الإسلامى :

١- فقه الزكاة (جزءان)
٢- مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام.
٣- بيع المرابحة للآمر بالشراء.
٤- فوائد البنوك هى الربا الحرام.
٥- دور القيم والأخلاق فى الاقتصاد الإسلامى

• فى علوم القرآن والسنة :

١- الصبر فى القرآن.
٢- العقل والعلم فى القرآن الكريم.
٣- كيف نتعامل مع القرآن العظيم ؟
٤- كيف نتعامل مع السنة النبوية ؟
٥- تفسير سورة الرعد.
٦- المدخل لدراسة السنة النبويه.
٧- نحو موسوعة للحديث الصحيح مشروع منهج مقترح
٨- المنتقى من الترغيب والترهيب (جزءان)
٩- السنة مصدرا للمعرفة والحضارة.

• عقائد الإسلام :

١- وجود الله.
٢- حقيقة التوحيد.
٣- الإيمان بالقدر.

• فى فقه السلوك فى ضوء القرآن والسنة:

١- الحياة الربانية والعلم.
٢- النية والإخلاص.
٣- التوكل.
٤- التوبة إلى الله.

• فى الدعوة والتربية :

١- ثقافة الداعية.
٢- التربية الإسلامية ومدرسة حسن البنا.
٣- الإخوان المسلمون ٧٠ عاما فى الدعوة والتربية والجهاد.
٤- الرسول والعلم.
٥- الوقت فى حياة المسلم.
٦- رسالة الأزهر بين الأمس واليوم والغد.

• فى ترشيد الصحوة والحركة الإسلامية

١- الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربى والإسلامى.
٢- أين الخلل.
٣- أولويات الحركة الإسلامية فى المرحلة القادمة.
٤- فى فقه الأولويات - دراسة جديدة فى ضوء القرآن والسنة.
٥- الإسلام والعلمانية وجها لوجه.
٦- الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة
٧- ملامح المجتمع المسلم الذى ننشده.
٨- غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى.
٩- شريعة الإسلام صالحة للتطبيق فى كل زمان ومكان.
١٠- الأمة الإسلامية حقيقة لا وهم.
١١- الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف
١٢- الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم.
١٣- التطرف العلمانى فى مواجهة الإسلام

• سلسلة : حتمية الحل الإسلامى :

١- الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا.
٢- الحل الإسلامى فريضة وضرورة.
٣- بينات الحل الإسلامى وشبهات العلمانيين والمتغربين.
٤- أعداء الحل الإسلامى.

• نحو وحدة فكرية للعاملين للإسلام:

١- شمول الإسلام.
٢- المرجعية العليا فى الإسلام للقرآن والسنة.
٣- موقف الإسلام من الإلهام والكشف والرؤى ومن التمائم والكهانة والرقى.
٤- السياسة الشرعية فى ضوء نصوص الشريعة ومقاصدها.
٥- كيف نتعامل مع التراث والتمذهب والاختلاف.
٦- فصول فى العقيدة بين السلف والخلف.
• (آيات وأحاديث الصفات - الأولياء وكرامتهم - القبور ومبتداعاتها - التوسل)

• إسلاميات عامة :

١- الإيمان والحياة.
٢- العبادة فى الإسلام.
٣- الخصائص العامة للإسلام.
٤- مدخل لمعرفة الإسلام.
٥- الإسلام حضارة الغد.
٦- الناس والحق.
٧- جيل النصر المنشود.
٨- درس النكبة الثانية.
٩- خطب الشيخ القرضاوى (ستة أجزاء)
١٠- إبتهالات ودعوات.
١١- لقاءات ومحاورات حول قضايا الإسلام والعصر (جزءان).
١٢- قضايا معاصرة على بساط البحث.
١٣- قطوف دانية من الكتاب والسنة.

• شخصيات إسلامية :

١- الإمام الغزالى بين مادحيه وناقديه.
٢- الشيخ الغزالى كما عرفته : رحلة نصف قرن.
٣- الشيخ يوسف القرضاوى شخصية العام الإسلامية (١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م)
٤- نساء مؤمنات.

• فى الأدب والشعر :

١- نفحات ولفحات - (ديوان شعر).
٢- المسلمون قادمون - (ديوان شعر).
٣- عالم وطاغية - (مسرحية تاريخية).
٤- يوسف الصديق - (مسرحية شعرية).

• رسائل ترشيد الصحوة :

١- الدين فى عصر العلم.
٢- الإسلام والفن.
٣- النقاب للمرأة بين القول ببدعيته والقول بوجوبه.
٤- مركز المرأة فى الحياة الإسلامية.
٥- فتاوى للمرأة المسلمة.
٦- جريمة الردة وعقوبة المرتد فى ضوء القرآن والسنة.
٧- الأقليات الدينية والحل الإسلامى.
٨- المبشرات بانتصار الإسلام.
٩- مستقبل الأصولية الإسلامية.
١٠- القدس قضية كل مسلم.
١١- حاجة البشرية إلى الرسالة الحضارية لأمتنا.
١٢- فتاوى من أجل فلسطين.
١٣- مبادئ فى الحوار والتقريب بين المذاهب الإسلامية.
١٤- الأسرة كما يريدها الإسلام.
١٥- ظاهرة الغلو فى التكفير.

• محاضرات الدكتور القرضاوى :

١- السنة والبدعة.
٢- زواج المسيار - حقيقته وحكمه.
٣- الضوابط الشرعية لبناء المساجد.
٤- موقف الإسلام العقدى من كفر اليهود والنصارى
٥- الجوينى .. إمام الحرمين ... بين المؤرخين: الذهبى .. والسبكى
٦- الاستلحاق والتبنى .. فى الشريعة
٧- عمر بن عبد العزيز الر...
٨- حقوق الشيوخ والمسنين ...
٩- لماذا الإسلام ؟
١٠- الإسلام الذى ندعو إ...
١١- واجب الشباب المسلم.
١٢- مسلمة الغد.
١٣- الصحوة الإسلامية بين الآمال ...
١٤- قيمة الإنسان وغاية وجوده فى الإسلام
١٥- لكى تنجح مؤسسة الزكاة فى التطبيق المعاصر.
١٦- التربية عند الإمام الشاطبى.
• القرضاوى وذاكرة الأيام.